قصبة
في مهب الريح
تأليف گافن ماكسويل
ترجمة صادق عبد الصاحب التميمي

قصبة في مهب الريح

كافن ماكسويل

قصة

في مهب الريح

ترجمة

صادق عبد الصاحب التميمي

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

A REED SHAKEN
BY THE WIND

BY
Gavin Maxwell

Translated By
Sadiq Abdul Sahib Al - Tamimi

مقدمة الناشر

في هذه الترجمات التي تقدمها دار مكتبة الحياة للقارىء العربي تتعمد أمراً ، أمراً يبدو لها من الأهمية بحيث تراه ضرورة ، والقيام به واجب نبيل ، وهو اطلاع القارىء العربي على خير ما ينتجه الفكر العالمي المتحضر . وهكذا ترى أنها تقوم برسالتها كمؤسسة تعي مسؤوليتها وتعمل للاضطلاع بها على أحسن وجه تجاه بلاد العربية ، فتكون بذلك أداة وصل صادقة وأمينة للفكر العربي الحديث بالفكر الانساني الناضج المعاصر .

ووفق هذا المخطط الذي تتبعه هذه المؤسسة تقدم الترجمات في جميع الحقول والأجواء دون تحيز أو انضواء لاتجاه أو آخر ، متوخية من ذلك خلق وعي ذاتي يقوم على أصالة إدراك للواقع العربي ، ليس تجاه نفسه وحسب ، بل تجاه الواقع الانساني العالمي عامة .

وهي إذ تقوم بتقديم كتاب « قصبة في مهب الريح » لمؤلفه كافن ماكسويل فإنما تقدم به لوحة عن جزء من البلاد العربية كما رآه أحد المراقبين الغرباء عن هذه البلاد . وبذلك تكشف عن نواحٍ جغرافية واجتماعية في الوطن العربي قد لا يلاحظها الدارسون المواطنون بسهولة ، لإلفتهم لها وتماسّهم الدائم معها . ولكنها لمراقب غريب يراها من الخارج ويريدها موضوع دراسة تختلف كل الاختلاف وتتباين كل التباين في مختلف الوجوه والمناحي . فكافن ماكسويل إذ يصف لنا بلاداً نعيش فيها ويصف لنا ما نعرفه ونعانيه إنما هو يصف من زاوية العالم المتحضر

موقفا تجاهنا . ومن خلال ما أورده في هذا الوصف نستطيع فهم هذا الموقف منا ، والدقائق التي يُبرز خطورتها مع إهمالنا نحن لها إنما هي دقائق هامة في مجتمع الحضارة الحديثة . وما تذكير الغير لنا بأوضاعنا إلاّ دعوة لإعادة نظرة تقييم جدية لما ألفنا وتقبلنا دون نقد وتمحيص .

الناشر

ظهر لي وكأننا نطير فوق الصحراء منذ فترة طويلة ولم اتذكر بدايتها، ولاح لي وكأن لا نهاية لها، فقد امتدت حولي الى افق يزحف اليه الظلام، ويزداد عتمه كلما اقترب المساء. والشمس المنحدرة وراء الافق الغربي تجسم بشعاعها الحالم منعطفات وحنايا الصحراء لتبرزها بوضوح تام. وكانت الطائرة على انخفاض يتيح لنا رؤية مضارب البدو السوداء مبعثرة هنا وهناك، ولكن لم يبد ثمة ما يشير الى بارقة من ماء.

وناولني المسافر الذي يجلس امامي من فوق كتفه التقرير عن حالة الطيران فاستطعت ان اعرف منه ان الطائرة كانت تسير بسرعة ٢٢٠ ميلاً في الساعة، وارتفاعها خمسة آلاف قدم عن سطح البحر، واننا سنصل بغداد في الساعة الثانية والعشرين الا ربعاً. ونظرت الى رفيقي ولكنه كان نائماً ولم أر تلك التفاصيل مسرّة للدرجة التي تستدعي إيقاظه لأخبره بها. وناولت التقرير بدوري لراكب آخر ورحت أحدّق في الصحراء، وكانت تتراءى لي بين آونة وأخرى خيالات أشياء ظلالها اطول منها، وقوافل الجمال يقودها البدو ... وهذه القوافل ومضارب الخيام السود كانت الدلائل الوحيدة على وجود الحياة في الصحراء.

وعندما اخذت انظر اليها كنت أحس بانفعال خفي يتملكني جاهدت كثيراً في طرحه عني، ولكنه أبى الا أن يلحّ على اعصابي، ولما امعنت فيه التفكير اخذني الاستغراب ولفّتني الحيرة فقد ادركت انني اشعر .. بالخوف! والى جانبي

كان يجلس ـ ولفرد ثيزيجر ـ وكأنه يوحي بأنه يشعر بالاطمئنان بين مضارب البدو السود وبين جمالهم أكثر من شعوره بذلك في وطنه وبـين ابناء قومه ... وهكذا راح في اغفاءة عميقة هادئة .

☆ ☆ ☆

كنت قد قرأت قبل ذلك بعامين ونصف ، في أيلول من عام ١٩٥٤ ، مقالة لثيزيجر في ـ مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ـ واشتهر ثيزيجر كسائح في البلاد العربية وواحد من الرجال الأوائل الذين وضعوا خارطة الربع الخالي ، تلك المساحة مـن الصحراء المقفرة التي تشكل القسم الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . وكان عنوان تلك المقالة ـ سكان الأهوار في جنوب العراق ـ [١] وقد وصف فيها حياة قوم بدائيين كان يقضي بينهم عدة اشهر من كل سنة منذ عام ١٩٥٠ . ويلوح انهم يعيشون في مساحات واسعة ضائعة مـن المياه ، ولم يزرهم أحد مـن المكتشفين الحديثين ، وهم يعيشون في اكواخ من القصب قائمة على جزر عائمة في المياه .

كتب عنهم ثيزيجر في مقالته تلك قائلاً : « اشتهر المعدان بسوء السمعة ، فالعشائر الارستقراطية تحتقرهم لنسبهم الوضيع . ولا تأنف ان تلصق بهم كل انواع الغدر والخيانة والشرور ، بينما يخافهم ويجتنبهم سكان المدن ، ويتقبّل هؤلاء دون معارضة كل ما يقال عن المعدان ، وسمعتهم لدى الانكليز سيئة كذلك منذ الحرب العالمية الاولى حيث كانوا يخرجون من مخابئهم في مجاهل القصب لينهبوا ويسلبوا الجيوش البريطانية والعثمانيـة على حدّ سواء كلّما سنحت الفرصة لهم بذلك ... ويتمتع المعدان كذلك بسمعة راسخة في اللصوصية ، ومع ذلك لم

---

(١) يقول الدكتور شاكر مصطفى سليم في كتابه ـ الجبايش : (ربما كانت منطقة الأهوار في العراق من أوسع مناطق الأهوار في العالم . فتقدر مساحتها مع الامتدادات الصحراوية التي تتخللها بما يساوي عشرين الف كيلو متر مربع . فمن العمارة وهي المدينة الرئيسية في منطقة أهوار دجلة الى القرنة يجري نهر دجلة باتجـاه جنوبي والى شرقه تمتد الأهوار الى ما وراء الحـدود الايرانية . ويجري الفرات في اتجاه جنوبي من الكفل الى الناصرية ثم باتجاه شرقي الى القرنه والى جنوبه بـين سوق الشيوخ والبصرة يقع هور الحمار البالغ طوله حوالي السبعين ميلا .)

(المترجم)

يسرقوا مني شيئاً .. وسارت حياتهم بدائية معقدة شائكة لعدة قرون . ولكن الاهوار ستجفف في السنوات القادمة وسيذوب سكان الاهوار في غمرة حياة حضارية جديدة ، ربما تكون اكثر راحة ونعومة ، ولكنها بالتأكيد ستكون أقل حرية وانطلاقاً ، وكما يأخذني الأسى على اشياء كثيرة فقد تأسفت على هذه القوى التي لا تفتأ على تحويل مثل هذه الاماكن البدائية الى مناطق حضارية وتخلق من رجال الاهوار هؤلاء اولاد ازقة ومنعطفات » .

وعندما قرأت هذه الفقرة رحت أبحث عن مكان اذهب اليه .. مكان لم تمتد اليه يد الحضارة بعد ، حيث لا يزال ثمة شيء غير معروف للعالم لحد الآن ، شيء لم يشاهده ولم يصفه مئات او آلاف السواح من قبل . ولاحت خطوط الاطلس صماء مغلقة ، والرحلات التي كنت احلم بها لعدة سنوات سدّت في وجهي بلطخات من امبراطوريات سياسية حديثة وحدود منيعة توجد وراءها ، اذا صدقنا وسائل الدعاية ، مناطق تزحف اليها الحضارة والمدنية بخطى هائلة .

وكتبت رسالة الى ثيزيجر الذي كان في لندن يقضي الخريف وأوائل الشتاء واتفقنا على موعد للمقابلة ، وحينما التقيت به انهار كل ما رسمته له في خيالي من صور عن مظهره . وربما خدعتني معرفتي بالحياة البدائية التي عاشها ثيزيجر في السودان والحبشة والبلاد العربية ، أو غررت بي معرفتي بالتجارب والصعوبات والمفارقات التي لاقاها خلال جولاته تلك الى ان اتصوره رجلاً قليل الاهتمام بمظهره محتقراً تقاليد المجتمع الاوربي ، وتملكني العجب حينما رأيته بقبعته وياقته المنشاة وحذاءه الاسود اللامع ومظلته التي لا تفتح ابداً .

كان ثيزيجر مشبعاً بالرغبة في مصاحبتي عندما يعود الى الاهوار في كانون الثاني ، ولكنه يشك في قدرتي على الصمود امام خشونة تلك البيئة . وقد قال لي اثناء حديثنا : « يظهر انك عشت حياة قاسية ولكنها ستختلف عن كل تجربة مررت بها في حياتك . فهل تستطيع ان تنام على أرض صلبة دون ان تكابد عناء ومشقة ؟.. لأنك لن تجد فرشاً في الاهوار وثيرة . فأجبته بأنني اعتدت على ذلك خلال سنوات حياتي السابقة . واستطرد قائلاً : ولسعات الحشرات والبرغوث

الذي تجده هناك شيئاً اعتيادياً . انه لم يكن فقط يلسعني ، وانما يسلب النوم من عيوني بأعداده الهائلة وحتى انه يؤدي بسكان الاهوار انفسهم في بعض الاحيان الى الهوس والاضطراب .

ويلاحقني البرغوث على بعد ميل ويتهالك على جسمي وكأن الجاعة عضته بأنيابها الحادّة ويطوف بين اعضائي وهو يمضغ في لحمي خلال سيره الوئيد تاركاً وراءه جبالاً حمراً من لسعاته ولكني اظن ان من الافضل ترك هذا الحديث الآن ». واضاف ثيزيجر قائلا : « وهناك الامراض ، وسكان الاهوار مصابون بكل أنواع الامراض التي يمكن ان تخطر على ذهنك ، وانواع عديدة اخرى لا يمكنك ان تتصورها .. وهم ، في الحقيقة ، مصابون بكافة انواع الامراض السارية . واذا كانت الضرورة والحاجة والتجارب تأتي بأشياء عجيبة فقد خلقت فيّ هواية معالجة المعدان ومداراتهم رغم أني لم اكن يوماً طبيباً يحمل شهادة [1] . وقد حصلت انا خلال تجاربي الطويلة بينهم على حصانة دبلوماسيه معينه ضد الامراض ، بيد اني لا اعرف مقدار حصانتك انت وكيف ستسير هذه الامور معك . وكل سكان الاهوار مصابون بالدزانتري ، وحينما يتذبذب مستوى المياه حول اكواخهم تصبح محلات شرب المـــاء والمراحيض شيئاً واحداً . وقد اصطحبت معي مرّة احد الرجال

(١) يبدو من الاصلح ان نصنف سكان الاهوار على اساس اقتصـــادي بحت . وبهذا المقياس يمكن تقسيمهم الى ثلاثة اقسام : المزارعون ، وجامعو القصب ـ لحياكة الحصر ـ ورعاة الجاموس ، (وتعبير « المعدان » كان ولا يزال يستعمل بكثير من الغموض . فسكان المدن في العراق يستعملونه في معاني مختلفة ، امـا التدليل على سكان الاهوار عامة بلا تمييز او لوصف الشخص المنعوت بهذا التعبير بالغلظة او عدم الانتظام سواء أكان المنعوت من سكـــان المدن او الاهوار او الارياف . وكثيراً ما يطلق هذا التعبير في الكتابات الانكليزية على سكان الاهوار بصورة عامة . وانا ارى ان كلمة « معدان » يجب ان يقصد بها قسم واحد من سكان الاهوار فحسب وهم رعاة الجاموس الرحل الذين يكونون قسماً صغيراً من سكان الاهوار . وسكان الاهوار انفسهم يستعملون كلمة « معدان » بهذا المعنى . ولعل من الطريف ان نذكر بهذه المناسبة ان سكان الاهوار من غير المعدان يعتبرون نعتهم بهذا الاسم اهانـة ما داموا يعتقدون ان المعدان اقل منهم درجة في سلم الحضـارة واشد سكان الاهوار تأخراً .)

الدكتور شاكر مصطفى سليم ـ الجبايش ـ

الانكليز الى الاهوار وبعد عشرة ايام كان وزنه قد خفّ كثيراً ولو لم ارسله الى المدينة بسرعة لقضى نحبه » .

وصممت الا ادع الفرصة المواتية تفلت من يدي وأظهرت عدم مبالاة تامة بجميع الامراض ، ولكنه عاد يقول : « انا لا ادري كم ستصبر على الجلوس متربعاً ، وانا دائماً في حركة ونادراً ما أضيع ليلتين في مكان واحد ، بينما نقضي في القارب ، رفيق سفرنا ، معظم الوقت متربعين في بطنه ، وستقضي هناك في الشاطىء وقتاً اكثر متربعاً على ارض كوخ أحد سكان الاهوار . فهل يمكنك ان تجلس متربعاً » ؟ فأجبته اني استطيع ذلك . وقال اخيراً : « حسناً ... اذا كنت مصمماً الى هذا الحد فإنه ليسرني ان اصطحبك معي » . وهكذا رسمت الخطوط الأولى من الرحلة .

* * *

بيد ان الامر لم يكن بهذه السهولة لأني لم احصل على تأشيرات السفر الضرورية - الفيزا - .. ووجدتني اجـاهد لعدة اسابيع الوصول الى البراغيث والامراض والمتاعب ، ولكنها كانت معركة خاسرة . واخيرا غـادر ثيزيجر الى الأهوار لوحده . وعدت انا الى جزيرة صقلية حيث كنت قـد قضيت قسماً من السنتين السابقتين وانا احمـل بين جنبيّ احتقاراً ومقتاً لبراغيث صقليـة ، واصبت بدزانتري صقلية الحـاد . ورحت اندب امراض ومتاعب الارض الموعودة ...! أرض الأهوار . وأخبرت اصدقائي في صقلية عن خيبة أملي . ولكنهم ، وهم الذين اعتادوا على الحمّامات الراقية والحيـاة المترفة ، اخذهم الشك في الأمر فصاحوا : « لماذا تريد السفر الى ذلك المـكان الفظيع ؟ » فأجبتهم : « ان ذلك أفضل مـن الصّيد في افريقيا » . ولكني نسيت انها نكتة انـكليزية ، فلم يفهمها أحد منهم .

ومرّ عليّ صيف صقلية الملتهب في احـدى القرى . وعدت في الخريف الى لندن ... الى المطر والأضواء المنعكسة على شوارع سوداء براقة .

وفي كانون الثاني التقيت بثيزيجر مرات عديدة ، ولكن لاح لي الآن انه لا يوجد ثمة أمل في مغادرتي قبل شهر نيسان . وثيزيجر نفسه سيعود الى الأهوار في نهاية شهر كانون الثاني . وفي المساء الأخير ، قبل مغادرته ، تناولنا طعام الغداء سوية مرّة

اخرى . وقـــال خلال ذلك : « انه لشيء مؤسف انك لم تستطع المجيء في السنة الماضية لأنه لن تتيسر لي فرصة أخرى للسفر الى الأهوار . وأنا أشعر بأني قضيت زمناً طويلاً هناك ، وفي هذا ما يكفيني ، وستكون هذه آخر رحلاتي ، اذ سأغادر الأهوار في نيسان لأقضي الصيف بـــين قبـائل الرعي قبل سفري الى افغانستان . ويمكنك الالتحاق بي ، اذا شئت ، في شهر نيسان ولمـــدة شهرين ، وبالطبع سترى بأن لا بيئة ولا حياة تشابه ما هي عليه في الأهوار .

☆ ☆ ☆

وحينما عدت الى البيت لم استطع النوم . وظننت في بادىء الأمر اني غير مرتاح للفكرة ، ولكن بعد ساعة او ساعتين مـــن التفكير العميق ادركت ان اضطرابي كان لأن ثيزيجر سيذهب للمرة الاخيرة واني سأظل في لندن ، وبهذا سأفلت من بين يدي فرصة ذهبية لن تسنح لي فيما بعد ، وكان ثيزيجر قد قـــال لي : « انك لن تستطيع الذهـــاب لوحدك ما لم تعرف اللغة العربيـــة .. ولن تتوفر لديك فرصة اخرى كهذه .»

وفي الساعة الرابعة صباحاً توصلت مـــع نفسي الى قرار معين . واستيقظت في الساعة السابعة والنصف ، ولاحت لي الساعة التي سأنتظر فيهـــا ، قبل ان اتصل بثيزيجر ، طويلة مملة ، وقد اجابني عـلى التلفون بنفسه . قلت له : « ولفرد .. اذا نجحت في الحصول على التأشيرات اللازمـــة فهل يمكنني ان اذهب معـــك في يوم الاثنين ؟ » وخيمت بين طرفي التلفون لحظة من صمت قطعها ثيزيجر قائلاً . « ظننتك غارقاً في اعمالك الى درجة لا تسمح لك بمغادرة لندن قبل شهر نيسان !.. ولكن أتراك حقاً جاداً في الأمر ؟ »

ــ كل الجد .. سأعمل جهدي في ترتيب الامور ، اليس كذلك ؟

ــ حسناً !.. ستغادر الطائرة في الساعة العاشرة الا ربعاً ورقم الرحلة ٧٧٠ .

وسأنطلق من محطة فكتوريا في الساعة الثامنة الا ربعاً . والافضل ان تتناول الطعام معي الآن . وسأنتظرك في الساعة السادسة والنصف . ثم سألت ثيزيجر : وماذا عن الأمتعة ؟

ـ لن تحتاج اليها فليس ثمة مجـال لحملها في الأهوار . خذ معك قميصين فقط ، وبنطلونين وسترة واحدة وشفرة للحلاقة وحذاءً واحداً يمكن خلعه بسهولة ، لأن عليك ان تخلعه كلما دخلت بيتاً بالأهوار . وهذا كل ما تحتاج اليه هناك . ولكن خذ معك من الأمتعه ما تشاء حتى البصرة ، ثم نترك غير الضروري منها هناك .

ـ متى أراك ؟

ـ سنغادر في المساء ... ذإلى اللقاء !

ومرت بعد ذلك اربعـة ايام ثقيلة ، لم يتأكد لدي في نهـايتها حصولي على التأشيرات اللازمة لدخول المناطق العشائرية ، مع اني حصلت على ترخيص بالبقاء في العراق لمدة ثلاثة أشهر .

وراحت محركات الطائرة تدوّي فوق صحراء سوريا متجهة الى ... بغداد .



الفصل الاول

لم تكن لدي صورة سابقة واضحة عن بغداد ، فمعرفتي بالدول العربية كلهـا تحددها اقاماتي القصيرة من حين الى آخر في شمال افريقيا . وكان انطباعي الاول عند رؤيتي لمدينة بغداد هو انه مهما حاولت قوى الاستعمار الغربي ان تقوم به بتغيير نظم وتقاليد اية بلاد باساليب ملتوية وطرق معوجـة فإنه يتلاشى امام ما يستطيع العرب انفسهم القيام بـه لقلب تقاليدهم وعاداتهم بأنفسهم ، وهو ما شرعوا به فعلاً ، مندفعين وراء عواطفهم بجميع موارد حقول النفط التي يملكون.

وربما كان الوقت الحاضر من اسوأ الاوقات للاجنبي لزيارة بغداد منذ عـدة قرون خلت ، فإنهـا الآن لحظات انتقال العراق من ثقافته الشرقية الى الثقافة الغربية التي لا تعني لرجل الشارع الا القليل ولم تتبلور فكرتها بعد عند عامة الناس.

والبنايات الغربية الطراز ، الحديثة البناء تقوم في كـل ارجاء بغداد . وحيثما وليت وجهك التقت عيناك بشوارع وطرق حديثة ، تحت الانشاء بينما يعفّر التراب سعف النخيل الزاهي على جوانب تلك الطرق فيحيل خضرته الضاحكة الى لون شاحب داكن ، وتتكدس الصرائف وبيوت الطـين بين تلك الشوارع والعمارات الحديثة . وفيما عدا المناطق التي تزدحم فيها حركـة المرور يلاحظ المرء الاوساخ والقاذورات تملأ الارض بينما تجد الغربان السود تحوم في سماء زرقـاء صافية لتهبط بين الحين والآخر تلتقط من تلك القاذورات . وتدوّي منبهات سيارات الـكاديلاك

ذات الالوان الزاهية هناك في الشوارع العريضة لتزيح عن طريقها افراداً من القرويين باسمالهم البالية ودوابهم العجفاء التي يمتطونها . وتختلط في شوارع بغداد الأزياء العربية الاصيلة بالأزياء الاوروبية،الا ان الزي الوطني في طريقه الى الاختفاء، فالملابس الاوروبية هي الزي الرسمي في العراق ويعتبر كل ما عدا هذا الزي في المدن دليل على قلة في الثقافة .

ومن خلال كل هذا الدوي الكريه من تباعد عن التقاليد والعادات الموروثة تشق امواه دجلة العظيم طريقها لاتصدها غير ثلاثه او اربعة جسور حديدية انكليزية الانشاء . وعلى امتداد ضفة دجلة الغربية عدد كبير من الدور التركية انشيء كل منها حول ساحة مفروشة بالموزائيك والقرميد . والاشجار الباسقة في حدائق تلك الدور تتجمع على اغصانها جموع الحمام وكأنها فواكه طرية غضة ومثل هذه الدور التركية يتهافت عليها المستوطنون الانكليز هناك ، في حين يحتقرها سكان بغداد . وتلوح هذه الدور للعراقيين الذين تمتلىء ايديهم بالذهب وداخلهم باندفاع لاهب نحو التطور ، تلوح وكأنها بقايا آثار قديمة لاتصلح للسكنى[1] . وهنا تذكرت كلمات ثيزيجر : « ليس للعراقيين الا كلمتان (قديم) و (حديث) ، فالشيء ، مهما كان نوعه ، ان لم يكن من هذا النوع فهو من النوع الآخر ولا وسط بينهما . »

ومن بين الثمانية ملايين عراقي تضم بغداد الآن اكثر من مليون منهم ، ولا زالت تتوافد عليها جموع المهاجرين من القرى والارياف في كل يوم . وفيما عدا المناطق القبلية النائية ، نجد الاطفال في العراق يتمتعون بالحصول على الثقافة

---

(١) لم يبن المؤلف حكمه هذا على الملاحظة المباشرة مطلقاً ، ويظهر انه كان متأثراً فحسب بالدعاية الضخمة المركزة التي صور العهد المندثر فيها العراق - بلد النفط - وكأنه في طريقه ان يصبح جنة عدن بسبب مشاريع وزارة اعماره . بينما المؤلف نفسه ذكر قبل قليل ان الصرائف وبيوت الطين تندس بين تلك الشوارع والعمارات الحديثة ، فمن الذي يسكن هذه الصرائف ياترى ؟ اليس هم من العراقيين ؟ والاهوار التي في طريقه اليها . . . حيث لا ذهب في الايدي هناك ، ولا معنى للتطور . فمن اولئك الناس البدائيون . . . مرة اخرى اليسوا هم من العراقيين ؟

المترجم

المدرسيـــة ، وكنتيجة لذلك تراهم يعتبرون انفسهم ارفع من ان يقوموا بعمل كالزراعة ، وفي الحقيقة ان هذه تعتبر من احقر المهن عنـدهم . ولذلك فما يسمع القروي الشاب بالثروة العظيمة في المدن حتى يهجر داره وينزح الى بغداد . وهنا ، ولكي يحتفظ ببقية احترام وكرامة ، عليه ان يرتدي الملابس الاوربيه الزي ، وغالبا ما تكون هذه ، حسب دريهماته القلائل ، رثة ممزقـــة . واذا حالفه الحظ فسيجد له عملا يتقاضى عنه خمسة دراهم يوميـاً ، ولكن حينما تمطر السماء تتعطل كافة الاعمال اوتوماتيكيا ، وحينئذ سيلجأ مثل هذا الشاب الى وسائل شـــائنة معينة للحصول على قوته اليومي . وقد قيل ان الانحرافات الجنسية شائعة عمليـــاً مع مثل هؤلاء الشباب ، وان الشوارع بعد ان يخيم عليها الظلام يجوبها بصورة سرية اولاد صغار لهم استعداد كاف للنشل او التضحية على حساب شرفهم وانفسهم من اجل الحصول على اتفه المبالغ [1]

والكثير من مثل هذه الاعمال الشائنة تصاحب أي تحول سريع وكامل كالذي يحدث لمثل تلك الاقطار حيث النفط ، المادة الخام للحضارة الغربيـة الصناعية ، وعلى اية حال انها للحظة موجعة ان تزور العراق ، مهد اعرق ثقافة في العالم .. ان تزور البلاد التي علّمت المصريين القدامى الكتابة ، لترى كل تلك الاشياء المعيبة . ومهما يكن من امر فانها الآن نهاية عبد جرّ معه بلبلة واضطراباً لم تسلم منه غـير الطبقة الارستقراطية التي غذّت نفسها بالثقافة منذ جيل مضى . وابن المدينـــة العراقي لا يرغب اليوم في اكثر من شيء واحـد هو ... الاسلوب الامريكي في الحياة ، على الرغم من كون عامة الناس ليس لهم حتى الآن غير القليــــل من الادراك بأن هذا الأسلوب يعني اكثر من مجرد لعب اوتوماتيكيه سخيفة ، لأن ٨٠٪ من العراقين لا يزالون غير متعلمين . وبعد اربعة ايام من مكوثنا في بغداد وجدت نفسي استعيد في خاطري ثانية كلمات ثيزيجر : « رجال عشائر تحولوا الى

---

(١) هنا وفي اماكن اخرى من الكتاب اشرت الى بعضهـــا يظهر المؤلف ، كأغلب الكتاب الغربيين ، مبالغة مفرطة وربما جهلا فاضحاً بشؤون العراق بصورة خاصة والوطن العربي بصورة عامــة .
المترجم

أولاد ازقة ومنعطفات . »



وفي شارع الرشيد ، بيكاديللي بغداد ، حاولت شراء كتاب – فان إيس – في تعليم اللغة العربية باللهجة العراقية . وفي احدى المكتبات رأيت فتاة عراقية تغطي وجهها المساحيق والاصباغ ، واخبرتني بالانكليزية ان نسخ الكتاب قد نفدت ، فقدمت لي كتاباً آخر يشابه الأول في عنوانه قائلة انه افضل منه بكثير . فاشتريته ولكني ، وبعد بضعة ايام من الارتبـــاك المتناهي ، اكتشفت انه يجب استعماله بمساعدة اسطوانات خاصة . ورحت أقرأ فيه : « انك تسير وحدك . انك تريـد أن تكلم احداً ، لذلك فأنت الآن تتكلم مع شاب بغدادي . انت تقول له : مساء الخير . وهو يرد عليك تحيتك . ثم تقول انك امريكي ، وتخبره باسمك . انه فرح بمعرفتك ، فيخبرك ان اسمه سعيد . انت تخبره بأنك وصلت العراق قبل فترة قليله . انت تضيف قائلاً ان صديقك وصل معك . انت تقول ان والدك يملك حقلاً قرب نيويورك ، وانك تعمـــل في مصنع كبير للسيارات ، وانك ترغب في العودة الى العمل عند رجوعك الى امريكا . وبينما انت تتكلم يأتي اليك حسن صديق سعيد .. سعيد يسأل حسن : اين انت ذاهب . حسن يجيب : الى سينما الملك غازي ، انهـا سينما راقية . » وقلبت عدة صفحات من الكتاب وقرأت : « والدى .. أود أن أقدم لك هذين الامريكيين ، هذا جون وهذا صديقه بيل . ان جون من نيويورك اما بيل فمن تكساس . الأب يقول : ان ولدي الكبير ذهب الى امريكا . انـــه الآن امريكي » .. وأخذت اقرأ ايضاً : « لقد قدمت الى عراقي يدعى علي . انه يسأل من اين انت . انت تقول انك امريكي ، وتخبره بالولاية التى جئت منها . انت تسأله ان كان يعرف سيارات فورد . وهو يجيبك : نعم اعرفها .. وفي الحقيقة انه يملك واحدة .. انه يقول : ان في بغداد معملا لسيارات فورد . واخيراً انك تتجول مع علي . علي ينبهك الى رجـل آخر . انت تسأله عن عمـــل الرجل : ويجيبك علي انه لايعمل . انه تاجر وله محل كبير في السوق . انت تسأل علي ان كان يعرف الرجل . علي يجيبك نعم ويعرف ابنه ايضاً . ان ابنه لايشتغل كثيراً .

انه يحب التجوال في الشوارع طوال الوقت » ...

اواه يا الف ليلة وليلة ؟.. اواه يا كريستوف كولومبس !.. اواه يا شجرة المعرفة للخير ... والنفط !!

* * *

وسنحت لنا فرصة مقابلة الوزير الذي يخصه الامر للحصول على موافقته في رحلتنا القادمة . وكان رجلاً لطيفاً هادئاً شكرنا على زيارتنا له والتي بالطبع لم تكن ضرورية ، كما قال ، لأن العراق قطر حرّ يمكن للأجانب ان يتجولوا في اية بقعة من بقاعه كما يشاؤون . وخلال حديثنا تطرق الوزير الى مشكلة العاصمة التي تتمدد عند كل يوم قائلاً : « تجتذب بغداد العراق كله اليها ، وهنا يحصل المرء على ما يشاء . فكل رجل يمكنه اقتناء جهازاً للراديو ، وكل امرأة يمكنها اقتناء ماكنة خياطة . وتراهم يهاجرون من القرى والارياف كما لو انهم يفرون من مرضٍ سارٍ يلاحقهم . ولا يمكننا صد هجرتهم اذا ما اردنا نحن ذلك » . ثم زود الوزير ثيزيجر برسائل الى متصرفي الالوية التي سنقصدها . وفي ذلك المساء كان القطار يحتضننا في طريقنا الى البصره .

* * *

ولم اكن احمل عن البصرة ، اكبر ميناء على الخليج الفارسي ، غير انطباع سطحي عابر كما هو الحال عن بغداد . والبصرة الحديثة ليست مدينة قديمة إلاّ ان القديم والحديث والشرقي والغربي يختلطان فيها بصورة مدهشة ، فالمنطقة التي تغصّ بالسيارات الحديثه اللامعة ، وبالعمارات الكونكريتية الضخمة تشمخ وعلى مقربة منها ترقد حياة بدائية ساذجة .

* * *

وفي البصرة مكثنا في احدث واجمل منطقة منها ، اعني — العشّار — . وخلال اقامتي القصيرة فيها لم اتمكن إلاّ من رؤية القليل من المناطق الاخرى . وحللنا في قنصلية عامة تستحق لضخامة بنائها ان تكون سفارة كما يليق بقنصلها العام

ان يكون سفيراً . ويربض وراء حديقة القنصلية المسوّرة الغنّاء شارع عريض يجاور النهر العظيم .. شط العرب ، ملتقى دجلة والفرات في مرحلتها الأخيرة قبل ان يذوبا في البحر . وتزخرف ضفاف شط العرب البعيدة بساتين النخيل ، وتنسل وتدوي وتهمهم أو تندفع ببساطة على سطحه زوارق وبواخر من كل نوع ولون . وتختلط في هذا النهر العظيم سفن عربية تجارية كبيرة ، وسفن بخارية لنقل الركاب عبر البحار ، وبواخر كبيرة ضخمة من عابرات المحيطات ، وطرادات حربية .. كل هـذه تختلط بقوارب بدائية ومشاحيف مطلية بالقار قادمة من مناطق الاهوار ، وبقفف دائرية تندفع مع تيار النهر محملة (بالبواري) المصنوعة من القصب والمصدّرة من الاهوار ، وكأن سطحه في هذا لوحة تاريخيه تمثل تطور وسائل النقل عبر القرون .

وازياء الناس الذين يزحمون الشوارع مختلفة متباينة كتباين القوارب في شط العرب . وابتدأت الآن ادرك مدلول الازيـاء العراقية المختلفة والمركز الاجتماعي الذي يعنيه كل نوع منها . واللباس الاكثر انتشاراً بينهم هو ما يضعونـه فوق رؤوسهم . والعراقيون الذين لم يتأثروا بالغرب يضعون فوق رؤوسهم المحلوقة طاقية مختلفة الالوان بنقوش في اشكال الزهور ، وتكون محشوة في داخلها بالقطن ، وهي تختفي عادة تحت (الكوفية) [1] المتهدلة التي تشبه العمامـة فيما عدا الاطفال الذين لايرتدون مثل هذه الكوفية . والكوفية العراقية عبارة عن قطعة قمـاش بيضاء مرقطة ببقع سود .

والكوفية اما ان تغطي الرأس وتتهدّل على الظهر والكتفين ، او انها ترفـع وتعقد فتصبح كالعمامة . وفي كلتا الحالتـين تضبط الكوفية فوق الرأس بواسطة (العقال) الذي هو عبارة عن التواءين كالحيّة يتوجان الرأس . ويشبه العقال التواءا القمة في اللولب المعدني البسيط ، ووسطه صلب كالخشب تلتف حوله وتغطيه خيوط صوفية سود . وتختلف انواع واشكال لباس الرأس ككل شيء آخر هناك .

(١) وهناك اسم « الشطفة » او « البشماغ » يطلق في جنوب العراق على هذه الكوفية .
المترجم

ولا يلبس الفقراء العقال وربما كانت الكوفية نفسها ليست اكثر من قطعة قماش تلف حول الرأس ولونها كيفما اتفق .

واختلاف الملابس فيما تحت العنق شيء معقد ومور بك للغاية ولـــكن اكثرها انتشاراً رداء بسيط يمتد من الحنجرة الى القدم كثوب نوم نسائي ، ويختار عادة غامقاً في لونه فيما عدا اللون الاسود . وفي بعض الاحيان يكون مشقوقاً من الوسط كالبيجامة ، ويدعى هذا النوع من اللباس (بالدشداشة) . ويرتدي الدشداشة كل الفقراء الذين لم يقتبسوا الازياء الغربية . واعتاد الناس الآن ارتداء سترة اوروبية اعتيادية فوق الدشداشة عندما يبرد الجو . ويرتـــدي الرجال عباءة او ما يدعى (بالبشت) ولونه اسود او بني غـــامق ، فوق السترة أو فوق الدشداشة فقط . والبشت غير سميك في نسيجه ، واثقل نوع فيه يحاك من صوف بني اللون ، وقـد تلاحظ البشت عند المترفين ناعماً شفافاً كالحرير الفاخر ، وغالباً ما تكون حواشيه مذهبة تتدلى منها ضفائر ايضا ذهبية .

ويلبس الاغنياء ، الذين لايرتدون الازياء الغربيـــة ، فوق الدشداشة البسيطة سترة ورداء طويلاً ذا لون اسود ، والسترة تقريباً اطول واعرض مما اعتاده الناس في اوروبا ، ويصعد هذا الرداء الاسود ، الذي تصل اطرافـــه الى الارض ، من الاسفل الى الاعلى ليشكل رقم ٧ عند الصدر تماماً كالصدرية الاعتيادية ، ويبرز بين حدي الرقم٧ قميص نادراً ما تلحق به ياقة أو رباط . وهذا هو الزي الاعتيادي للشيوخ والاغنياء الذين لم يتأثروا بالغرب . وبينما يكمل هـــذا الزي عند المترفين حذاء اسود ، يشابه احذية اهل المدن ولكن قلمـــا ترافقه الجوارب ، ترى الناس الفقراء ابداً حفاة .

وذهبت الى السوق لاشتري حزاماً وذكريات اسواق شمـــال افريقيا وخاصة مراكش ترسم لي صوراً توقعت رؤيتها هنا .. من مناطق خـــاصة بصناعة الجلود واخرى لصياغة الذهب والفضة وثالثة لباعـــة السجاد ، وبكل روعة الصناعات المحلية المغرية للاجانب . وعبرت جسراً خشبياً يقطع قنـــاة تزدحم بجميع انواع القوارب والزوارق وتكتظ بالاجناس الاسيوية .

وفيما كنت سائراً في طريقي امسك بذراعي زنجي يرتدي دشداشة تصل الى ركبتيه ، ودفع من تحت انفي رزمة من الرسوم تصور زنجياً ضخماً مضطجعاً ، في غير ما حياء ، في حجرة نوم وثيرة . وما ازحت رزمة الصور هذه من امامي حتى اظهر لي رزمة اخرى كانت الصورة العليا فيها مثيرة للضحك الى حد بعيد ، وحتى اني لو كنت في مكان اقل ازدحاماً لسألته رؤية الصور الاخرى .. كانت تلك الصورة لامرأة شرقية السمات ، عارية الا من حذاء ذي كعب عال في قدميها ، وقد وقفت بغنج ودلال غريب امام لوحة زيتية لمناثر ونخيل، وكلتايديها مرفوعتان، احداهما فوق كتفها والاخرى وضعتها فوق رأسها باغراء وجمال خبيث . ومن تحت جفون سوداء كالفحم رمقت الكاميرا بجول محسوس . الا ان روعة الصورة تكمن فيما تحمله هي حيث انسابت من يديها المرفوعتين خيوط حرير اسود تستر عن الانظار بخبث كل جزء من جسدها يمكن ان يستره رداء الحمام الحديث ذي القطعتين . وتساءلت فيما اذا كانت لتلك الصور سوق رائجة عند العرب لانها لم تثير في داخلي ، انا الزائر الاوربي الغريب ، ولا نأمة من شهوة .

ودخلت السوق ورحت اسير بين صفّين من مخازن لبيع اواني الالمنيوم والاواني الخزفية اليابانية الرخيصة ، ومحلات لبيع بالات من القطن الهندي المشرق الالوان ، واخرى لبيع بضائع وسلع من الفايبر . وكل شيء في السوق اما استورد من اوربا او انه تقليد لبضائع اوربية استوردت من الشرق الأقصى . واخيراً استوقفت شاباً اوربي الزي وسألته ان كان يحسن الانكليزية فأجاب انه يعرف منها الكفاية ، فسألته ان يرشدني الى مكان استطيع ان اشتري منه حزاماً جلدياً ، فتساءل الشاب باستغراب : « جلدي ؟! » واستطرد قائلاً : « اظن انه يمكنك ذلك ، ولكن لم لاتشتري حزاماً من البلاستيك ، انه افضل بكثير من الجلد ، وكلنا هنا نستعمل البلاستيك ، الذي يتوفر في كل مخزن ، وهو ارخص واحسن من الأحزمة الجلدية » .

وتجولت في السوق ووصلت اخيراً الى منطقة يصم الآذان ضجيجها ، وتراءى لي انني سأجد اخيراً ثمة شيء يصنع محلياً . وظهر كأن مئات المطارق تهبط على

صفائح معدنية ، وفعلاً كان ذلك ، فقد رأيت صفائح كبيرة من الالمنيوم تتحول الى اواني منزلية ، وصفائح من النحاس تصنع منها ادوات القهوة المألوفة في العراق. وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي اكتشفته لصناعة محلية خلال زياراتي الاولى للعراق. وأخيراً ... عدت بحزام جلدي طبع على سطحه الداخلي بالاحرف الانكليزية : صنع في المانيا .

* * *

وحضر ثلاثة من الملاحين الأربعة الذين استأجرهم ثيزيجر والذين كان عليهم ان يقابلونا هنا في البصرة . وفي ذلك الوقت ، الذي لم اكن قد تعرفت فيه عليهم بعد ، وجدت حضورهم امراً مربكاً حقاً . وكانت تضمني وثيزيجر في القنصلية العامة حجرة نوم فاخرة ولم يرافقني هو خلال تجوالي في السوق . وجلست عند عودتي الى الحجرة على كرسي ذي مساند وتحت عيني خارطة أحدق وأمعن فيها النظر . وبعد لحظات فتح الباب بهدوء ودخل الملاحون الثلاثة فحييتهم تحية المساء ، وكانت كل ما اعرفه بالعربية حتى تلك اللحظة ، فردوا تحيتي وتربّعوا على الأرض وشكلوا نصف دائرة حول قدمي ، وراحوا يحدقو فيّ ببلاهة بينما تدلىّ من بين اصابع كل منهم خيط من حبـــات مسبحة . وكانت المسبحة الاولى حمراء والأخرى صفراء والثالثة بيضاء ، وراحت الخرز تطقطق ببطء وبنمط موزون . ودقت ساعتي ، فإذا نظرت الى اعلى فعيون ست تظل مثبتة في وجهـــي ، واذا التقت عيني بعين أحدهم فسرعان ما يزيغها عني ، ولكن ما خفضت بصري الى الارض مرة اخرى احدق في الخارطة حتى عادت النظرات تتصفح وجهي .. وجاهدت في رسم ظل ابتسامة على شفتي ، وردّوا عليّ ابتسامتي كما لو كدت أنطق بشيء ، ولكـــني لا استطيع في الحقيقة ذلك . وأدركت اخيراً ان البضع كلمات التي كنت قد تعلمتها بلهجة شمال افريقيا بدت غامضة مغلقة بالنسبة اليهم .

وملاحونا الاربعة هم عمارة وحسن وسبيتي وكذية ، وعلى الأخير ان يقابلنا عندما نبدأ رحلتنا بعد يوم او يومين . ولا يتشابه الثلاثة في سحناتهم ولا في شخصياتهم فيما عدا لون البشرة . فقد كان ــ عماره ــ شاباً بهي الطلعة رابط الجأش في الثامنة

عشر من العمر ، وكان قوي البنية تجلله كبرياء وأنفة حصان عربي أصيل . وكثيراً ما يغضب ويثور لأتفه سبب . وكان الوحيد من بين الأربعة يتقبل ما يحيطه من علائم الحضارة ببساطة وعدم مبالاة . ولم يبدر منه شيء غريب او غير معقول في استجابته لموقف غير مألوف . وفي ذلك الوقت شغلت كبرياءه الطبيعة وأنفته كثيراً من وقته في لحيته وشاربيه القصيرين الحديثيي العهد يسويها بمقص صغير يحتفظ به . وظهر آنذاك شغفه الشديد بالمرايا .

اما حسن فيكبر عمارة بسنة او سنتين وهو متقلب الطبع لدرجة كبيرة ويتميز بحواجب كثة ثقيلة وفك كبيرة بارزة . وكان حسن وسبيتي ، وكلاهما متزوج ، اكثر الاربعة مرحاً ، ولكن بشاشة سبيتي لاحت من نوع آخر . انه من ذلك النوع الذي يطلق عليه اسم — خادم العائلة — . فاذا حصل لدينا ثمة عمل غريب فسبيتي هو الذي ينجزه . وظهرت رغبته في الخدمة والتسلية وكأنها تعويض ومداراة نقص يوحيه فقدانه سحر الشكل وجاذبيته . وكان سبيتي بالاضافة الى ذلك كله يلوح كغراب ذليل ، ولم يفلح حاجبه الكث وشاربه الغليظ في تغيير الطبيعة الهادئة التي ترتسم على وجهه .

وكانت الخارطة التي اتفحصها ،بينا عيون الثلاثة تحدّق فيّ ، صماء مبهمة لدرجة لاتستحق فيها ان تدعى بهذا الأسم ابداً . وتوزعت على صفحتها أنهار وروافد وفروع ، ومساحات واسعة تغطيها علامة صغيرة تعني ان هذا احد الاهوار . وكان احدهم قد رسم علامات استفهام بالحبر الاحمر على اسماء اماكن مبعثرة هنا وهناك ، وفي مرات اخرى اوصل خط احمر عبر تلك النقاط ... تلك هي منطقة الاهوار الدائمية التي سنقصدها قريباً . ومعظمها يقع على مسافة اربعين ميلاً الى الشمال وغرب البصرة . ويقطع نهر دجله حوالي ثلثي المسافة عامودياً عبر تلك المنطقة بينا يجري نهر الفرات من الغرب بصورة افقية ليرسم الحدود الجنوبية لها .

وفي عهد ظهور الانجيل كان الخليج الفارسي يمتد بعيداً في داخل القطر الذي يدعى الآن بالعراق . وكان النهران العظيمان دجلة والفرات يصبان في البحر على

انفراد ، وليس كما هو الحال الآن حيث يصبان في شط العرب الذي تقع البصره على ضفافه . وفي تراجعه ترك البحر منطقـة كبيرة من أهوار وبحيرات ونهيرات استوطن فيها في العصور الاولى المهاجرون من الاراضي الجبلية التركية والفارسية . ولم يكن ثمة اختلاف كبير بين حياة المستوطنين الاوائل وبين ظروف الحياة لسكان الاهــوار اليوم ، فقد نقبت ممتلكاتهم وبيوت القصب التي عاشوا فيها في مستوى يعلو الطبقه الغرينية تماماً .

وعلى مر العصور انقسمت منطقة الاهوار الهائلة ، التي انكشف عنها البحر الى مناطق ذات فيضانات فصلية والى مناطق أهوار شبه دائميـــة ، تغذيها تفرغات النهرين العظيمين دجلة والفرات ، والى منطقة وسطى من مستنقعات لا زالت قائمـة حتى اليوم . وهذه الاهوار الدايمية تقع بين مجرى النهرين العظيمين ، ولكنها اكثر انخفاضاً منها ، وتمتد شرق دجلةحتى تتجاوز الحدود الايرانية . وكلما تراجع البحر اكثر كلما اصبح الجنوب منطقة تغطيها المياه على مدار السنة . وحتى زارهـــا ثيزيجر في عام ١٩٥٠ ظلت واحدة من الاراضي القريبة من معالم المدنيه والحضارة ولكن غير المكتشفه . ومع ان المسافرين والجيوش الاوروبيـــة التي خاضت الحرب هناك وكانت قد مرت وزارت مناطق الفيضانات الفصلية واطراف الاهوار الدائمية ومرت كذلك عبر النهرين الكبيرين نفسيهما الا ان قلب الاهوار وسكانها ظلا غير معروفين للعالم .

وعلمت كذلك من مقالة ثيزيجر في «مجلة الجمعية الجغرافية الملكية» انها كانت منطقة عشائرية تسكنها ستة قبائل تمتد حدودها الى خارج مناطق الاهوار .وتدعي بعض هذه القبائـــل بأنها ليست من اصل عربي ، والبعض الآخر منها ضم افراداً من « الساده » الذين هم من نســـل النبي . الاسم الشائع لسكان الاهوار هو « المعدان »(١) .. وهو لفظة اطلقت لا لتعريف عشيرة معينة ، وانمـــا لتعريف

---

(١) ان كلمة معدان جمع ومفرده (معد) ، وهو جمع عرفي ، كقولنا في جمع عرب ، عربان وقس على ذلك . ومعد حي اي قبيلة يذكر ويؤنث . يقال فلان معدي اي منسوب الى حي . ومن ذلك المثل المعروف : تسمع بالمعدي خير من ان تراه.وكان هذا المعدي يغير على مال النعمان ←

اسلوب في الحياة ..حياةالناس الذين برعوا في استخلاص معيشتهم من اراضي ضائعة بين ماء وقصب ، وليس لهم غير قليل عــلاقة او بالاحرى لا علاقــة لهم بالعالم الخارجي.

ولا يمكن تتبع اصل المعدان بالضبط لأن جغرافية البلاد الطبيعية كانت في تغيير مستمر . والاهوار كانت تمتد بعيداً الى الشمال حينما نزح المهاجزون الى الشرق قبل اكثر من خمسة آلاف عام ليستوطنوا هذه المناطق . ولعبت عوامل اخرى كثيرة دورها خـــلال العصور المظلمة ، بالاضافة الى الفتوح المتعاقبة للميديـين والفرس والاغريقيين والرومانيين واخيراً العرب ، في ادخال دماء اجنبية الى سكان الاهوار. وفي اوائل القرن التاسع للميلاد استوطنت مناطق الاهواء جمــاعات من اللصوص الغجر وارتفع عددهم بعد فترة قصيرة من الساخطين والهــاربين من وجه العدالة . واخذ هؤلاء يجاهرون بتمردهم على الخليفة الذي وجد من الصعب عليه اخماد ذلك التمرد الصغير حتى وصم بانه عاجز عن القبض عـلى بضع مئات قلائل من ضفادع الاهوار وهي في متناول يده . وعلى الرغم من استسلامهم فيما بعد الا ان عدداً منهم بقي مختبئاً في اعماق الاهوار لعدم ثقتهم بالعفو الذي اعطي لهم اذا هم خرجوا من مخابئهم .

وبعد حوالي الخمسين سنة أي في عام ٨٦٩ بعد الميلاد قامت ثورة هزّت جنوب العراق كله مدّة تقارب الاربعة عشر عاماً ، وظهرت كما لو انها في الحقيقة ستطرد العرب لتكون امبراطورة زنجية في الشرق .

وكانت الخلافات والمنازعات التي اعقبت وفاة النبي في عام ٦٣٣ ميلادية بسببه

ـــــبن المنذر ملك الحيرة ، فكان يطلبه فلا يقدرعليه وكان يعجبة ما يسمع عنه من شجاعة واقدام الى أن امنه ، فلما رآه استزرى منظره ، لانه كان دميم الخلقة . فقال النعمان : تسمع بالمعدي خير من ان تراه . وتمعدد (فعل) أي تزيا بزيهم . والمعدي اسم مصغر ، ومعناه رجل منسوب الى معد . يضرب مثلا لمن كان خبره خير من مرآه .)

عن (المعدان او سكان الاهوار ، ترجمة باقر الجبيلي) .

المترجم

الخلافة ارضاً صالحة لكل مدّع . والاصعب من ذلك هو ايجــاد فرد يخلف النبي بحيث يكون لديه من القوة والمقدرة ما يستطيع بهـما ان يستمر حاملاً رسالة النبي ودعوته ومحافظاً عليها .

وخلال المائتين والخمسين عاماً التي اعقبت وفاة النبي شكل احفاده فرقة وازداد عددهم كثيراً ولذلك لا يوجد ثمة ما يمكن الاستناد عليه في معرفة حقيقة وأصل علي بن محمد الذي هاجر من مدينة قرب طهران الحالية وادّعى انه من نسل النبي ، ولا يوجد هناك ما يمكن الرجوع اليه في ادراك حقيقة محاولاته الفاشلة للحصول على سطوة ونفوذ شخصي في المناطق المنشقة التي تتاح فيها عادة الفرص لمن يصطادون في الماء العكر . وفشل علي بن محمد في البصرة ، وكانت مدينة تقع في اقصى الغرب من مدينة البصرة الحالية ، فهرب الى بغداد . ولم يطل به الوقت في بغداد حتى عاد الى الجنوب وقد اختمرت في ذهنه خطة تختلف عن سابقتها . واختار لثورته في هذه المرة جموع عبيد افريقيا الذين عرفوا (بالزنج) ، وهم رجال من بلاد تدعى الآن زنجبار ، كمادة خام لثورته .

وكان عدد هائل من هؤلاء العبيد يشتغلون في الاراضي البور الواقعة في شرق البصرة يزيحون عنهـا طبقة التربة الغنية بالاملاح وفي نفس الوقت يكشفون عن الأراضي الصالحة للزراعة . وعملهم هذا كان من اشق الاعمال ومعيشتهم احطها ، لأن لا رابطة من مودة وحنان تعاطف يمكن ان تقوم بين ذلك السيد وعبده .

وفي هؤلاء الرجال الذين نقموا على العالم كلّه إلاّ على ابناء جنسهم ادرك علي ، ــ الشخص البغيض كما سمي فيما بعد ، القوة والوحشية اللتين ستدفعانه الى السيطرة والى تكوين قوة هائلة يمكنه الاعتماد عليها .

وتقرّبه من هؤلاء العبيد واقناعهم بآرائه يدل على فطنة حادّة وادراك نفسي عميق يفوق اي رجل يعمل في الدعاية والاعلان ظهر فيما بعد . وكان يخاطبهم ويتحدث اليهم عن لسان الله وعن لسان المأمون حتى اختلطت عليهم الصورتان . ويظهر ان الطائفة الدينية التي ادعى مساندتها ــ بحكم كونه انحدر مــن نسل ابنة النبي ــ وقد اختارها فقط لأنها تبنّت قولاً مأثوراً وهو : ان الحاكم يجب ان

يكون افضل رجل (حتى وان كان اسود حبشياً) . كانت تلك هي طائفة الخوارج الذين يعتبرونها جريمة كبرى الا يعترف بكونهم هم الممثلين الحقيقيين للاسلام ، وفيما عداهم من المسلمين يجب ان يسحقوا لأنهم كفرة ملحدون .

وكانت هذه بجلاء من اقرب المبادىء التي يمكن حشو أدمغة العبيد بها في انطوائهم على مرارتهم وحرمانهم . وفي النواحي الدنيوية لم يدع علي بن محمد الى مساواة العبيد مع اسيادهم فحسب وانما اراد ان يكون لهم انفسهم حق امتلاك العبيد .

وقامت ثورة العبيد في ايلول من عام ٨٦٩ بعد الميلاد وتحت قيادة علي ، واتخذوا من الاهوار المحيطة بدجلة قواعد وتحصينات لجيوشهم . وكانت تنظيماتهم الحربية تتركز في الهجوم الليلي ونصب الكمين لزوارق اعدائهم ومهاجمتهم من خلف ستار القصب . وكان عددهم في البداية خمسين الفاً ، وتضاعف هذا الرقم بعد ذلك بانضمام البدو والساخطين الى صفوفهم . وعندما اظهرت الثورة في البداية بوادر أمل في النجاح هرب عدد كبير من جنود الخليفة من الزنوج والتحقوا بجيوش علي . وشيدوا لهم خلال سنة واحدة مدينة على الضفة الغربية من دجلة ، وراحوا يشنون منها غاراتهم وغزواتهم على المدن البعيدة ، حتى انهم اغاروا على خوزستان الواقعة الى الشرق من الحدود الفارسية . واعتاد علي ان يعرض إثر دحر أو تدمير أية مدينة رؤوس القتلى امام انظار احيائها . وعندما اكتسح البصرة في عام ٨٧١ ميلادية كان اقل تقدير لجيوشه ثلاثمائة الف رجل . وخاض العبيد في بحر من دماء احرار الرجال الذين قتلوهم . وفي عام ٨٧٩ بعد الميلاد بلغت قوة الزنج أوج عظمتها ، واستولوا على عدة مدن بابلية حتى انه استسلم لهم جزء من كردستان . واعتاد الزنج ان يتركوا حامية قليلة في المناطق التي يحتلونها ويتراجعوا بعد ذلك الى الاهوار الكثيفة حيث أمنهم وسلامهم المضمون .

وفي سنة ٨٨١ ميلادية ، وبعد اثنتي عشرة سنة من قيام الزنج بثورتهم ، دخلت الحرب مرحلتها النهائية حيث حوصرت مدينتهم التي اطلقوا عليها اسم ـ المختارة ـ في حين كان اعدائهم يسمونها ـ المدينة البغيضة ـ ويقال انها كانت تضم في بداية

الحصار ثلاثمائة الف مقاتل يدير شؤونهم ملك زنجي .

واستطاعت المدينة ان تقاوم الحصار المضروب حولها مدة عامين ، وعندما سقطت اخيراً في عام ٨٨٣ م هرب ملك الزنج ، والقي رأس – علي البغيض – نفسه عند قدمي قائد جيش الخليفة . وقيل ان علياً قتل نفسه بيده حينما سقطت مدينته اذ لم يأت احد للخليفة للحصول على الجائزة التي وضعت ثمناً لقتله .

وحارب عدد من الزنوج الذين هربوا من – المختارة – في مجاهل قصب الاهوار الكثيف ، واخيراً استسلم الى قوات الخليفة اولئك الافراد الذين نظموا انفسهم في عصابات كبيرة بعد سقوط مدينتهم ، وتبدد آخرون منهم في متاهات القصب والمياه ولم يسمع بهم بعد ذلك . واطلق اسم – البرابرة – على اولئك الزنج الذين استسلموا داخل المدينة . وهم لا يتكلمون العربية ويأكلون الميتة ولحم الانسان .

انه لمن العجيب حقاً ان مثل ذلك العدد الهائل من العبيد لم يترك له احفاداً في مناطق الاهوار هذه [١]

---

(١) تتضارب آراء المؤرخين كثيرا في الحكم على حركة الزنج الا ان هذه الحركة عبرت حقا عن القلق الاجتماعي والقلق الفكري في ذلك العصر ، واود هنا اقتباس بضع فقرات مختلفة من كتاب (ثورة الزنج) للدكتور فيصل السامر تعليقا على بعض ما ذكره المؤلف هنا عن الزنج وثورتهم : (ان بلاد الزنج في راي الجغرافيين المسلمين تمتد من اعلى نهر النيل حتى سفاله ،ويقول المسعودى ان الزنج شيدوا مملكة واقاموا على راسها ملكا لقبوه « لوقليمن » واشتهرت بلادهم بانتاج العاج الذى كان يصدره التجار الى البلدان الاسلامية ، اما طعامهم – في بلادهم الاصلية – فيتكون من الذرة والموز واللحم والعسل ، على ان بينهم جماعة كانت من اكلة لحوم البشر) (ومما زاد في سوء حالتهم الاجتماعية والنفسية انهم لم يكونوا على هيئة اسر مكونة من اباء وامهات وابناء وانما ابعدوا عن اسرهم في وطنهم الاصلي وحرموا نعمة الاستقرار العائلي وزرعوا في بيئة غريبة عنهم دون ان تربطهم اية رابطة من التعاطف والتآلف والانسجام مع سادتهم او من كان ينوب عنهم) (ومهما يكن من امر فالباحث لا يملك الا ان يعترف بان حركة الزنج كانت محدودة لا تنطوي على برنامج اجتماعي شامل ، وانها لم تهدف الى الغاء العبودية كلية كما انها لم تحاول انشاء نوع من الاشتراكية كما يعتقد نظام الملك الذي يقول : ان مبادىء صاحب الزنج هي نفس مبادىء مزدك : ان المزدكية دعت الى احقاق المساواة بين الناس واعتبار الاموال ملكاً مشاعاً بينهم ، ولم تكن ثورة الزنج تدعو الى مثل هذا او الى شيء منه ، بل كانت ←

← رد فعل عنيف لما قاساه العبيد من الاضطهاد الاجتماعي ومحاولة ايجابية للانتقام من سادتهم حتى ولو استدعي ذلك واسيادهم الى العبودية) (على اننا لا نستطيع ن نبرىء صاحب الزنج واتباعه مما ارتكبوه من اعمال القسوة التي نسبها اليهم المؤرخون ، فما من شك انهم دمروا المدن ونهبوا القرى وقتلوا الرجال وسبوا النساء واسترقوهن) (وما اظن احداً يستطيع الادعاء بان النزعات الانسانية كانت ذات وجود في اية حرب او ثورة شهدتها العصور الوسطى سواء كان ذلك في الشرق ام في الغرب . لقد كانت اعمال القسوة والتعذيب والتشهير والتمثيل تجري في المعسكرين : معسكر الزنج ومعسكر العباسيين ، غير ان هناك كثيراً من الشواهد تدلل على ان صاحب الزنج كان يقصد بها اعداءه وحدهم ، وانه طالما وقف موقفاً نبيلا من الابرياء والمحايدين كما فعل في قريتي القادسية والجعفرية) (واعتنق صاحب الزنج مذهب الخوارج والازارقة وهؤلاء يبيحون استرقاق اعدائهم من المسلمين وقتل اطفالهم ونسائهم باعتبارهم كفاراً مارقين) (ان ابراهيم بن محمد من كبار الموظفين وهارون بن عبد الرحيم الشيعي صاحب البريد كانا مطمئنين الى ان العرب لن يساندوا الزنج في حرب البصرة وان مجموع من جمعهم علي بن محمد من العرب لم يزيدوا على تسعة اشخاص ، هذا في الوقت الذى دخل الزنج البصرة وفي مقدمتهم فرقة كبيرة من الفرسان العرب الذين كان لهم دور كبير في احتلال المدينة .)

الفصل الثاني

وغادرنا البصرة بسيارة صغيرة بعد ان مكثنا فيها اربعة ايام وحشرنا ، وقد كنا خمسة اشخاص ، في داخلها مع كوم من الحقائب يحتوي اغلبها على الادوية

ولا اتذكر مـــن الساعة التي قضيناها في تلك السفرة غير القليل لما اعقبها من اشياء جديدة علي . وكل ما اذكره هو الدرب المترب الذي سلكناه والذي يمر في احيان كثيرة ببساتين النخيل وبالاهوار الموسمية الجافة ، وبأراضي منبسطة تحت سمـــاء صافية تحلق فيها اسراب الغربان السود ، وعلى جانب من الطريق انتصب صقر بكل تحد فوق جثة كلب ميتة .

ثم انحرفنا عـــن الطريق الرئيسي ، وراحت السيارة تترنح وتتعثر فوق أرض وعرة ، تقطعها قنوات الري ، في اتجاه بستان للنخيل بعيد . وعلى مقربة من نهر الفرات تقع قرية صغيرة معظم سكانها من ملاحي بساتين النخيل ، واليها جلب ملاحو تيزيجر طرادتنا .

وظهرت السماء حالكة الاهاب تحت سعف النخيل ، بينما أشعة الشمس الواهنة تلتمع من بعيد ، وكل شيء من حولنا لاح غريباً عنا . وأخذنا نسير بين أكواخ القصب المبعثرة في تلك القرية ، وكانت تفصل هذه الاكواخ عن بعضها خنادق وقنوات تمتلىء بالماء ويقطع كل قناة جذع من النخيل كجسر يعـــبر عليه الناس . وشققنا طريقنا عبر تلك الجسور القلقة نحو اكبر كوخ في القرية . وكان ذلك هو :... المضيف .

وتتميز جميــع قرى الاهوار بهــذه (المضايف) وتستخدم لايواء الضيوف فقط يأكلون ويشربون فيها حتى ولو كانوا غرباء طارئين . وقد جرت العادة الا يكون ذلك لاكثر من ليلة واحدة . وتتكون المضايف كبيوت القصب الاخرى من صف من اقواس قصب عملاق يبلغ طوله عشرون قدماً ، وتغطى الاقواس من الخارج (بالبواري) . وعدد الأقواس يكون دائماً فردياً ، كأن يكون تسعة او احد عشر أو ثلاثة عشر أو خمسة عشر قوساً ، ومدخل (المضيف) يكون دائماً الى جهة مكة ، وهو في معظم المضايف المنفذ الوحيد للضوء ، على ان بعضها يزخرف بأشكال بديعة من القصب عند طرف المضيف الثاني . وفي كلتا الحالتين تجد الضوء في الداخل ضئيلاً والجو تحت الأقواس الــتي سوّدها الدخان يعيــد ذكرى الـكاتدرائية . ولا يحتوي المضيف على اثاث ومفروشات ولكن حالما يصل الضيف يقوم الخدم بفرش السجاد فوق (بواري) القصب ، ثم يضعون عليها وسائد خضراء أو قرمزية لان الوضع الاعتيادي للجلوس خارج المدن هو ان يتربع الشخص على الارض . ويرقد موقد أواني القهوة في ثلث المسافة عند مدخل المضيف . والموقد هذا عبارة عن شق صغير مكشوف في الارض تصطف الى جوانبه ادوات القهوة النحاسية والبرونزية المختلفة الحجوم ، ويوجد بينها وعاء كبير يتميز غطاؤه عن البقية بعلامة خاصة مزخرفه ، ويظهر ان ادوات القهوة هــذه متممة لمظهر المضيف ووقاره .

ولم يكن (شيخ) تلك القرية حاضراً فاستقبلنا اخوه ، وما زلت اتذكر ذقنه او بالاحرى انعدام الذقن في وجهه ، وقد كان اصغر ذقن رأيته في حيــاتي ، ولا تتبين لهذا الذقن من أثر سوى بضعة شعيرات رمادية اللون ، هي امتداد للحية ، حلّت محله ، ولو افترضت خطاً وهمياً يصل ما بين شفته السفلى وبلعومه لما اعترض هذا الخط شيء .

وفي المرحلة الاولى من رحلتنا هذه كنت أجهل تماماً الاساليب والعادات التي تنم عن التصرف السليم في نظرهم ، بينما معظمها شائع عند قسم كبير من العــالم العربي ، وعند سكان الاهوار بصورة خاصة ، في حين لاح معظمها جديداً عليّ .

وقد تعلمت شيئاً منهـا عن طريق المحاكاة والتقليد ، وثيزيجر نفسه لقنني الشيء الكثير منها قبل ان نغادر البصرة . فتعلمت مثـلاً ان ابسط اشكال التحية عندهم هي ان يضع الشخص يده على قلبه بعد المصافحة ، وعليـه ان يدخل الدار حافي القدمين . وعلمت انهم يعتبرون اليد اليسرى نجسة وتستخدم فقط للامور (القذرة).

وهذه العادة الاخيرة من اصعب الامور للاوربي غير المتمرن ان يتذكرها . والاشخاص الذين يستخدمون اليد اليمنى للاعمال (النظيفة) تراهم يعجزون عن عدم اشراك اليسرى في القيام بالاعمال كمتممة وملحقة باليمنى . وادركت حالاً انه يلزم جهد كبير وشعور يقظ حتى يكف المرء عن استخدام اليـد اليسرى في حياته اليومية .

وانا وثيزيجر ، بالنسبة الى القيم والعادات التي تعارفوا عليهـا شخصان غير نظيفين ، لأن فكرة استعمال ورق التنظيف بعد قضاء الانسان حاجته الطبيعية ، لديهم شيء كريه ، وليس ثمة ما يمكن عندهم ان ينظف الانسان حقاً غير الماء أو الرمل في حالة عرب الصحراء ، ويستخدم سكان الاهوار اليد اليسرى لذلك . فالرجل يجلس متقرفصاً حتى ينتهي ، وقد يستمر ذلك لعدة دقائق . وبعد التبول ايضاً قد يغسل المرء نفسه بالماء .

ولأن اليد اليسرى هي التي تستخدم لكل تلك الاغراض ولأشياء قذرة اخرى ، فإنها نفسها اصبحت قذرة ، حسب اعتقادهم ، وتعرت لذلك من الحلقات التي تحلّي اصابع اليد اليمنى . ومهما تكن نظافتها من الأوساخ فإنها يجب الا تلمس الوجه أو الرأس أو تقوم بأي من الحركات العفوية التي لا حصر لها والتي تهدف الى لا شيء ، كقرص الشفة عند التفكير او لمس الذقن ، وكل هذه حركات تحدث لا شعورياً عند الاوربيين (١) .

وفكرة النظافة راسخة ــ بغض النظر عن درجة تطبيقها ــ حتى عند الأعراب

---

(١) صحيح ان سكان الاهوار لا يتناولون الطعام ولا يلعقون اليد اليسرى ، الا ان هذه اليد تقوم في الحقيقة بكل تلك الحركات العفوية التي تصور المؤلف انها محرمة للقيام بها باليسرى .
المترجم

البدائيين . فإنه لشيء مخجل مثـــلاً ان يترك المرء الشعر يغزو جسده . ونادراً ما تشاهد اظافر تحشوها الاوساخ في اليدين أو في القدمين . وقبل تناول الطعام بقليل يدور على الحاضرين احد الخدم او المضيف نفسه بابريق واناء لغسل ايديهم ، وقد اعتاد المعدان غسل الفم بعد الفراغ من الطعام .

وتناول الطعام على الطريقة العربية يحتاج الى تعلم ومران طويل ، ووجــدت ذلك في البداية من الصعوبة بمكان . والنوع الرئيس الغالب عندهم من الطعام جبل مخروطي الشكل من الرز في صحن كبير عرضه قدمان وارتفاعه قدم واحد ويصعب كثيراً السيطرة على حوافه . وعند الاكل يجلس الضيوف متربعين في مضيف الشيخ امام واحد او اكثر من هذه الجبال التي تصطف حولها صحون المرق وأواني لحم الضأن والدجاج وصحون الحلويات المملوءة بمادة جيلاتينية ومادية رقيقة تشبه الصابون المعطر في رائحتها ، وكل ذلك يؤكل بواسطة اليد اليمنى ، على ان اليسرى تقوم باعباء حمل الدجاجة لتمزقها اليمنى شر تمزيق . والمضيف العربي الذي يستحق الشهرة لكرمه وحسن وفادته يقوم بذبح الدجاج لضيوفـه ، وثمن الدجاجة الواحدة هناك اربعة دراهم . اما الشيخ الكريم فيذبــح في كثير من الاحايين شاة يوضع رأسها الكريه بين الصحون الاخرى ليدلل على هذه الحقيقة الناصعة . وتعتبر قطع اللحم المقطوعة من الاذن ، وبعض الشعيرات لا زالت عالقة بها ، شيئاً له حلاوته ولذته . واصابع المضيف تنبش في رأس الشاة لتقدم للضيوف شرائح لحم الفم اللذيذة الطعم لو لم يصر الرأس على التحديق في الشخص بعيونه الجاحظة المرعبة .

وجدت في وقت متأخر في كتــاب المستر دزموند ستيورات *Desmond Stewart* (بابل الجديدة *New Babylon*) مثلاً عربياً يقول : « كل كالجمل وكن السابق في القيام » ولو كنت قرأته من قبل لأعانني في تفسير كثير من الامور وقعت امام ناظري فيما بعد . وفي الحقيقة ان كل وجبة طعام هي نوع من السباق فكل شخص تراه يحشو فمـــه بشراهة وهدوء لا يقلقه غير أفواه تمضغ وهمسات الازدراد تتصاعد من حين الى آخر . ومهما كانت الاشياء الملحقة ومهما كان التزويق

والتنميق فالرز هو الغذاء الرئيس ، حيث يصب الواحد منهم قليلاً من المرق على القسم الموجود امامه من جبل الرز ، ثم يحفر منه بأصابعه بينما ظاهر الكف الى الاعلى والابهام في راحة اليد ، وعندما تصل اللقمة الى الفم يدفعها الابهام اليه ، اذا بقي ثمة حبيبات خلال هذه الرحلة من الصحن الى الفم .

وفي الحقيقة انني كنت أجد يدي في ذلك المساء الاول تمتلىء من الصحن الا انها تصل الى فمي فارغة، لان مجرد جلوسي متربعاً امام الرز يجعله بعيداً عني، وليس المهم حجم اللقمة التي كنت أتناولها ، لأنها سرعان ما تتضاءل الى حبيبات قلائل قبل ان تصل إلى فمي . وكانت حبات الرز تتساقط من يدي لتستقر بين فخذي في فسحة المشمع السميك الذي فرشه الخدم قبل إحضار الطعام ، وكأن هذه الحبيبات في طقطقاتها على المشمع زخات مطر على شوارع لندن . ورحت أراوغ حبيبات الرز هذه وأتحايل عليها فأصب المرق فوقها وأعصرها على شكل كرات في يدي . وعلى الرغم من انه لاحت تباشير الفشل والاندحار في محاولاتي تلك خلال الاسبوع الاول ، إلا انها كانت الفكرة الوحيدة التي يمكن تطبيقها للحد من استهتار حبيبات الرز التي تصر على التزحلق من بين اصابعي .

وعندما انتهى سباق تناول الطعام هذا — وطبق ثيزيجر بينهم عادة البدو في القيام حالا بعد الانتهاء من عملية تناول الطعام — ادركت انه مهما كان الخصم فعالا في كيفية تناوله الطعام فإنه يوجد بينهم من يفوقه شراهة ونهما ، فقد انتثرت على المشمع أرطال من الرز والعظام ونثار الطعام .

وتمكنت اخيراً من تناول الرز بخفة وحيوية دون ان تنزلق من بين اصابعي حبة واحدة منه ، بيد ان العرب ظلوا يصرون حتى النهاية على القول بأني لا اؤدي ذلك بطريقة صحيحة رغم انني لم الحظ في ذلك اي فرق بيني وبينهم .

كان شيئاً طبيعياً ان تغطى يد الشخص اليمنى بالرز وان يقطر منها المرق بعد الانتهاء من الطعام ، وانه لشيء طبيعي ايضاً ان تنظف بلعقها . واذا كان الدجاج ضمن وجبة الطعام وكانت اليد اليسرى قد قامت بعملها في مسك الدجاجة خير قيام لتنفث فيها اليمنى جام غضبها فلا بد ان المرق والرز قد غطاها ايضاً .وثبت

لدي كشيء مستحيل عملياً ان انذكر بأن العادات تسمح للمرء لعق إحدى يديه المغطاة بالطعام في حين ترى هذه العادات نفسها تمنعه من ذلك بالنسبة لليد الثانية التي هي الاخرى مغطاة بالمرق ونثار الطعام .

وهنالك قواعد معينة لشرب القهوة عند سكان الاهوار يجب تعلمها ، وعدد قليل من السكان يمكنهم تقديم القهوة غير انه شيء طبيعي ان تلاحظ كل شخص معروف عندهم يقدمها لضيوفه . وتصنع القهوة بتحميص حبوبها على النار ثم تطحن (بالهاون) . والعــادة تقضي ان تجري هاتان العمليتان في حضور الضيف . ولا يمكن لأحد ان يجرأ على تقديم قهوة سبق له أن أعدها قبل مجيء الضيف . وتصب هذه القهوة عند الموقد من وعاء الى آخر امام الضيوف بطريقة لا يمكنني ادراكها، ثم يقترب احد الخدم من الضيف حاملاً الوعاء في يد (والفنجان) في اليد الاخرى وتصب في (الفنجان) كمية قليلة في حجم ملعقة الشاي يشربها الضيف دفعةواحدة اذا استطاع لأنها تكون ساخنة جداً . فاذا لم يرغب في المزيد ، عليه ان يهز الفنجان بسرعة حالما يعيده الى الخادم . وعلى كل حال فمن غير اللائق ان يشرب المرء اكثر من ثلاثة (فناجين) قبل ان يعطي هذه الاشارة .



يقبع (مشحوف [1]) ثيزيجر في احدى القنوات الضيقة التي يعلوها الزّبـــد ، والتي تخترق القرية في عدة اماكن ، وقد تركه في هذا المــكان ملاحونا عماره وسبيتي وحسن قبل مقابلتهم لنا في البصرة . وكلمة (مشحوف) أقل مــن ان تطلق على مثل تلك القوارب الانيقة ، وهي في جنوب العراق مختلفة الحجوم والاشكال الا

---

(١) يطلق المعدان على قواربهم اصطلاحا عاما هو الشحوف وجمعه مشاحيف . وهذه المشاحيف على انواع مختلفة منها : جلابيه ، وبركاشه او دانك ، وطرادة ، اما الماطور الصغير ، الذي يستخدم لصيد الطيور ، فلا عنق له كما في بقية القوارب الاخرى . وقــد يربط المعدان عدداً من حزم البردي بعضها الى بعض ويصنعون منها قارباً يدعونه « الشاشة » .

عن (المعدان او سكان الاهوار ، تأليف ولفرد ثيزيجر ترجمة باقر الدجيلي »

المترجم

ان مظهرها الخارجي يلوح بدائياً . ويبلغ طول (الطراده) أو قارب الحرب ٣٦ قدماً وعرضها اقل من ثلاثة اقدام ونصف في أوسع مكان منها. ومقدمتها عالية رشيقة ترتفع خمسة اقدام عن سطح الماء لتشكل قوساً يشبه مخلب النسر. وهذه (الطرادات) هي أرقى قوارب الاهوار ، ويزخرف داخلها برؤوس مسامير كبيرة كباب قلعة من قلاع القرون الوسطى . والمقدمة العالية تساعد (الطرادة) في شق طريقها خلال القصب والماء الضحل الذي لايتجاوز عمقه بضعة انشات بينما لايمكن للقوارب الاعتيادية ذلك .

وعند الغروب سرنا على الاقدام خلال بساتين النخيل واجتزنا وراءنا طرادتنا المنتظرة ، ثم هبطنا الى ضفة الفرات . ولم يكن ثمة مشحوف في النهر ، ولكن الافق انبسط وراءنا عارياً لا يحجبه شيء، وامتد على بعد لا نهائي خط اسود معتم .. انه قصب الاهوار !

وحينما كنت نائماً تلك الليلة في المضيف راحت تراودني أحلام تطوف كلها حول الاهوار ، بينما كانت الكلاب تمزق حجاب الصمت المطبق بعوائها المتواصل طوال الليل واقتعد قرب موقد القهوة ثلاثة زنوج مسلحين صبغ سواد وجوههم أحلام ليلتي الموحشة .. تلك الاحلام التي ما انفكت تدور حول القصب العملاق، كأشجار الغابات ، يتوارى فيه ، عبر القرون ، جيش الزنوج من أكلة لحوم البشر. وغشت احلامي كذلك ثرثرة هؤلاء الزنوج الخافقة والبرغوث الاسود اللعين .. البرغوث !.. البرغوث !! وعند الفجر تناهت الى سمعي اصوات الوز الوحشي من بعيد تختلط بطقطقة المطر وخشخشته على سقف المضيف .

✲ ✲ ✲

وفي صباح ذلك اليوم الرمادي البارد كخريف انكلترا وصل رابع ملاحي ثيزيجر ويدعى ـ كذيه ـ .. وكذيه هذا من نوع الاشخاص الذين يخطىء المرء اول الامر في تقديره لهم ، ولكن شخصياتهم سرعان ما تظهر بعد فترة قصيرة متناقضة متضاربة . وكان شاباً ضخماً في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر ذا سيماء

مغولية [1] .ويستوطن الاهوار عددغفيرمن هذا الجنس،وربماانحدروامن سلالةجيش هولاكو الغازي حفيد جنكيزخان الذي قتل حوالي مليون مواطن عند نهبه بغداد في عام ١٢٨٥ ميلادية (وتردد هولاكو في قتل الخليفة ، فعقد اجتماعاً مع المنجمين والعرّافين ليرشدوه ان كانت الطبيعة ستغضب من عمله هـذا فردوا عليه في حذر بانها لم تغضب عند قتل الحسين أو يوحنـا المعمدان أو المسيح ، فـكان ان قطع هولاكو رأس الخليفة تحت ظروف من الخوف مرعبة) .

وكذبة .. الذي يظهر لأول وهلة سعيداً ومعتدلاً كان في الحقيقة شاباً مزاجي الطبع يتقلب بين الفرح والحزن وبالتالي فإنه أقل الاربعة ثقة في الاعتماد عليه .



وحملنا (الطراده) وبدأت رحلتنا الحقيقية حين شقت الطرادة الطويلة طريقها خلال قنوات القرية . وكان الملاحون خـلال سيرنا يرفعون الجسور المصنوعة من جذوع النخيل بين حين وآخر كما ترفـع الجسور فوق الممرات البحرية الكبيرة لتعبر البوخر الضخمة من تحتها .

وشققنا طريقنا ضد مجرى نهر الفرات بمحاذاة أقرب ضفة لمسافة ميل واحـد قبل ان نصل الى ــ الهوير ــ على الضفة الشمالية . والهوير .. قرية تكتظ بأكواخ القصب وهي احدى المراكز الرئيسة التي يعتمد عليها سـكان الاهوار في صناعة القوارب . ولأن الخشب ينعدم في الاهوار ويقل بصورة عامة في جنوب العراق ما عدا جذوع النخيل ، فإن كل المواد اللازمة لصناعة القواب تستورد من الخارج ما عدا الزفت الذي تطلى به فهو صناعة محلية .

---

(١) يقول الدكتور شاكر مصطفى سليم في كتابه « الجبايش » : « يبدو معقولا ان نعتقد ان قسماً من سكان اهوار العراق تحدروا عن اصول بابليه وسومرية ، وتعرضوا لكثير من الاختلاط الذي تسبب عن الهجرات او التزاوج مع الايرانيين في القسم الشرقي من منطقة الاهوار ، ومع بدو الجزيرة العربية في القسم الغربي ، والقسم الاخر هاجر ولجأ الى الاهوار جمـاعات وعشائر من ايران ومن الجزيرة العربية فتأقلم وفقد الكثير من صفاته الاصلية » .

المترجم

وتضم هذه القرية المتخصصة في صناعة القوارب عدداً كبيراً من (السادة) الذين ينسبون انفسهم الى النبي ، بينما يقل عددهم كلما توغل المرء في داخل الأهوار . ويميز السادة انفسهم بارتداء عمامة تشابه الكوفيه البيضاء المرقطة باللون الاسود غير انها عند هؤلاء السادة تكون مصبوغة باللون الازرق المعتم . ويتجول السادة في الاهوار للحصول على النقود من الناس كحق من حقوقهم الدينية ، ويقطن البعض الآخر منهم مسالك الانهار المحيطة بالاهوار حيث ترجح كفتهم ، وهناك يعملون ليكسبوا عيشهم كبقية الناس .

ويعتبر السّادة من اشد الناس في اظهار عداوتهم للمسيحيين ولغير المسلمين بصورة عامة ، وقد لاقى ثيزيجر خلال اكتشافاته الاولى في المنطقة صعوبات كثيرة مع هؤلاء السادة كان عليه ان يتغلب عليها . وكان احد السادة مرة من بين جماعة ضمت ثيزيجر نفسه ، فراح السيد يحمل المضيف لوماً كبيراً لاستضافته شخصاً كافراً ، ثم أخذ يندب موت الايمان الذي جعل المسيحيين غير الطاهرين يأكلون في بيوت المؤمنين . ولعل توجيه ذلك الهجوم من قبل السيد الى المضيف بمثل تلك الصورة العلنية ساعد على ترجيح كفّة ثيزيجر ، حيث انه لا يوجد ثمة عربي يتحمل ان يشتم ضيفه أو يهان امامه . ورد المضيف على السيد قائلاً انه ليس عالماً دينياً وان ثيزيجر ضيفه ويجب أن يعامل مثله ، اما بالنسبة لطهارته ونظافته فظهره على الأقل يدل على انــه نظيف مثلهم . وبعد هذه المحاورة شعر بقية الضيوف بأنه عليهم ان يحددوا موقفهم ايضاً ، وواحداً بعد الآخر اخذوا يتركون جانب السيد ليجلسوا الى جانب ثيزيجر . وقد استطاع بعد فترة قصيرة ان يداوي ابنـــاء السادة واطفالهم فأحبه بعد ذلك الجميع واحترموه . وعلى اية حال فقد لاحظت الناس في ــ الهوير ــ لا يشربون من الاواني التي تشرب بها قبل غسلها بالماء ، ولاح لي ذلك مجرد تظاهر وأبهة ليس لها ما يبررها .

ومكثنا في ــ الهوير ــ فترة صنعت للطرادة خلالها مجاذيف جدد . وغادرنا بعد الظهر الى قرية ــ الرملة ــ التي تحدد اليابسة قبل ان نصل الى الاهوار العظيمة .

الفصل الثالث

غادرنا القرية والرياح تعصف بحدة والسماء رمادية اللون خالية من الغيوم . وما خلفنا بساتين النخيل ومساحات اليابسة وراءنا حتى تعرى الافق امامنا لا تحجبه غير سيقان القصب والبردي المحترق تتخلله مجاري المياه التي تراءت وكأنها اكثر عتمة من الافق الازرق الرمادي الداكـــن . وكشفت بقع متناثرة سوداء عن نفسها وكأنها مؤخرة جيش النخيل المنهزم امام طلائــع قصب الهور الذي لاح لنا من بعيد . وامتدت الارض امامنا الى بعد لا نهائي منبسطة كالمرآة .. كبيرة شاحبة مقفرة . وسيقان البردي الهزيلة تغوص في ماء يعكس صفحة سماء عظيمة مكفهرة . والقصب العملاق هنا وهناك يتلوى الما وينحني صاغراً تحت ضغط الرياح العــاصفة وفي اللحظة التي اشتـــدت فيها قسوة الريح واضطرب الماء بين سيقان القصب بارتعاشات من موجات متعاقبة ، انبعثت اصوات مختلفة غريبة كفرقــة انشاد . وتصاعدت عدة انغام سيمفونية عجيبة من انين الحلفاء الجافة ومن نقيق الضفادع ومن زئير العاصفة . ولئن امكن لشياطين هيرونيمس بوش *Hieronymus Bosch*[1] ان تتكلم من لوحاته الفنية فإن تلك الأنغـــام والضجة تظهر وكأنها منطلقة من أفواهها .

* * *

---

(١) هيرونيمس بوش : فنان هولندي من فناني القرن الخامس عشر اشتهر بلوحاته الخيالية التي تدور مواضيعها حول الشياطين والجن .

لم يكن ثمة لون في الافق الا ان السماء الرمادية التي لا يحجبها تل ولا شجرة بدت واسعة فسيحة كما لو انك تحدق فيها مـــن زورق في عرض البحر . وتمتطي متن الرياح بين آونة واخرى أسراب ــ نبيع الماي Pelicans ــ بأجنحته المنشورة وبأجساده الضخمة الكبيرة كطائرات بحرية . وعبر السماء العظيمة العاصفة خطف سرب من طير ــ ابو منجل الابيض White ibis ــ بعيـــداً في أجواء الفضاء يعرض غلالته الجميلة . وهنا بين البردي والقصب القصير الشاحب اللا حدّ له يسيطر على الانسان شعور بأنه لا يمكن لسفينة ان تبحر ولا لأقدام مخلوق بشري ان تسير ويحس المرء انه من الصعب عليه إيجاد ملجأ يحميه او شيء يظلله .

وشقت الطرادة دربها لمدة ثلاث ساعات والمنظر واحـد ابداً لايتغير وزفيف الريح وعصفها المرعب بين القصب يرعد من حولنا بينما اخـــذت بساتين النخيل في ــ الرملة ــ التي لاحت كبقع سوداء تتوضح تدريجياً ، واخيراً اخذت الطرادة تسير في مسالك مائية ينبت القصب في اليابسة منها على الجانبين . وظهرت امام ناظرينا اكواخ القصب من بعيد تزدحم وتتكش حول النخيل .

وعلى الرغم من ان ــ الرملة ــ تقع في جزيرة منخفضة وتتبعثر من حولها بساتين النخيل فإنه لايمكن تسمية سكانها (معدان) بالمعنى الحقيقي لهـــذه الكلمة ، فإنها كانت تضم اول مجتمع بدائي اراه لان ــ الهوير ــ كانت واقعة عـــلى طريق عام وقريبة من معالم المدنية ، ثم اننا كنا قد نزلنا في مضيف (الشيخ) ولم نختلط بالعامة من الناس . والاكواخ في الرملة صغيرة لايزيد عرض الواحد منهـا على ١٢ قدمـاً وطوله على ٣٥ قدماً ، وقد ظهر الكثير منها مضطربـــاً اثر العاصفة التي تلاعبت بالنخيل فاحالته الى اشكال مشوشة . وانحسر ماء الهوار عن قنوات طينية الجوانب ومستنقعات صغيرة بين الاكواخ يعلوهـا الزبد ، وجرفت الرياح قشور القصب في دوامة رملية على سطح الماء . وكانت تنتظرنا ، على ضفة تجـاور داراً قريبة منا ، جماعة من رجال القرية بكوفياتهم وجلابيبهم التي راحت ترفرف مع الريح . وبعد دقائق من تبادل التحيات كنا نجر خطانا نحو احد البيوت . وكان المدخل شقاً في القصب العامودي ومن الضيق بحيث لايمكن لاحد دخوله الا منحنياً .

وفي تلك المرحلة الاولى من رحلتنا كنت امتلىء غيظاً لارتكابي اخطاءاجتماعية عن لا قصد وكأنني متعبد في كنيسة لم يتقن اصول ديانته بعد . وكنت حذراً في ان اضع يدي فوق قلبي بعد المصافحة تماماً كما يفعل اولئك الذين يصافحونني . ويأخذني الارتباك عندما ينحني احدهم ليقبل يدي . ودخلنا الكوخ وما وصلت منتصف المسافة عندمدخله حتى ادركت انمن الواجب ان اكون حافياً في داخله ، واضطربت الجماعة من خلفي عندما توقفت لاحل عقدة حذائي .

وكان الكوخ من الداخل لايختلف عن بقية الاكواخ في الاهوار ، فهناك تسعة اقواس من القصب ، وفي منتصفه دكة تشبه سرير النوم مصنوعة من القصب تشطره الى شطرين ولم تكن الدكة هذه في الواقع سريراً للمنامة وان اقترب الشبه بينهما لان سكان الاهوار ينامون على الارض دائماً ، وكما يستخدم الاوروبي خزانة لحفظ الاواني والحاجيات المنزلية فإن هذه الدكة استخدمت ايضاً لنفس الغرض ، فقد تكدست فيها الجاذيف والحبوب والفرش والبطانيات والوسائد واشياء اخرى لم استطع تمييزها وسط الظلام الذي لفّنا حيث لا يحتوي كوخ القصب على اية نافذة يمكن للضوء ان يتسلل منها .

ان نصفي الكوخ يشبهان تقريباً غرفتي الطابق الاول من البيوت القديمة الطراز فاحدهما خصص لتطبخ فيه العائلة وتأكل وتجلس .. وتنام ايضاً . والنصف الثاني هو بمثابة غرفة استقبال ونادراً ما يسمح بالجلوس فيه لغير الضيوف . واستطعت ان المح وراء الدكة نساء واطفالاً تقرفصوا حول نار يعلوها قدر يرتكز على مساند مثلثة الشكل ، وتتوضح على ضوء اللهب حيوانات مختلفة ، فهنالك كلبان وقطة وعدد من الدجاج وثلاثة عجول .وكانت الارض قرب الدكة مغطاة باربع (بواري) حول فسحة مكشوفة في الوسط يشتعل فيها القصب ، والى جوارها صف من ادوات القهوة . واحضر لنا المضيف وسائد صنع غطاؤها الخارجي من غزول صوفية متينة بنقوش ملونة براقة . وفي لحظة جلسنا متربعين مرة اخرى كما هو الحال عليه داخل (الطرادة) . وهذا النوع من الجلوس ، ولو اني لم ادرك ذلك بعد ، هو الذي سيميز رحلتنا كلها . وانه لشيء مؤلم ومرهق حقاً لاولئك الذين لم

يعتادوا ان يصبروا عليه لساعتين او ثلاث ساعات .. وانـه العذاب بعينه ان تقفز من القارب لتعيد نفس الوضع من الجلوس بعد لحظات .

وشربنا بضعة اكواب من القهوة كما فعلنا سابقاً في ـ الهوير ـ ثم شربنا شاياً من اكواب صغيرة ملئت بالسكر الى النصف . ويقدم كل شخص من سكان الاهوار الشاي الى ضيوفه حتى اذا لم يتمكن من تقديم القهوة لهم . وما اخـذت الساعات تمر حتى امتلأت الدار . واخيراً كان هنالك اكثر من ستين شخصاً حشروا انفسهم في مساحة طولها ١٨ قدماً وعرضها ١٢ قدماً ، وكلهم من الرجال والصبية لأن النساء يجلسن جانباً وقد لا يسمح لهن بالاختلاط مع الرجال من غير عوائلهن . وما اظن علبة الساردين تفوق هذا الحشد ضغطاً ، ومع ذلك فكل رجل منهم يحذر ويتجنب ان يولي ظهره الى الآخر لأن ذلك يعتبر كما لو انك تعرض باطن قدمك في وجهه .

وتملكني العجب من هراء هذه العادات التي يحيط هؤلاء الناس انفسهم بها . فكل ضيف يلقي التحية على مضيفه عند دخوله ، وفي بعض الحالات تمتد التحية والمصافحة الى حد اطلاق خمس عشرة أو عشرين اطلاقة بندقية كسؤال وجواب بين الأحبة . وما يختار الضيف مجلسه ويستريح متربعاً في فسحة ضيقة بـين الحشد حتى يبدأ تطبيق العادات الاجتماعية المعروفة ، وفي لحظة يرتفع من بين الحاضرين صوت منطلق بتحية المساء : « مسّاكم الله بالخير ! » وعندئذ يقوم الضيف ورجلاه متشابكتان من تحته كحدّي المقص ليجيب : « مسّاكم الله بالخير احمـد ! » ثم يجلس مرة اخرى ، وتنطلق من زاوية اخرى : « مساكم الله بالخير ! » وللمرة الثالثة عليه ان يقوم متمايلاً على مثلث ركبتيه المعقودتين ليجيب : « مسّاكم الله بالخـير داود ! » وعليه بعـد لحظات ان يقفز الى اعلى واسفل باستمرار كمكبس السيارة ليرد على الجميع : « مسّاكم الله بالخير محمود ! .. مساكم الله بالخير حسين ! .. مساكم الله بالخير فالح ! .. » حتى يكون كل رجل من الحاضرين قد أدّى دوره ، والقادم الجديد هذا يتهيأ هو الآخر لإطلاق ذخيرته من (مسّاكم الله بالخير) على القادم الجديد

التـالي [١] .

وأشعل حالاً مصباح وضع عـلى الحد الفاصل في منتصف الدار بيد ان الضوء الواهن المنبعث من ذبالته حجبته الاجساد الكثيرة من حوله . ولا ضوء ينعكس على وجوه ذلك الحشد سوى لهيب القصب في الوسط . وانحنى مضيفنا على الموقد وبين ركبتيه حزمة من القصب ، فما ان تلتهم النار اطراف القصب حتى يدفعها الى النار .

---

(١) آداب المضيف شيء مهم معقد لدى سكان الاهوار الا ان المؤلف لم يذكر الا الجزء اليسير جداً منها ، فـآثرت هنا اقتباس بضع فقرات في ذلك عن الدكتور شاكر مصطفى في كتابه الجبايش :
« يلعب المضيف دوراً هاماً للغاية في حيـاة المجتمع ـ مجتمع الاهوار ـ كمركز اجتماعي وقاعة للاجتماعات السياسية ومحكمة عدل .

فيجتمع افراد العشيرة في المضيف لتمضية اوقـات فراغهم في شرب القهوة والتدخين وتبادل الاخبار . وفي المضيف تقام احتفالات الزواج حيث يغني المحتفلون ويطلقون العيارات النارية ويولمون الولائم . وتقام في المضايف كذلك الفواتح على ارواح الموتى ، حيث يأتي الناس لمدة ثلاثة ايام ليقدموا تعازيهم لعائلة المتوفي ، وحيث تقدم لهم في المضايف القهوة والسجاير والطعام . وفي المضايف ايضاً تقام الاحتفالات الدينية في شهر محرم في ذكرى استشهاد الامام الحسين واهله وصحبه في موقعة كربلاء .

وللمضايف دور هام آخر في المجتمع ، فهي اماكن او قاعـات للاجتماعات السياسية تدرس وتحسم فيها كافة الشؤون السياسية كالضرائب وشؤون الاراضي والأمور المتعلقة بالحكومة . »

« ويدخل المذنب في المضيف ، حتى لو كان ذلك مضيف اعدائه لاجئاً ومحتمياً ، حيث يضمن الامن فلا يستطيع احد ان يعتدي عليه . »

« ويعتبر الاعتداء على شخص في مضيف جرمـاً كبيراً وغلطاً فاحشاً والمفروض بمن يقع عليه الاعتداء او بان ان يمتنع عن حضور ذلك المضيف احتجاجاً على صاحبه حتى يعتذر منه بارسال وفد خاص (مشية) له . »

« وعلى نفس الاساس لاتقدم القهوة في المضايف للذين يقترفون جرائم منكرة . ولا بد لصاحب المضيف ان يبين السبب الذي يحدو به الى الامتنـاع عن تقديم القهوة لهم . ويعتبر الرجال ذلك العمل عيباً وخزياً كبيرين وواجبهم ان يمتنعوا البتة عن ارتياد ذلك المضيف حتى يصلحوا ما اتهموا بالتقصير فيه ، والى ان يستعيدوا اسمهم وشرفهم كاملا بصدد ذلك الأمر . فان لم يكن لدى صاحب المضيف سبب داع يبرر امتناعه عن تقديم القهوة لاولئك الرجـال فلهم ان يطـالبوه بتعويض (حشم) عن هذه الحالة » .

(المترجم)

لايمكنني بأية حال ان اتصور كيف لا تشتعل الاكواخ المصنوعة من القصب ، فالريح تزأر وتعصف بالبواري في الخـــارج بوحشيـــة وعنف ، والقصب يتأجج ويضطرم في الوسط ، وشرار النار الحاقدة يتطاير الى أعلى ليشق ظلام الليل ببريق أخّاذ تحت سقف الكوخ المعتم ، والرجال يلقون بأعقاب السجاير هنا وهناك دون خشية أو حذر . ولاح لي وكأن الكوخ واللهب وشرار النار المضطرم كلها اشياء خادعة وانها ليست اكثر من مونتاج للأفلام السينمائية والا ً فكيف لا تأتي النار على الكوخ لتلتهمه . وتساءلت ونفسي عمّا ستأخذه شركة تأمين اوروبية لو طلب منها ان تقبل تأميناً ضد الحريق على هذه الأكواخ .

وفي الحقيقة ان العاصفة التهمت الكثير من اكواخ قرية مجاورة في الليلة الفائتة وتركت نصف سكانها بلا مأوى . والنار احدى النكبات الاخرى ، غير الموت او المرض ، التي يتعرض لها الناس في الاهوار . ففي مثل هذه الحال عليهم قطـــع مسافات شاسعـــة ليحصلوا على قصب طويل وعليهم ان يشتروا في اقسى ظروف فقرهم المدقع (بواري) جديدة لانشاء اكواخ اخرى بـدلاً عن تلك التي التهمتها النيران .

وكانت تلك هي الليلة الاولى التي اقضيها في داخل بيت قروي ، ولو لم يكن فيها ثمة حادث معين لكانت نموذجاً لليالي التي اعقبتها . فقبل منتصف الليل ابـدى ثيزيجر رغبته في النوم فأخذ الحشد يتفرق ويغادر الدار . ولملم مضيفنا رماد النار وفرش الملاحون بطانياتنا على الارض واخذنا حذرنا خوفاً من حوادث السرقـــة المنتشرة في الاهوار ، وطويت سترتي وبنطلوني كالمخدة تحت رأسي وحشر سبيتي ، الذي تظاهر بمسؤوليته عني ، كل ما املك كالمنظار والكاميرا والبندقية تحت حقيبة نومي حتى احسست وكأنني كاليفر مضطجعاً على جبل من جبال ليليبوت . ثم ابتدأت عملية التدليك التي تعتبر من اغرب عادات مجتمع الاهوار واكثرها الماً في بعض الأحيان . وهي عبارة عن عجن ثقيل للجسم لا يمكن لعضلة ان تفلت منه ، وتظهر متعبة مرهقة لمن لم يعتدها . وعندهم اعتقاد راسخ بفائدة التدليك صحياً ، ولكني اظنها ليست اكثرمن عادة اجتماعية تدل عندهم على الصداقة وطيبة السريرة

وربما تمتد الى ان تحمل في حناياها ظلال معان مختلفة . وتجري هـــذه العملية عادة قبل النوم الا انها من الممكن ان تكون في اي وقت وفي اي مكان . وبينما يكون الشخص جالساً بين حشد من الضيوف ، او واقفاً بين جماعته في الخارج ، يمد رفيقه المجاور له يده يقوم لا شعورياً بتدليك كتفه او ساقـــه ، كما لو كان يلعب بحبات مسبحته ، اللعبة التي لا يمكن فصلها عنه .

ورحت أتلوى تحت تدليـــك سبيتي المؤلم لاطراف أصابعي واعضاء جسدي مدة ربع ساعة قبل ان ادرك بأن العرف والعادات الجارية تسمح لي ان اطلب منه الكف عـــن ذلك . ولاحظت ثيزيجر مستسلماً الى تدليك عماره وحسن بهدوء عجيب . واخيراً انتهت هذه العملية واطفىء المصباح وتحت رداء الليل القاتم تسللت يدي خلسة وحركت بندقيتي ومنظاري من تحت ظهري . وقد كنت محاطاً بأجسام سبيتي وحسن وكذبة . وظهر لي انني في مأمن من لصوص الظلام . وطويت رباط منظاري حول اصابع يدي اليمنى ونمت .

كانت تأخذني اغفاءة خفيفة للحظات أصحو بعدها جافلاً دون ان اعرف ما الذي ايقظني . الظلام مطبق حالك ويرتفع الشخير عالياً من حولي ، ولكن ليس بمثل تلك القوة التي يرتفع بها من سبيتي الذي يلامس رأسه المحلوق رأسي من الخلف ونحن نتشارك على مخدّة واحدة بينما ساقاه ممدودتان الى الجبهـــة الاخرى . ولم استطع ان ارى شيئاً وسط الظلام المطبق فيما عدا ما يتراءى لي من السّماء عبر شق الباب ، بينما العاصفة في الخارج تعوي وتتلاعب بقصب الكوخ . وما لامست ريشة النوم اجفاني ثانية حتى احسست بشيء يجذب رباط منظاري من بين اصابعي . ومددت يدي اليمنى اتلمس الرباط الجلدي فاذا بي المس يداً اخرى . وكان طبيعياً ان اقبض عليها وخفت ان يكون الشخص يحمل سكيناً ، لذلك تركت يده حالما سحبها . واظلمت فتحة الباب عندما تسلل زائرنا الليلي هذا خارجاً . وتحسست موضع البندقية التي كنت وضعتها على بعد انشات قلائل عني ، ويا للهول !.. لم تكن البندقية هناك . وأدركت ان حالتي وانا نائم وتحت ظهري بندقية ، لا بد اثارت الشك من حولي ، وان حيلتي في اخفائها قد انكشفت ، ورأيت انه ليس

امامي إلا ايقـــاظ سبيتي . وفتحت مصباحي اليدوي وكلي ثقة ان البندقية قد اختفت من الكوخ كله . ولم استطع ان اشرح لسبيتي ما حدث لان مفرداتي العربية كانت في ذلك الوقت لا تعدو الدزينة من الكلمات . ولكني استطعت ان اوضح له قضية اختفاء البندقية . وحينئذ انهـــال عليّ بثرثرة مدمدمة من اللوم والتقريـع كانت من الوضوح والفهم كما لو انه كان يكلمني بالانكليزية . وأسدل ستار الختام على ثرثرته تلك بأن القى البطانية عنه فانكشفت ساقاه ملفوفتين حول بندقيتين كما لو كانتا تتسلقان جبلاً . وظهرت امامه بعد هـــذا بموقف بليد ... تماماً كما توقعه هو .

ويمكنني القول ان الطريقة التي استيقظنا بها صباح ذلك اليوم تعد نموذجاً لكل ما اعقبها خلال الشهرين التاليين . ففي باديء الامر يستفيق الشخص وتخدير النوم ما يزال يتململ في عروقه وعندئذ سيرغم نباح الكلاب المتواصل ، على بعد اقدام قلائل من رأسه ، سباته وغيبوبته على التقهقر من اجفانه يضاف الى ذلك اصوات العائلة وجلبتها خلف الحاجز القصبي وهي تتهيـــأ لليوم الجديد . ووجدت ان باستطاعة المرء تجاهل نباح الكلاب ، بيد ان اصوات البشر كفيـــلة بسلب كل رعشة من رعشات النعاس عن جفونه حتى ولو لم يدرك معاني كلماتهم . وكان رنين (الهاون) وهو يسحق حبوب القهوة ، يلعلع بالقرب منا . وارتفع استنكار ملاحينا حيث كان ثيزيجر يمزح معهم بالضرب على رؤوسهم بمخدة صغيرة . ولكنها كانت صلدة ثقيلة ، ليوقظهم ظناً منه انها لا تؤذي . امـــا طريقة غسل الوجه عندهم فإنها على شيء كبير من البساطة ، حيث يتقرفص الشخص خـــارج الدار وتصب دفعات ماء بارد على يديه من فوهة طويلة لابريق نحاسي يتشابه شكله في جميع مناطق الاهوار . وكنا في ذلك الحين نحلق كل ثلاثة او اربعة ايام وعندما نكون ضيوفاً على الشيخ . وبعد فترة طويت بطانياتنا وخبئت ثم اوقدت النار في موقد القهوة القائم وسط ساحة الدار وتربعنا حوله نشرب اكواب الشاي اللذيذ ، ونأكل خبزاً رقيقاً تعده معظم العوائل القروية اليسيرة العيش لضيوفهـــا . والخبز العربي يختلف ومـــا تتضمنه هذه الكلمة من معناها الاوربي لانـــه خال من

الخميرة . ويكون اقراصاً رمادية ستّود لهيب الموقد اجزاء مختلفة منها . والخبز الاعتيادي اليومي في الاهوار يكون سمكه نصف انش . ويصنع بالصاق العجينة فوق لوح دائري ذا فتحة في الوسط تندلع منها السنة اللهب لتلعق العجينة (١) . اما الخبز الرقيق اللذيذ الطعم فيصنع بصب مزيج كالزيت من الطحين والماء على سطح صفيحة مقعرة وناعمة ومقلوبة . تسندها فوق النار ثلاثة ركائز من طين يابس ثم يغطى بصفيحة اخرى مقعرة يمكن اراحتها بعد أقل من دقيقة . ليخرج من تحتها رغيف ذهبي اللون شهي . وهذا النوع من الخبز الرقيق مثير للشهية في شكله وفي طعمه على العكس من الخبز الاوروبي الاعتيادي الذي يعتبر غير صالح للأكل عند معظم الاوربيين (٢) .

وبدأ عمل ثيزيجر الطّبي بعد الفطور مباشرة ، والرياح لا زالت تعوي في سماء صافية زرقاء ، وتثير زوابع التراب من الارض اليابسة في الجزيرة وتملأ الجو بحطام وقشور القصب الذهبية المتطايرة . وأخذ اعجابي واكباري لثقة ثيزيجر بنفسه يزداد في كل لحظة . وأحس في داخلي واثقاً بأن لا طبيب في انكلترا يمكنه ، لو حاول ، ان يتدبر مثل هذه العلل والشكاوى المتباينة التي واجهها ثيزيجر . ولهذا تراه حصل على شهرة وسمعة واسعة بين مجتمع الاهوار بعد سنوات قلائل من العمل ، وربما كان تشخيصه للمرض صائباً مرة وخاطئاً مرة اخرى ... تشخيصاً شحذته التجارب الطويلة يتبعه استعمال العقاقير والادوية الغالية المضادّة للفطريات التي جعلت للتشخيص ، صحيحاً كان أم خاطئاً ، أهمية ثانوية .

وتعبث مختلف الامراض بأجساد سكان الاهوار ، وانه لشيء مرعب ان تنظر في وجوه بعضهم الشاحبة والتي تتجسم عليها كل تلك الامراض الخبيثة . ومن المحتمل انهم مدينون في بقائهم لنسبة الموتى الكبيرة بينهم لان هذه المساحات الضائعة في المياه لايمكنها ان تحتمل ابداً هذا العدد المتزايد من السكان . وعدد كبير

---

(١) هذا النوع يدعى عندهم (خبز طابق) او (رغفان) . المترجم

(٢) كلمة (خبز ساج) يطلقها سكان الاهوار على هذا النوع من الخبز .

(المترجم)

من هذه الامراض سريع العدوى . وعندما غادرت الاهوار زال تعجبي في انني لم أصب بأي مرض حينما تصورت ثيزيجر وهو يقضي بينهم أربع سنوات في اختلاط تام . ومع ذلك لم يصب بأي مرض من الامراض المنتشرة بين سكان الاهوار .

والدزانتري أحد الامراض المتوطنة في مناطق الاهوار حيث يصعد الماء . نفس ماء الشرب . ويحيط بالبيوت من جميع الجهات . تطفو على سطحه فضلات الانسان الى جانب العدد الهائل من الكائنات الجهرية واللاجهرية فيتماسك كل ذلك الخليط ليعطيه منظر شوربة خضراء . وهنالك نوع من السفلس يختلف عن ذلك النوع الذي يتسبب عن العلاقات الجنسيه . ويصيت جلد الانسان بشكل مخيف وهو سريع العدوى . وعدد كبير من سكان الاهوار مصابون به .

ويمكنك ان تتوقع أمراضاً جلدية اخرى في رؤوس عدد كبير من الاطفال . وينتشر بينهم مرض الانكلستوما بسرعة لانهم أبداً حفاة الاقدام .والبلهارزيا مرض لا مفر منه لسكان الاهوار لانهم يقضون ، بحكم بيئتهم والضرورة . معظم اوقاتهم عراة في الميـــاه . ويمكننا القول ان البلهارزيا من اوسع الامراض انتشاراً بينهم . لانه لا يوجد ثمة علاج يضمن شفاءه العاجل .

ومرض البلهارزيا بطيء في ظهوره . وربما حمل الشخص جراثيمه عدة سنوات دون ان يحس بأكثر من ألم قليل اذا كانت الاصابة خفيفة . ولكن لابـــد لاعضاء الحوض ان تتأثر عاجـــلاً او آجلاً وتظل تعاني الاماً مبرحة بالاضافة الى تأثيرات ثانوية كالحصى الذي يتشكل حول البويضات في المثانة .

هذاقليل من كثير من الامراض التي تصيب سكان الاهوار . وليس غريباً ان يحاط ثيزيجر الذي قام لهم بما يشبه المعجزات لسنوات أربـــع بجمهور ملحاح في كل قرية نحل فيها . وعدد مراجعيه من المرضى ينمو بسرعـــة من نواة صغيرة تتكون من شخصين او ثلاثة من افراد العائلة التي نستضيفها . وما ينتشر خبر فتح صندوق الادوية حتى يتوافد الناس من كل انحاء القرية ليتدافعوا حوله . ويرتفع عددهم في بعض الاحيان الى المئات . ومن المستحيل معالجتهم كلهم . فلا يمكن الصندوق من الادوية يحمل في طرادة ان يكفي لاكثر من قريتين او ثلاث قرى .

وكثيراً ما يضطر ثيزيجر الى الامتناع عن معالجة الاصابات الخفيفة . او الى طرد من يشك في تمارضهم ممن يحشروا انفسهم لمجرد الحشر . ومنذ اليوم الاول اختمر في رؤوسهم الاعتقاد بأني خير وسيط لهم . وان مظهري أقل رهبة من ثيزيجر . واني شخص من الممكن ان يلين قلبه لهم . لذا سرعان ما اصبحت نواة لحشد لا يقل عن الجمهور المحيط بثيزيجر نفسه . ولم يجد تكراري القول بأني لا افهم اللغة العربية نفعاً لا في تقليل عددهم ولا في الحد من الكلام والتوجع المنثال من افواههم .

واصبحت رؤيتي وسط الزحام من حولي ، تتحدد في عيون متقرحة وبثور متقيحة وبقع من الحصف في جلود سمراء . وجروح واعضاء تناسلية متورمة لاولاد تمت عملية ختانهم حديثاً .

وقضى ثيزيجر ثلاث ساعات دأب فيها على العمل بلا هوادة ولا ملل وسط هذا اللغط والضجيج . وكانت حقنته تدخل وتخرج بانتظام من تلك الاجساد السمر . وفرش بالاضافة الى ذلك سيولاً من المرهم على اميال من الضمادات . وكان يخيط كأبرع خياط عضات كلب وجروح خنزير . ومئات من الاقراص كان يعدها ليوزعها على تلك الايدي اليابسة الممتدة اليه بينما حجب المرضى المنتظرين واقاربهم الضوء عنه حتى لم يبقى موطىء لقدم .

واخيراً جاء الختانون وكثيرا ما كان ثيزيجر يستدعي خلال السنة الاولى التي قضاها بين اولئك الناس ليعالج ضررا كبيراً سببه الختانون المتجولون . الذين يقومون بالعملية مقابل خمسة دراهم لا غير فيحدثوا تشويهاً مؤلماً طويل الامد تدوم عقابيله من تسمم ثم شفاء بطيء عدة اشهر ، وقد حيّر ثيزيجر في البداية تسمم الجروح ومضاعفاته لان مناعة سكان الاهوار ضد الامراض قليلة بطبيعتها . وبعد فترة اكتشف سبباً خطيراً لا يمكن تصديقه . فإن اولئك الرجال المتجولون . لكي يعطوا للخمسة دراهم حقها ، اعتادوا على تغليف الجروح بسحوق عجيب يتكون من غلفة يابسة مطحونة لاولاد اجريت لهم العملية سابقاً . وقد سببت محاولات ثيزيجر اليائسة في توضيح القواعد الاولية لمنع التسمم . نقمة من يعيشون

على توريد هذا المسحوق . ولكن المعدان مع ذلك كانت تأخذهم الرغبة في ان يجري ثيزيجر لهم العملية بنفسه . وتكللت محاولاته الاولى بالنجاح فلا ألم . ولا نتائج سيئة للعمليات التي يقوم هو باجرائها . حتى ان منافسيه وجدوا انفسهم مجبرين ان يطيّروا اشاعة مفادها ان عمليات ثيزيجر تفقدهم قواهم الجنسية . ولما كان ثيزيجر قد اعتاد على التنقل باستمرار فإنهم لم يدركوا كم هي واهية اشاعتهم تلك . لانهم لم يعرفوا عدد البالغين والشباب الذين اجرى ثيزيجر لهم العملية بنفسه. وفي العام التالي أنجب عدد كبير ممن تزوجوا منهم أبناء اصحاء . ووجد الختانون المتجولون انهم لا اعتبار لهم . كما انهم كذابون بالاضافة الى كونهم جزاوون . واقتلع ثيزيجر كل آثار للخوف من تلك العملية . واصبح الآن عدد قليل منهم يرضى ان تجرى له العملية من قبل شخص غير ثيزيجر . وفي بعض الاحيان كان عدد من المرضى من القرى المجاورة يتبعنا عدة ايام حتى يصلوا القرية التي نحل فيهـــا ، اي قرية ، لكي يعالجوا انفسهم .

وعملية الختان التي تجري في سن تتراوح فيما بين العاشرة والتاسعة عشر انما هي مناسبة خاصة للفرح على اختلافها في المراسيم والاحتفالات التي تقوم بهـــا بعض الشعوب . فقبل اجراء العملية يجتمع واحد أو اثنين من الاولاد . وقد يرتفع هذا العدد الى الخمسين . على الارض في صفوف والختان يطوف بينهم كطبيب يتجول بين مرضاه في ردهة مستشفى . وتتجمهر كل القرية تقريباً للمشاهدة ، ويكوّن النساء والبنات من مختلف الاعمار قسما كبيراً منهم . وغالباً ما تجلس ام الولد او اخته الى جانبه تشجعه قبل اجراء العملية وتطرد عنه الذباب بعدها . ونادراً ما يظهر الاولاد ارتباكاً في حضور النساء او يسألون ان تجري لهم العملية في وحدة مختلسة لان رجال الاهوار اعتادوا ان يظهروا شبه عراة امام النساء دون ان يخالطهم الخجل . ويظهر الناس هناك عاطفة قليلة واستهجاناً كبيراً لمن يخاف او يصرخ من الاولاد اثناء اجراء عملية الختان . وسمعت احدهم يجيب عندما سئل كيف شعر اثناء عملية ثيزيجر له . قائلا : احسست كأن برغوثاً لدغني . ومـــا تنتهي العملية حتى تنفجر الام بزغردة غريبة من الفرح . وفي بعض الاحيان يطلق

الاب اطلاقة او اطلاقتين من بندقيته . وغالباً ما يقيم كل واحد منهم حفلة صغيرة لمن ختنوا معه وقيل ان رابطة قوية تقوم بين مثل هؤلاء الاولاد .

ويضطجع الاولاد لساعة واحدة بعد اجراء عملية الختان كوقاية لهم من نزيف الدم . يذهبون بعدها الى بيوتهم . ومنذ ذلك الوقت حتى يلتئم الجرح تراهم يعلقون رأسين او ثلاثة رؤوس من البصل بخيط حول رقابهم . لانهم يجزمون ان الجرح يصيبه التعفن اذا ما شم الولد رائحة الطبخ او الخبز او اي نوع من العطور . فاذا اقترب الولد من هذه الروائح سد منخريه بنهايات البصل الصغيرة حتى يمر الخطر . والطريف في الامر انهم يعتبرونها مجازفة ان تشم الروائح العطرية الزكية في حين يعتبرون انه لا خوف من شم الروائح الكريهة . وجرت العادة على اجراء عملية الختان في الصيف لان من يقومون بها أشاعوا ان اجراءها في الشتاء يثير الجرح ويسبب له مضاعفات كثيرة .

* * *

واخذت الرياح تهب بلا هوادة بعد العصر وأصبح واضحاً الآن انه يتعين علينا قضاء ليلة اخرى في – الرملة – فكشيء حتمي ظهر ثيزيجر مهموماً لانه سيقضي ليلتين تحت سقف واحد . ولان واجبات الضيافة في نظر سكان الاهوار تتطلب ذبح افراخ الدجاج للضيوف مما يؤدي الى خسارة رب البيت الشيء غير القليل من ماله .

وكم وددت لو أتجول فوق امتدادات اليابسة المحيطة بالقرية إلاّ ان الكلاب كانت تحول دون ذلك في هذه القرية وفي كل قرية اخرى زرناها فيما بعد . وكل دار في الاهوار يحرسها كلب واحد على الاقل . واحياناً اكثر من اربعة أو خمسة كلاب كبيرة متوحشة لانها روضت ان تكون كذلك أولاً ، ثم لكونها تعتبر في نظر المسلمين حيوانات نجسة فقد حرمت من الحنو الذي تجده خارج العالم الاسلامي. وتصرفها تجاه الاشخاص من غير افراد العائلة التي تعيش عندها يتميز بالشراسة والقسوة وحدّة الطبع . ويمكنك ان تلاحظ ببساطة عواءها المتواصل ليلاً ونهاراً . وقد رأيت ان عدداً كبيراً منها بحّ صوته فأصبح لا يطلق غير عواء خافت مبحوح.

وبسبب عراكها مع بعضها اصبحنا نلاحظ الكلاب الكبيرة العمر منهـا مشوهة الجسم الى درجة اليأس في شفائها . وآذانها . ان كانت ما تزال لها آذان . مشرشبة كسعف النخيل وذيولها مقطوعة الى النصف . وانوفها في بعض الاحيان ملتوية في زوايا تشوه وجهها او انهـا معلقة في عصب لم ينقطع تماماً بعد . وعلى اكتافها وجوانبها تتقاطع آثار اسنان حادّة . والنوع الغالب من هذه الكلاب يتأرجح بين النوع الالزاسي *Alsacian* والنوع الهسكي *Husky* الذي يتميز بالشعر الكثيف الفاتح اللون والذيل المرتفع الى اعلى كثيراً او قليلاً . والنوع الشائع هو الكلاب الترابية اللون التي تدل ملامحها على انهـا انحدرت في الاصل من الكلاب الهندية الحمراء المتوحشة . وقد تكون مرقطة او مخططة الجلد وغالباً ما يكون ذلك باللون الابيض . ومهما يكن اصلها فإنها وصلت الآن اقصى تطور يمكن ان يصله صنفها . ولا يمكنك ان تجد بينها كلاباً صغيرة او غير متوحشة لسبب بسيط هو انه في حالة وجودها لا بد للكلاب الكبيرة من الانقضاض عليها .

وعدم طهارة الكلاب في الدين الاسلامي ـ او بالاحرى عـدم طهارتها في العرف السائد ـ لان سكان الاهوار لا يملكون من اصول ديانتهم غير القشور ـ لا يمنعها ان تكون في حالة من الالفة والموده مع العـائلة التي تخدمها وعلى الاخص الصغار منهم . اما الكبار فلايشجعون اظهار المحبة نحو الكلاب . ورغم هذا فقد رأيت كثيراً اطفالاً ينامون ويحتضنون كلابهم الجبلية . ويلاعب الصبية الكبـار منهم الكلاب تماماً كما يفعل الاوربيون . وحتى في ذلك المجتمع اللاعاطفي نلاحظ تجاوباً من الحماية كبير بين الكلاب وبين البشر . ويمكن ان يورث قتل الكلب عندهم ضغينة واحقاداً . تماماً كما يورثها قتل الانسان .

وتحدد هذه الكلاب في القرية حركات الغريب ويصبح من المستحيل عليه ان يخرج لقضاء الحاجة الطبيعية من دون شخص يقف الى جانبه . وفي الواقـع ان ما يثير الاستغراب حقاً كيف ينجح رجال الاهوار بوجه ما في سرقـة بعضهم البعض على الرغم من وجود هذه الكلاب الضارية .

* * *

وعندما حل المساء كانت الرياح ما تزال تعصف بيد ان قوتها لا بـــد هدأت قليلاً ، لان جماعة من الصيادين المتعبين وصلوا القرية بعد قضائهم ثلاثة ايام من الجوع في احدى الجزر . وقد كانوا قبل وصولهم يصيدون السمك بإلقاء كتل مسمومة من الطعام في الماء. وهذه هي الطريقة الوحيدةالتي يسمح المعدان لانفسهم القيام بها في صيد السمك . في حين يحرم الصيد بالشباك لسبب مجهول . وهم ينظرون الى (البربرة) الذين يستخدمون هذه الطريقة في الصيـــد نظرة سخرية وازدراء . ولذلك حدد المعدان صيدهم بأساليب مضحكة باليه كالصيد (بالـــفاله) أو نشر الماء بطعام سام يأكـــله السمك فيطفو على سطح الماء . واذا حدث ان التقطت القوارب العابرة هذا السمك فسرعان ما يكون ذلك سبباً لمشادة بين الجماعتين .

وهبط الظلام على الاهوار بكآبة ووحشة . فلم يكن لطيف الغروب العسجدي ولا لاي لون اخر من أثر . وانما فقط تلاش الضوء من السماء الرمادية المزمجرة حتى تراءت اشباح النخيل معتمة غير واضحة يغرقها ظلام سماء احتجبت نجومها الوضاءة. وأخذ البيت يمتلىء بالضيوف كما هو الحال في الليلة السابقة . وعندما تناولنا الطعام وأصبحنا مرة ثانية جزءاً من حشد مزدحم حول النـــار التفت مضيفنا الى شاب يجلس بقربه وسأله ان يغني .

ـ ما اكدر ! .. ما اكدر !! .

أجاب الشاب بحياء متكلف لا معنى له ولكني وجدته شيئاً اعتيادياً عندهم . وبعد لحظات من التردد ابتدأ يبعث الالحان . وراح يغـــني بهدوء يصاحبه ثلاثة اشخاص بمزاميرهم . وكان من الصعب على الغريب ان تميز اذناه لحناً معيناً . وكان الطابع البدائي يغلب على الغناء حيث ينطلق الصوت من الانف ، وترتفع نغمته بين حين وآخر بما لا ينسجم واللحن . وقد وجدت في البداية ان من الصعب عليّ تقبل ذلك اللحن الغريب ولكن ما تتابعت الاغاني حتى رأيتني أذوب فيها وأحترق . ومشاعري تتلاعب بها تلك الالحان الحادة . ومعظم سكان الاهوار لا يستطيعون الغناء الا ان ذلك لا يمنعهم من المحاولة . فحسن مثلاً يقضي يومه منطلقاً بغناء عذب غير مفتعل يصدره من انفه ليضرب على طبلة الاذن بما يشبه صوت التلفون قبل

ادارة القرص . ويداه تعملان في الجذاف يتود به زورقنا على مسافة باردة عني .
والمغني ذو الصوت الصافي العذب تنهال عليه الطلبات في مختلف المناسبات . فاذا
حدث وفشل في ادائه فنصيبه ليس أقل من الكارثة . وعلى اية حال ففي كل قرية
تقريباً يوجد عدد من الشبان ممن لهم موهبة الصوت الجميل المؤثر . موهبة هذبها
المران الطويل منذ الصغر . ويستدعى هؤلاء للغناء كلما حلّ في القرية ضيف أو
حدثت مناسبة سعيدة .

وعندما انتهى الغناء استدعى مضيفنا شاباً زنجياً مرح الطبع لطيف الملامح
وطلب منه ان يرقص :

ــ ما اكدر !.. ما اكدر !!

أجاب العبد معارضاً . الا انه نهض بعد لحظات . فتراجع الحشد عن النار الى
الوراء قليلاً تاركاً له مربعاً طول ضلعه حوالي الخمسة أقدام .

وادركت منذ اللحظات الاولى انه على الرغم من كون اغانيهم تعتمد على
مدى استجابة السامع للمغني كاستجابة الوسيط للمنوم المغناطيسي فإن اداء الرقص
كان كاملاً من النواحي الفنية ، والايقاع متقطعاً ومع ذلك فكل حركة يؤديها
الراقص تتفق مع اللحن ببراعة عجيبة . وكانت الرقصة تعبر عن قصة . كما هو
الحال في انواع عديدة اخرى من الرقص . ويكون الغناء عادة متمم له والكل
يسير على ايقاع واحد تم تم . تم تم . وذاب المتفرجون في نشوة مع الايقاع
فأخذوا يوقعون على الارض بكعوب اقدامهم اليمنى الممدودة وايديهم متشابكة
بطريقة خاصة يقومون فيها بطقطقه اصابعهم كما لو كانوا يصفقون . وحتى
الاطفال يستطيعون ذلك . وحتى اني رأيت طفلاً عمره ست سنوات يقوم بها
فيصدر من بين اصابعه الصغيرة الناعمة صوتاً يشبه صوت مسدس صغير .

ولم استطع ان افهم الكلمات التي ينشدها الراقص . ولكني ادركت معانيها
في حركاته .. انها قصة عامل غرر به سيده . كان صوت العبد ناعماً واهياً يصطبغ
بمعارضة واحتجاج . اما الحنين والشجن الذي ينساب من رعشات انغامه فلا بد انه
يحكي قصة الظلم الذي عاناه اجداده العبيد على مر العصور والاجيال . وعندما

اقتربت الرقصة من نهايتها اخذ الراقص يقفز مع ايقـــاع الطبل . حول الساحة يفتش عن اجرة العامل الذي افترض ان سيده خدعه فلم يعطها له . ويرفع خلال دورانه زوايا (بواري) القصب . ويمعن النظر في ادوات القهوه وجمر الموقد يلمع في عينية وهو ينشد بحنان والم : اريد اجرتي ! .. اريد اجرتي !!

وكانت الرقصة الثانية تعبر عن الشهوة والرغبة الجنسية كمعظم الرقصات التي شاهدتها خلال الرحلة . ومثل هذه الرقصات وصفت في المجلات الغربيـــة ذات الاختصاص بهذا النوع من الدراسات على انها« شهوانية في غير ما ابتذال »والتعبير في هذه الرقصة واضح الا ان الكلمات التي تصاحبها تحتاج الى تعريف قبل ان يدرك المرء بيت القصيد فيها . ومعظم الحركات في هذه الرقصات جنسية تمامـــاً وتختتم بما يدل على وصول العملية الجنسية ذروتها . ولكل راقص هنـاك مدربه الخاص . وهو يتعلم منذ الطفولة كيفية اداء خطوات راقصة بسيطة ويتمرن على كيفية القيـــام بحركات جسمية خاصة ثم يطور ذلك ويحسنه ويضيف اليــه من عندياته .

ويلوح ان اضطرار مئات الاجيـــال من المعدان على الرقص في مسافات ضيقة حول موقد النار في داخل الكوخ مثلاً ، وضرورة اداء اوسع حركـة في اصغر فسحة ، كل ذلك سبب براعتهم في تحريك اجسامهم والتـــلاعب بعضلاتها كيفما شاؤوا ، على العكس من اقدامهم التي لم تتهيأ لها المساحة الـكافيـــة لتلعب دورها الـكامل . لذلك يمكنك ان تلاحظ جيداً بأن راقصاً معروفاً هناك حتى وان كان طفلاً صغيراً ، يمكنــه ان يحرك من جسمه اجزاء وعضلات لا يمكن للاوزلي ان يتصور نفسه يوماً ليستطيع اداءها . وثمة حركة مدهشة لا بد ان يقوم بها كـــل راقص في الاهوار ، وهي تحريك كتف واحد او تحريك الكتفين معاً وترجيفهما بخفة وسرعة وبراعة .

وكانت رقصة العبد الثانية في تلك الليلة تـــدور حول موضوع مألوف لدى سكان الاهوار ، وهو طريقة اداء الصلاة عند المسلمين ، حيث الجبهة تلامس الارض والعجز الى اعلى . كان ذلك العبد فناناً في ادائه ، ولا يمكن للمرء ان يؤاخذه او

ينتقده في شيء من تعابير رقصه .

وبالاضافة الى الراقصين الهواة الذين يمكنك ان تجد منهم عدداً كبيراً في كل قرية ، فإنه يوجد هناك عـــدد آخر غيرهم ، ولكن من راقصين محترفين يفترض فيهم الغناء وضرب الطبلة (واشياء اخرى !) . وهم ينقلون بين القرى و كلهم بالطبع من الرجال لعدم امكانيــة المرأة ان تظهر بمثل تلك الاوضاع المغرية امام الناس والاولاد من الراقصين ذوي شعور طويلة ، وتحريك خصلات شعرهم الاسود هذا بإيقاع منتظم هوالطابع المميز لرقصاتهم . ولم يتيسر لي مشاهــدة ذلك من قبل لأن الولد الراقص المحترف الوحيد الذي رأيته ، فيما عــدا الراقصين في شوارع البصرة ، كان قد قص شعره قبل يومين استعداداً لدخوله المدرسة.

ويلاقي ابناء القرويين تشجيعاً من آبائهم على الرقص منــذ الطفولة . ولا يسبب الرقص مهما كانت نوعيته تجريد الشخص من رجولته . والراقص الماهر سواء كان طفلا او شاباً يكون بصورة عامة ماهراً في كــل شيء ويجب ان يتمتع بقوة عضلات كبيرة لان وصلات الرقص تكون طويلة عنيفة ومتعبة ، والمشاهدون يلحون على اعادة الرقصة مرة بعد اخرى وهم لا يصبرون على مشاهــدة راقص غيرماهر أمامهم ومع ذلك فقد رأيت مرة حوالي ستين او سبعين منهم يتحرقون على جمر الصبر لنصف ساعة امام طفل لايزيد عمره على خمس سنوات وهو يتعثر في رقصه بحركات مشوشة غير منتظمة .

* * *

وانتهى الرقص والغناء بعد منتصف الليل بفترة غير قصيرة ، وأخيراً تهيأنا للنوم والعاصفة ما تزال تعوي في الخارج وهي تضرب وتلعب بقصب الكوخ رافعــة (البواري) المفروشة على الارض من اماكنها في حركات كأمواج البحر . وكنت وثيزيجر نتلهف بفارغ الصبر لمغادرة – الرمــلة – ... ثيزيجر يتلهف بسبب العبء الذي القاه على عاتق مضيفنا ويعود ذلك الى متطلبات الضيافة عنـــدهم .. وانا اتلهف لاني اشعر بأن الاهوار ما زالت بعيدة امامنا ، واننا ما زلنــا في اول الطريق .

الفصل الرابع

تلاشت السحب في الصباح بيد ان الرياح استمرت تهب بشدة . ولم يكن ثيزيجر مرتاحاً لمغادرتنا في مثل هذا الجو العاصف ، ومع ذلك فقد قال : « علينا مغادرة هذه القرية ، وهذا كل ما في الامر فقد ذبح الرجل نصف دجاجاته وربما استمر الجو عاصفاً هكذا لعدة ايام . والمشكلة الآن هي انـه يتعين علينا عبور بحيرة ــ زجري ــ . التي تمتد اثني عشر ميلاً قبل ان نصل المكان الذي نقصـده ، وكثيراً ما يغرق الناس في تلك البحيرة في حين يخافها الاطفال وينفرون منها . وما أظن طرادتنا يمكنها الصمود بوجه الامواج وهي بمثل تلك الحمولة الثقيلة .

وغادرنا قرية ــ الرملة ــ وكان آخر شيء يتراءى لنا منها هو سعف النخيل تتلاعب به الرياح كما تتلاعب بجلابيب الرجال الذين وقفوا على الشاطىء يلقون علينا تحية الوداع . ورافقنا مضيفنا ، الذي قضينا عنده الليلتين السابقتين ، كمرشد لنا في زورق صيد صغير وظهر كما لو ان اقل ريح تستطيع ان تقلب زورقـه رأساً على عقب .

وأخذت معابر الاهوار الكبيرة تتضاءل وتختفي حتى وجدنا انفسنا وسـط ممرات متشابكـة في غابة من قصب وحلفاء جافة تعصف بها الرياح . وتوضحت القنوات مرة اخرى ، واخـذت تكبر تدريجياً حتى اصبحنا نسير خلال بحيرات صافية زرقاء يزخرف جانبها قصب كثيف عمـلاق يرتفع الى علو عشرين قدماً تنعكس عليه اشعة الشمس الساطعة فيظهر بحلة ذهبية أخاذة لتسجد عند اقدامـه

نباتات صغيرة خضراء . وكان هناك عدد من الجزر المتناثرة نستطيع ان نأوي اليها خلال رحلتنا عبر البحيرة الواسعة . وغابات قصب هناك كثيفة متماسكة لم تستطيع العاصفة ان تنال منها اكثر من ان تحني رؤسها العالية فقط . اما الجزر العديدة هناك فتحركة غير مستقرة في مكان واحد ، وتنساب فوق الماء كما تنساب فوق قطع الجليد في البحار القطبية . ويمكن للمرء ان يلمح من خلالها المياه المكشوفة للبحيرة نفسها ، زرقاء تحت اشعة الشمس وتمتد بعيداً غابات القصب وكأنها شواطيء رملية صفراء . ولم تتوضح ثمة حدود معينة للبحيرة بيد ان الجزر اخذت تتضاءل لتكشف صفحة البحيرة عن نفسها حتى اختفت جميع الجزر العائمة (١)

ويحوم فوق الماء ، حيثما وليت وجهك ، الكثير من الطيور الجميلة كدجاج الماء *coots* والبط الغواص *duck diving* . وفجأة قال ڤيزيجر : « اننا لم نقرر بعد اين سنقضي ليلتنا ، واظن الافضل لنا اصطياد بعض الطيور لنأمن غائل

---

(١) هناك أربعة أصناف من المساكن في مناطق الاهوار يذكرها الدكتور شاكر مصطفى سليم في كتابه ـ الجبايش ـ ، والمؤلف هنا يمر بين حين واخر بأحد هذه الاصناف دون ان يعطي لها اسمها لمحلي . ودون ان يحددها وفق هذا التصنيف : (١ ـ (اكسلف) : ويمكن ان نطلق عليه اسم قرية وهو كثير الوجود والمناطق المزدحمة بالسكان ويتكون من بيوت يتراوح عددها بين مائه وثلاثمائة كوخ حسب كثافة السكان والموقع. ٢ ـ (الايشان) : وهي جزيرة في الاهوار العميق الدائمة يقطنها عادة اما جماعو القصب أو رعاة الجاموس . وفي كل من أهوار الحمار والكساء والحويز العميق الدائمة يوجد عدد من هذه (الاشن) التي يعتقد انها مدن اثرية قديمه يتكون (الايشان) عادة من عدد من الاكواخ المبنية بشكل بسيط جداً القصب أو البردي ، ويتراوح عددها بين الثلاثين والاربعين فوق (الأشن) الصغيره ولكنه قد يصل الخمسمائة كوخ في (الأشن) الكبيرة . ٣ ـ (الدبون) : في موسم الفيضان يصنع رعاة الجاموس مصاطب عائمة Floating Platforms أو Rafts من القصب والبردي والتراب وفضلات الجاموس يتسع الواحد منها لكوخ او لعدد من الجاموس ويمكن دفعها ونقلها في الماء من مكان لآخر واستعمالها كمسكن موقت ، كما يمكن جمع عدد من المصاطب العائمة فتكون في بعض الاحيان قرية صغيرة ٤ ـ (جبايش) ومفردها (جباشة) وهي مأخوذة من الاصل الغربي كبس : تستحدث بعض الجزر او يرفع سطح الوطئة منها خاصة في المناطق المورية التي يكثر فيها القصب بفرش طبقات من القصب البردي والتراب في موسم الفيضان لضمان عدم غمر الماء للجزيرة ولا مكان استمر استعمالها كمسكن في ذلك الموسم) .

المترجم

الجوع . والصيد هنا يختلف في اسلوبه وغايته عن اية فكرة عرفتها عنه سابقاً ، فليس هو بالعمل الرياضي او ان الغرض منه التسلية المجردة ، ونحن نتوقع ان نصيد بمعدل مائتين بالمائة على الأقل ، وغالباً ما نحصل على ذلك بالفعل » . وتراءى لي ان قول ثيزيجر هذا غير صحيح ، وان لم اقرر ذلك بعد بصورة اكيدة . واستطرد ثيزيجر قائلاً : « ويمكن ان تجد امامك صفاً من دجاج الماء لتطلق عليه النار ، وكان الله في عونك اذ اخطأت لاننا نبحث عن طعام نسد به حاجات اجسامنا في حين لا يمكننا ان نحمل معنا كمية كافية من الرصاص للرياضة فحسب . وباضافة الى ذلك فإن سمعتك بين المعدان تتوقف على ما تصيده او لا تصيدة والكل عيون تراقبك » .

وشجعني ثيزيجر كثيراً على الصيد متربعاً في داخل طرادة تتمايل مع الامواج في حين وجدت ان من الصعب تحقيق ذلك عملياً . ولكني اصبحت امام الامر الواقع عندما ناولني اطلاقتين اعقبها بهذه الكلمات : « ان هذا هو كل ما تستطيع الحصول عليه » .

واتجه الملاحون بالزورق الى اقرب سرب من دجاج الماء ، وتراءى لي انهم برهنوا على غباء وعدم فهم عندما اتجهوا الى الطيور بعكس اتجاه الرياح التي ظننتها ليست من القوة بحيث يمكنها دفع الطيور من مكامنها الى اتجاهنا . ولاح لي وكأنه غاب عن اذهانهم انهم اذا اتجهوا بالطرادة الى الهدف مباشرة فسيكون بيني وبين ذلك الهدف ثلاثة رجال ومقدمة الطرادة العالية . لذلك باءت محاولتهم الاولى في دفعي الى اطلاق النار بالفشل ، حيث احتفظت انا بالاطلاقتين دون ان اجرؤ على اطلاقها .

واتجهت الطرادة اخيراً الى سرب من دجاج الماء يطفو على سطح الماء عند شاطىء جزيرة صغيرة . وعندما صرنا على بعد ثمانين ياردة منه اخذ يتطاير وينثر الجو برذاذ الماء العالق بريشه ، وكان عليه ان يأخذ اتجاه الريح ليرتفع في الجو ، فوجدتها فرصة مناسبة ، فما اصبح على علو مناسب حتى صار احسن هدف لي وأطلقت عليه اطلاقتي الاولى ، فهرب كله . وما كان اشد دهشتي حين ادركت

اني اسقطت اثنتين منه . وابعدت الرياح البقيـة عني وانحرف الزورق هو الآخر تحت ضغط العاصفة . وادركت انه لـكي يتمكن الشخص على الالتفـات وهو يقبع متربعاً في قعر الطرادة عليه ان يدير نصفه الاعلى كما تدير الدبابـة برجها . وفجأة رأيت ثلاثاً منه لم يأخذها الخوف الا بعد اطلاقتي الاولى فابتدأت الآن تتطاير من على سطح الماء . وفي الجو صارت كتلة سوداء عاجلتها باطلاقتي الثانية فسقطت كلها مرة واحدة وكأنها طير واحد .

وقد ظهر واضحاً الآن ان اي ادعاء بين ملاحي ثيزيجر يقول بامـكان الصيد مائتين بالمائة انما هو ادعاء فاشـل وقـد اظهروا لي دهشتهم واعجابهم لمهارتي في الصيد . وراح ثيزيجر ينظر لي نظرات كشاف الى اكبر واغبى تلامذته الذي افلح بالصدفـة في شد عقدة حبل بنجاح كبير وقال : « انه لشيء مؤسف انك لن تغادرنا الآن ، وستنكشف مهارتك الحقيقيـة في الصيد قريباً ولا يمكن لشهرة تعتمد على الصدفة أن تعمر طويلاً .

ولكي نجمع الطيور التي نصطادها وتسقط بعيـدة عنا علينا ان نغادر ملجأنا الذي نختبيء به في الجزر العائمة ونتوغل الى الداخـل في مياه الاهوار المائجة . وكانت الطرادة محملة لدرجة انه ليس بين حافتها والماء غير اربعة انشات . ودجاج الماء يسبح ويفر قبل ان نجمعه . وكان أحده جريحاً وقد سبب لنا ارهاقاً كبيراً في تتبعه قبل ان نمسكه . وترك ملاحونا الطرادة تنحدر داخل الهور بينما انشغلوا بذبح الطير في اتجاه مكة حتى وجدنا انفسنا وقد ابتعدنا عن ملجأنا بمسافة تزيد عن اقرب جزيرة الينا . ولم تكن هذه تبعد اكثر من اربعمائة ياردة ولكـن الرياح اخذت تهب بقوة بين الجزر العائمـة حتى اختفت عن ناظرى ميـاه البحيرة نفسها ، في حين كانت كل ياردة نتقدم فيها تكلفنا مشقة وجهـداً كبيرين . واستقل حسن زورق المرشد الصغير وراح يغالب الامواج العـاتية الى اليمين حتى توارى الزورق عن اعيننا ، ولم استطـع ان المح بين الامواج الزرقاء والخضراء غير جذع حسن وهو يجذف كالمجنون . وعلى اية حال فإنه في وضع افضل منا بكثير فزورقه صغير وغير محمل بالامتعة ، بينما كنا نحن سبعة رجال مع متاعنا

الثقيل . وطرادتنا كانت تغرف بين حين وآخر شيئاً من الامواج التي تضرب عليها من كل جانب . وعلى الرغم من ان كمية الميـــاه التي تجمعت في داخلها لم تكن كبيرة الا انها اصبحت تشكل خطراً كبيراً . وسألت ثيزيجر : « هل تطفو هذه القوارب عندما تنقلب ؟ » .

– كلا ، انها تغوص كالصخر .. ارجو ان تكون يا صاحبي قـــد استمتعت بمرأى الاهوار ! .

وتراءى لي اني ضمنت لحد الان سمعتي بين المعدان في صيد دجاج الماء ولن تنكشف حقيقتي بعد الآن فإننا على وشك الرحيل الى العالم الآخر هذا اليوم بين الامواج العاتية والرياح الحاقدة . وانا ، لا استطيع السباحة مطلقاً رغم انني قضيت شطراً كبيراً من حياتي في المياه ، ومهما يكن من امر فحتى المـاهرين من بيننا في السباحة لا يمكنهم قطع كل تلك المسافة من الميـاه ليصلوا الى شاطىء السلامة . ورغم انني كنت امتلك سترة واقية من الغرق الا انها كانت مطمورة بين الامتعة وليس هذا بالوقت المناسب للتفكير بها . ولاح لي وكأن هذا خير مـــكان مناسب للغرق فيه كأي مكان غيره . ولمحت أمامي وجهة عمارة والخوف يتجسم على وجهه في تلك اللحظة بكل جلاء ووضوح .

وظهر لنا الآن وكأن الطرادة لا يمكنها ان تتقـــدم خمسين ياردة اخرى . واخذنا نجذف باتجاه الجزيرة والطرادة تتمايل وتترنح ومقدمتها العالية تمزق القصب المتكاثف ، والنباتات المائية الصغيرة من تحتها تحد من سيرها . وفي لحظة كان الماء .. ماء الشاطىء البارد يبرق من حولنا ، وفي اللحظة الثانية كنـــا نفترش طرادتنا في أرض تكتض بنباتات شوكية ، وفوق رؤوسنا تلتقي اطراف القصب العمـلاق .

ولم يستطع حسن ان يصل جزيرتنا في قارب الصيد الذي يمتطيه . وفرغنا طرادتنا تفريغاً تاماً كما لو ان مصيرنا تحدد في هذه البقعة من الارض ، لأننا ، كما أشار ثيزيجر سنبقى هنا لعدة ، ايام وفوق ذلك كله لم نتمكن طرادتنا من انقاذ حسن من محنته الا بعد تفريغها تماماً من الامتعة ومن المياه التي غرقتها خلال سيرها .

وجزيرتنا هذه لايزيد عرضها عن خمس عشرة خطوة إلا انها تتكون من غابة قصب عملاق ومن أحراش صغيرة . وتقدمت الطرادة بكسل واعياء خلال البحيرة الزرقاء ، وتباطأ سيرها بسبب النباتات المائية والحشائش المتكاثفة من تحتها . وطهرنا أعلى منطقة في الجزيرة ، واتخذنا من صناديق الامتعة والادوية ملجأ ضد الرياح العاصفة وانطلق عماره وسبيلتي لينقذا حسن من ورطته ، بينا انهمك كذيه ومضيفنا الذي رافقنا منذ مفارقتنا قرية الرملة ، يعدان لنا الطعام .

كان الطبخ بسيطاً ساذجاً الى حد بعيد ، فقد غرزت اجسام الطيور الذبيحة المسلوخة الجلد في سيقان قصب مقطوع وثبتت هذه الاعواد على حافة النار . وكان مضيفنا الذي اصطحبنا كمرشد لنا قد احضر معه سمكة كبيرة وكمية من الطحين . وقد صنع من الطحين اقراصاً خشنه من عجين صلب حشره حول اللهب ، واما السمكة فقد دفنها في رماد نار القصب الملتهبة ، وبالتالي تهيأ لنا افخر وألذ وجبة طعام ، كما يقولون . وفي الحقيقه ان معظم المتحضرين سيفضلون البقاء جياعاً ، بعد تناول اللقمة الاولى على ان يأكلوا مثل هذا الطعام معجوناً بالرماد . وانا ، الذي اعتاد ان يأكل قليلاً ويكسره من الاطعمة قليلاً ، وجدته رديء الطعم ولكني كنت جائعاً الى درجة دفعتني ان التهم السمك مع كتل الرماد العالقة به .

وهدأت الرياح قليلاً بعد الظهر ولكن ليس للدرجة التي تسمح لطرادة محملة على السير ، في حين كانت قوتها تسمح لقارب الصيد ان يجاهد خلال البحيرات . ونحن الآن بلا طعام ومن المحتمل ان يلفنا الليل الذي يزحف نحو الجزيرة ، ولذلك فقد انطلقت مع حسن نفتش عن مزيد من الطيور نصيده . ولم يظهر ان قارباً في المحيط اصبح في خطر كما لاح قارب الصيد الذي كنا نصارع به الامواج الهائجة في تلك اللحظات . فقد كانت الامواج الزرقاء تضرب في اندفاعها على حافة القارب وهو يتمايل عند كل ضربة من ضربات الجذاف على سطح الماء . وانتشر البط ودجاج الماء في كل مكان ولكنه كان وحشياً كالرياح نفسها ، يطير بعيداً وينقض كأوراق الخريف المتساقطة فوق الماء المضطرب والقصب العملاق الذي لاح ذهبياً براقاً تداعبه آخر شعاعات الشمس المنحدرة نحو المغيب . واخيراً تراءت في الافق

بطة تندفع مع الريح بلونيها الاسود والابيض وهي غارقة في اشعة الشمس الباردة الغاربة . وتراءى لي ان هذا خير هدف لن تعاني فيه سمعتي كبير جهد . وفوق ذلك كله كانت قد مرت من امامي ، لذا لم تكن لي حاجة الى اداء حركة جمنا ستيكية في الالتفات وانا اجلس متربعاً في داخل القارب الصغير . ولم اتوقع اني سأصيبها ، غير انها سقطت . وفي الحقيقة ان حسن لم يتوقع مني ذلك ، والدهشة التي ارتسمت على ملامحه ملأتني ارتياحاً وقناعة بنفسي .

ولما تراءى لنا انه لم يبق عدد آخر من الطيور في المنطقة قررنا ان نعود . وعندما اقتربنا من جزيرتنا التقينا بسرب من البط لم يكن له الوقت الكافي لكي يطير مع الريح في اتجاهنا . واقتربنا منه وصرنا على بعد ثلاثين أو اربعين ياردة عنه قبل ان يطير مرة واحدة . وما أطلقت اطلاقتي الاولى حتى هبط الزورق في الماء فخطفت الاطلاقة على مسافة ياردة واحدة من تحت الطيور . وعندما ارتفع الزورق مرة اخرى عبرت اطلاقتي الثانية على بعد ستة اقدام من فوق ظهورها . وراحت عينا حسن تحملقان في باستغراب ودهشة .

وعندما عدت الى الجزيرة لم الحظ أي نوع من الرضا في عيني ثيزيجر الذي كان ينتظرنا بلهفة ، وبعد لحظات قال لي : « انني ارى الافضل لنا مغادرة الجزيرة مهما كانت رداءة الجو ، وانت هل تظن هذه البطة الصغيرة تكفي لاطعام سبعة رجال ؟ . . وكنت انا قد اخبرتك عن اخطار شهرة واهية تعتمد على الصدفة ، ولتعلم جيداً انك مرغت سمعتك بالوحل بين هؤلاء الغلمان » .

ولكن الرياح كانت قد هدأت عندما غادرنا الجزيرة مساء ذلك اليوم . وسرنا بمحاذاة بحيرة — زجري — نشق طريقنا بين الجزر والبحيرات التي اخذت تصغر تدريجياً حتى اصبحنا مرة اخرى بين ممرات واسعة تضاءل على جانبها القصب والبردي طولاً وكثافة .

وعندما ابتدأت الشمس تغرب توقفت الرياح العاصفة وأصبحت مجرد نسيمات خفيفة ، وهدأت كذلك صفحة الماء فصارت مرآة تعكس سماء انحسر عنها كل لون ، حتى الشمس الغاربة انحدرت

وراء رؤوس القصب ولكن بلمعان ابيض صاف. وفي ذلك القفر من المياه والقصب لا يمكنك الا ان تشعر بالرهبة وبالغموض وكأنك في غابة يزحف فوقها الظلام المعتم. وتسلل حسيس المـــاء وسط السكون المطبق وانطلقت الضفادع بنقيقها المعهود.

وان غابت عن ذهني مناظر الاهوار التي استمتعت بها أو نسيت تلك الاصوات المختلفة المنطلقة من كل جانب في الهور فلن أنسى ابداً نقيق الضفادع الهــائل. مليون مليون من الانغام تتصاعد لتمسخ هدوء الهور المهجور الى عالم من ضجيج. وعندما كنا مرة نعبر بركة من المياه تراءى لنــا القصب من بعيد جداراً ذهبياً صلداً، واطبق الصمت .. صمت موحش كئيب لأن كل شيء يحيط بنا كان غريباً علي. ولكن عندما اصبحت الطرادة على بعد نصف ميل من ذلك القصب البعيد زحفت الينا أصوات الضفادع من بعيد كهمهمة جماعة كبيرة من الرجال. ولمــا اقتربنا وصرنا على مسافة ربع ميل منه تحولت تلك الهمهمة الى جلبة حادة وكأنها أصوات عشرات الألوف من القردة في اواسط افريقيا. وحينما دخلنا تلك المنطقة وأطبق القصب على الطرادة من كل جانب اطبق علينا معه صخب هائل من نقيق الضفادع ... مليون مليون من الاصوات حتى شعرنا وكأننا انفصلنا عن العــالم الخارجي تماماً.

وهنالك اصوات كثيرة متنوعة في داخــل الهور تختلط لتخلق ذلك الصخب المجنون، فما غرقت الشمس البيضاء وراء الأفق في ذلك المساء الاول وتنــاثرت أشعتها الواهنة ترسم اعالي القصب حتى انطلقت الاصوات منفردة قبل ان تجتمع لتبتلع الليل بظلامه. ولذلك فقد كان ممكناً ان أميز الانغــام لدقيقة أو دقيقتين وافتش عن وجه للمقارنة بينها. وكان الصوت الاول القريب مني عالياً متقطعاً لايمكن تمييزه عن صوت العقعق *Magtyge* يختلط بتنهدات القطرات الصغيره المتساقطة من المجذاف على سطح الماء. وأجابه صوت آخر خشن فظ ذو ايقــاع مزدوج كصوت منشار يعمل في الخشب. أما الصوت الثالث فكان صاخباً وكأنه صوت ذكر البط. وانطلق الصوت الرابع خشناً وكأنه صوت كلب. وعلى الرغم من

اختلاف تلك الاصوات الا انها تشابهت في انهـــا كانت مشبوبة باللذة والعاطفة والحماس . وتمازجت كلها في ضجيج مختلط تعذر معه التمييز بينها الا مـــا كان قريباً منا جداً .

ونادراً ما يمكن للمرء ان يرى الحيوانات التي تطلق تلك الاصوات، بيد انه يستطيع تحديد مكانها من حركه خاطفة في الماء ، وانا اظن معظمها ليس من الحجم الكبير . وعندما كنت اخطو مرة فوق ارض غطاها الماء نسبياً على حدود الاهوار الدائمية التقطت واحدة من الصدف الفارغ المتناثر على الحشيش الاخضر ورحت اقلبها في يدي عندما برز من الثقب الذي يخرج منه رأس السلحفاة وجه صغير يختلط لونه الرمادي بالأخضر واطلق صرخة فظة وحملق في بعينين صلفتين كعيني ضابط بحرية وانسحب الى داخل الصدفة ثانية . واخذت احدق في اثره عندما برز من الطرف الآخر رأس آخر اكبر واكثر اخضراراً من الاول واطلق صوتاً حاداً وظـــل يرمقني بحدة ايضاً للحظـــة او لحظتين بينما توارت نبضات عرق في خده باضطراب وغضب كبير . وتكللت بالفشل الذريـــع جميع محاولاتي في اقناع مستوطني تلك الصدفة على الخروج مرة ثانية . فقذفتها جانباً وسرت في طريقي ولكن ما خطوت خطوتين أو ثلاث حتى سمعت ضحكاً عالياً مجنوناً من خلفي والتفت فاصطدمت نظراتي بضفدعتين تقفزان من جانبي الصدفة الى الماء الضحل . وكانت هـــذه المرة الوحيدة التي اتفحص فيها جيداً واحداً من افراد تلك الاوركسترا الهائلة .

وتلاشى ضوء النهار عن المساء تماماً فاصطبغت بسواد الليـــل البهيم وسطعت النجوم تبدد بعض ذلك الظلام الموحش وانعكست على صفحة الماء كقطع فضية تتراقص راعشة كلما لامستها مجاذيف الطرادة . ولاحت لي الاهوار في تلك اللحظة وكأنها وجدت على نمط واحد لا مكان لبقعة من اليابسة فيها . واعالي القصب ظهرلنا اكثر عتمة من السماء ، وتراءى الطريق الذي سلكناه بين مجاري النهيرات مربكاً مظللاً وشعرت كأننا نسير على غير هدى .

وسرنا اكثر من ثلاث ساعات وسط هذا الظلام الحالك ووسط ضجيج الضفادع المطبق . ثم اخذ القصب يتضاءل ويقل طوله ، وفجأة ... لا حت الانوار امامنا .

وكانت تلك المرة الاولى التي اشهد فيها قرية من قرى الاهوار في الليل . ولم يكن سهلاً في البداية ان أقدر ماهية تلك الاضواء وهي تبرق كلهب متوهج .

ومعظم قرى الاهوار تقوم وسط المياه وعلى بعد قليل من القصب لتجنب البعوض في الصيف . وكل كوخ عبارة عن جزيرة صغيرة قائمة بذاتها . وتبنى كل واحده من هذه الجزر بوضع حزم من القصب وتكديسها بعضها فوق البعض ، ثم تملأ الفراغات فيما بينها بحشوها بمختلف الحشائش والنباتات حتى يرتفع مستواها اخيراً عن مستوى سطح الماء [1] وهذا الارتفاع عن سطح الماء ضئيل الى درجة ينعكس فيها ليلاً مثلث الضوء المنبثق من فتحة باب الكوخ على ماء البحيرة المحيط بالجزيرة من دون أن يتعثر ببقعة واضحة من اليابسة .

وعندما اقتربنا من تلك البيوت الغريبة وابتدأنا نمر من خلالها ظهرت لنا وكأنها اسطول من زوارق مضاءة راسية في بحر هادىء. ولاحت محلات الجاموس المسوّرة بزخارف من القصب خلف الاكواخ وكأنها النهايات المقوّسة لسفن القرون الوسطى . وتراءت لنا في الظلام اشباح رؤوس الجاموس وقرونه الناتئة وكذلك مقدمات المشاحيف العالية . وعندما كنا نجذف بهدوء فوق الماء الهادىء والاكواخ تحيط بنا من كل جانب ، كنا نلمح من خلال فتحاتها ، وعلى ضوء النار الموقدة في الداخل ، الجاموس وصغاره يشارك الانسان الدفء . وهكذا كانت تلك الاكواخ أشبه بسفينة نوح منها بسفن القرون الوسطى .

وفي احد اكواخ قرية ــ الكبور ــ قضينا تلك الليلة ، ولكننا كنا قد وصلنا اليها متأخرين وغادرناها مبكرين في صباح اليوم التالي . ولم تتبلور عندي فكرة ثابتة عن مجتمع الاهوار حتى وصلنا قرية غريبة الاسم تدعى ــ ام الجريفات ــ في منتصف نهار اليوم التالي .

وكانت هذه القرية مركز ثيزيجر وربما عرف فيها اكثر من أي مكان آخر في

---

(١) يطلق المعدان كلمة (جباشه) على الواحدة من هذه الجزر ، وقد سبق ايضاح ذلك قبل قليل . المترجم

الاهوار . وكان اثنان من ملاحينا من هذه القرية وحتى اعتبر سكانها ثيزيجر وكأنه ملكهم الخاص دون سائر قرى الاهوار الاخرى . وكل كوخ فيها جزيرة قائمة بذاتها اما على (جباشة) من القصب او على ركام طيني . ويفتح باب الكوخ على الماء المحيط به مباشرة ، رغم كونه مفصولا عنه بمسافة من ارض رطبة لا يزيد طولها عن القدمين . وتحت مدخل الكوخ ، الذي لايزيد عرضه عن ثماني عشرة بوصة تظهر الارض سوداء بسبب الرماد الذي يكنس من الموقد الى الخارج وتخدع الناظر اليها بانها صلبة ولكنها في الحقيقة طينية رخوة . وبقيت انا خلال رحلتنا الطويلة لا استطيع ان اقفز من الطرادة الى الارض دون مساعدة الضيف وهو يمد لي يده من باب الكوخ .

والبيت الذي نزلنا فيه تلك الليلة يختلف قليلا عن البيت الذي حللنا به في ـ الرمله ـ وعن اي بيت آخر في منطقة الاهوار حيث لاتوجد غير فروق طفيفة بينها . وكان هذا البيت صغيراً غير منتظم تناثرت فيه اعواد وقشور القصب ، ووراء النصف الخلفي البعيد ، حيث تطبخ النسوة ، امتد رصيف الجاموس الدائري القصير الذي يتميز به كل كوخ في الاهوار .

والجاموس عماد اقتصاديات المعدان وتدور حوله معظم نشاطات وحياة العائلة اليومية هناك . ويمكننا ان نقدر من نتائج التنقيبات التى اجريت خارج الاهوار ان دخول الجاموس من الشرق الاقصى الى هذه المناطق يرجع الى ٣٥٠٠ سنةقبل الميلاد . وقد أثرت عليه الخمسة آلاف عام التي عاشها بعيداً عن منطقته الاصلية في تغيير شكله عن اجداده الذين هم من اصل هندي فأصبح اشبه بالبقر المائي الضخم الاسود منه بالجاموس .

واظنه في سيره الوئيد ابطأ من اي حيوان رأيتــه في حياتي ، ماعدا الفيلة ، وحتى حركة فكه في الاجترار بطيئة وبمعدل مرة واحدة كل ثلاث ثوان . وحين يكون في الماء ، حيث يقضي معظم حياته فيه ، يلوح رأسـه المتعب وبعض ظهره فقط خارج الماء . ويظهر متعباً صبوراً تتجسم عليه علائم المأساة بأجلى صورها . ويلوح في عيني الجاموس عتاب والم دفين وفي صوتـه يأس وحيرة . والجاموسة

عندما تدافع عن وليدها فإنها تصدر صوتاً وآهة عميقة بانفاس حارة بينما تلاحظ شعر وجهها يرتجف على الجانبين خلال ذلك .

ولا يذبح الجاموس للاكل ابداً ما لم يكن مريضاً جداً لكي لايخسر صاحبه جلده الثمين قبل فوات الاوان . وهكذا تراه يعيش حياة مملة رتيبة حتى يلوح للمرء وكأنه يخدع الموت ببقائه ، ولكنه عندما يموت ويطفو فوق الماء تنهال عليه الطيور الجارحة نهشاً وتمزيقاً وحينئذ لا بد ان يستدر منظره الرثاء والحزن .

وفي الحقيقة ان ليس لهغير القليل من العذر لشكواه فحياته كلها راحة وهدوء وأمن ، فهو يعيش في ترف ودلال ايضاً لغرض الحصول على حليبه وفضلاته . ويشرب المعدان الحليب سائلاً أو مختراً أو يستخلصون منه الزبدة بخض اللبن في جلد شاة او بقرة وليدة ، بيد ان فائدة الجاموس العظيمة تكمن في فضلاته . وفيما عدا القصب السريع الاشتعال تعتبر هذه الفضلات الوقود الرئيسي عند المعدان . وتجمع فضلات الجاموس من قبل النساء فقط ، ولأنه عمل قذر فقد اختصت به المرأة دون الرجل الذي لا يمكن ان يتصور نفسه يوماً وهو يلمس تلك الفضلات القذرة . واذا كان الغرض من جمعه استعماله كوقود فحينئذ يُشكل على هيئة اقراص دائرية تحمل طبعة اصابع اليد اليسرى للمرأة [١] .

والطريقة المتبعة في ايقاد (المطّال) هي بإسناد الواحدة الى الاخرى بشكل دائري كالقبة مع فتحة صغيرة في احد الجوانب ترمس في داخلها حزمة من القصب الملتهب حتى يصل (المطّال) درجة الاتقاد . وحينئذ يخيم الدخان الاسود الخانق على المكان ، ولا يظهر المعدان كبير اهتمام له ، ولكني كنت أجد الدموع تنهمر من عيني كلما اوقدوه ، وادركت بعد ذلك كيف اختار لي مكانا مناسبا لتجنب الدخان الكثيف متى اوقدت النار .

وفضلات الجاموس ذات فوائد لا تحصى للمعدان ، وبما انه يشبه السمنت في صلابته وجفافه بسرعة فقد تعددت استعمالاته . حيث تطلى به سقوف القصب والبواري ، ويستخدم لتكوين طبقة تسد فوهات مخازن الحبوب الدائرية المصنوعة من البواري ، وفي كثير من الأحيان ترصف تلك الأقراص كما يرصف

---

(١) كلمة (مطال) هي الاسم المحلي الذي يطلق على هذه الاقراص .

الموزائيك ، الواحدة الى جانب الاخرى، لتسقيف البيت بكامله[1] . واستعمالاته الاخرى لديهم متعددة ، ولا يمكن ان يحل محله شيء آخر . والمرء عندما يعلم بأن سعر الجاموسة الواحدة حوالي خمسة وعشرين ديناراً فلا بد انه سيردد مع نفسه : كل هذا (السرجين) بمثل هذا السعر التافه ؟[2]

والجاموس كان ولم يزل عماد حياة سكان الأهوار ، وهم لذلك يبذلون قصارى جهودهم وطاقاتهم للعناية به . وباستثناء القبائل المتنقلة التي تمتلك قطعاناً كبيرة تنتقل معها حسب الظروف ، فإن العوائل المستقرة نادراً ما تمتلك اكثر من ستة ، ولا يزيد العدد عادة على الثلاث . ويغادر الجاموس الكوخ عند الفجر ، حيث يقضي ليله في الرصيف الخاص به أو ينام عادة مع العائلة حول النار ، ويسير الى القصب البعيد بحذر وبطء وهو يوقع لخطواته في الوحل بأصواته الهادرة البائسة . ويقف على رصيفه لوقت طويل قبل نزوله الى الماء ، وتبتديء كل جاموسة تجأر للاخرى معلنة قدوم يوم رتيب جديد ، حتى يأتي الراعي فيقفز في الماء ويتبعه الجاموس بجسده الضخم وتلك امرع حركة يقوم بها فيما عـــدا حركة ذيله وهو في اليابسة يطرد الذباب عنه . وحتى عمليته الجنسية يقوم بها وكأنه لا يشعر معهـا بأية لذة واستمتاع ، أو انها عبء ثقيل لا بد له من القيام به لتخليص جسمه من الآلام الغريزية التي يحسُّها في داخله .

وينتابه التعب والاعيـــاء فيقف في الماء ويظل يـــدور بنظرات تائهة وكأنه فقـــد ذاكرته ولم يعد بامكانه معرفة طريقه اليومي الاعتيادي حيث الحشيش والبردي ، وربما تصاعدت شكواه في صوت عميق منخفض لعدة دقائق ثم يتوغل في الماء تدريجياً بحركة غير ملحوظة . وأخيراً يبدأ السباحة وحينئذ لا يتراءى منه غير الانف يرفعه فوق الماء بجهد يلوح وكأنه بقايا قوىً خائرة ، ونظراته

---

(١) في الحقيقة ان هذه الاقراص (المطال توضع على السطح فعلا وترصف كالموزائيك كما ذكر المؤلف ولكن ليس لغرض تسقيف البيت وانما فقط لكي تجف .

(٢) كلمة (السرجين) ... تعني فضلات الجاموس او البقر .

المترجم

المتدحرجة واصواته الحزينة المتعبة تعلن ان نهاية حياته قد اقتربت وانه على وشك ان يغرق .

وهنالك بين القصب والبردي يقضي الجاموس يومه بصبر وأناة وهو يتناول بكسل واعياء الحشائش التي يمكن ان تقع عليها عيناه بينما يكون كل جسمه ما عدا الرأس خارج الماء وكثيراً ما كان يفاجأ بنا أثناء رحلتنا في الطرادة فتظهر على البعد الرؤوس منه فقط فوق سطح المــاء . اما خارج الاهوار الدائمية حيث يتذبذب مستوى المياه صعوداً وهبوطاً وحيث الحشائش تنمو عادة على بعد قدم او اثنين تحت سطح الماء فإننــا نلاحظ الجاموس وهو يقف ليمدّ رأسه في الماء حتى القرون ليتناول تلك النباتات الصغيرة ، ويبدو ان هذه خدعة يجب ادراكها لأن جاموس الاهوار الحقيقية العميقة لا يتمكن من تناولهــا ان وجدت تحت سطح الماء .

ولا تعتمد هذه الحيوانات الطويلة الصبر على ما تستطيع الحصول عليه خلال اليوم من غذاء وهي عائمة في المــاء الذي يصل مستواه الى الكتف ، ففي الوقت الذي تخرج فيه عند الفجر من نصف الكوخ المخصص لها ، تخرج معها العائلة كلها بمشاحيفها من النصف الثاني تاركة الكوخ تحت رحمة كلاب الحراسة التي يصبح وجودها في هذه الحالة لازماً . وتقضي العائلة هي الاخرى يومها بقطع الحشائش الخضراء الطرية وتحميلها في المشاحيف . ويعتبر جمعهــا الروتين اليومي للمعدان . وربما تناهى الى سمع شخص يسير في الاهوار في يوم هــادىء ، حفيف الحشيش يقطع من بعيد وهو يختلط بغنائهم والحانهم ونداء الواحد منهم للاخر عبر ســتار القصب الذهبي العملاق وهم يشقون طريقهم خــلاله . والرجــال منهم والاولاد يخوضون الى النصف وهم عراة يجرون مشاحيفهم الى جانبهم والمــاء يلتمع على اجسامهم الهادئة اللون .

وعند الأصيل حينما تكون الشمس قد ابتدأت تصبغ القصب البعيـد بلون برتقالي هادىء يعود المعدان الى اكواخهم ويلقون بالحشيش امام الجاموس الذي يكون قد عاد في هذا الوقت مع انتهاء يومه المتعب الرتيب . فإذا ما استقر راح

يقضي ليلة هانئة عذبة مع الحشيش . ولكن لا بد ان نقول ان الجاموس في الحقيقة اكثر بقليل من مكائن صابرة لتحويل القصب والحشيش بعد ان يمر بامعائه الى وقود عظيم الفائدة . وتلاقي هذه الحيوانات الأمرين من لسعات البعوض والذباب حينما تكون في اليابسة فسرعان ما تثور ثائرتها وتضطرب اعصابها اذا لم يوضع حد لتلك اللسعات بأقصى سرعة ممكنة . وهنا ترى اصحابها او العائلة تعرض خدمتها لهـا ثانية بكل تقدير ، فتشعل ناراً من المطال لتطرد تلك الحشرات وسرعان ما تتصاعد سحب من دخان ازرق شاحب تسبح فيـه رؤوس الجاموس المتجعدة الضخمة كآلهة فوق غيمة من بخور .

وعلى الرغم من ان علامات الغباء تتجلى على ملامح الجاموس الا انه يعطيك عملياً انطباعاً يثير الدهشة عن ذكائه حين تلاحظ ان كل جاموسة تجيب على النداء الموجه باسمها حالا حينما يراد حلبها . والرجال فقط يقومون بالحلب دون النساء ، وهذا ما لاحظه ثيزيجر بالنسبة للجمال عند البدو في شرق الجزيرة العربية .

ولم أستطع أن أتأكد تماماً هل ان الجاموس ينـام في الرصيف المخصص له ام ينام مع العائلة حول النار . فاما صغاره وخاصة عندما تبلغ دور الفطام وتوضع على فمها كمامة تحول بينها وبين الرضاعة فانها تفضل النوم في داخل الكوخ قرب النار . ويطرد الجاموس في بعض الاحيان بعنف عندما يحاول دخول الكوخ خوفا من عبثه ، وقد عالج ثيزيجر حالة اكثر من طفل وطئت وجهه خلال الليل جاموسة هائجة .

* * *

وبعد تناولنا الطعام ارسلني ثيزيجر لصيد (الخضيري *Duck*) فخرجت ومعي اربع اطلاقات وعدت بعد ساعتين بحقيبة من صيد دسم يتكون من واحدة من طير الخضيري ، وواحدة من نوع البط البحري ، وواحد من (نعيج الماي) وحية مائية .

وكانت وجهتنا منطقة من البحيرات والمستنقعات هادئة ولكنها تعج بأسراب

الخضيري ودجاج الماء . وكنت قد اخذت درسا في كيفية استعمال ذخيرتي في الوقت المناسب لذا قاومت بشدة الحاح احد ملاحينا بالاطلاق على طيور قريبة منا لم اتأكد بعد من نجاحي في صيدها . وحينما اقتربنا منها اكثر طارت إلا واحداً ، ووجدته خـير هدف لي فعاجلته باطلاقة سقط اثرها يتخبط في الماء الازرق الهادىء . وبعد ذلك تمكنت من اصطياد الخضيري واكتنفني عند اصابته نوع من الاسى لشراستي في قتل حيوان ضعيف قبيح كهذا . وشقت الطرادة دربها خلال غابة من القصب ودخلت بنـا بحيرة اخرى استراح على سطحها سرب من نعيج الماي .

ولسبب ما لم يتعلم نعيج الماي كيف يخشى الانسان على الرغم من ان عدداً غير قليل منه يصيده العرب ليس للحمه الذي يلقى جانبا ولا لريشه وانما للجلد الرقيق الذي يتدلّى تحت الرقبة حيث ينشر ويجفف حتى يصبح سطحاً ناعما يشبه تلك الجلود التي كانت تستخدم للكتابه في زمن ما ، وهذا الجلد هو الذي يعطي لطبلات المعدان الحانهـا الهستيرية العالية . وعندما يأخذهم الطرب في الافراح ويزداد الضرب على الطبلات سرعة وقوة فمن الملاحظ ان هـذا الجلد كثيراً ما يتمزق . وليس غريباً ان يخرق الشخص منهم اكثر من طبلة عندما تبلغ به النشوة واللذة ذروتها في حفلة ما . ولكن طيور نعيج الماي البيضاء الكبيرة ، التي تبدو على اليابسة او الماء قبيحة مشوهة في حين تتجلى روعة جمالها عندما تطير ، اما انها لم تتعلم كيف تعتبر الانسان عدواً حقيقياً لها او أنها تظنه اقل من ان يصلها . وصحيح انهـا تظهر نوعاً من الغضب والانفعال ولكن فقط حين يكون الشخص على مسافة قريبة منها ، وفي هذه الحال تضرب الهواء بأجنحتها المنشورة وتطير وهي تتلفت اليه حزينة تطفح بالعتاب .

كنت في البداية أتحرق شوقا لسماع تعليل معقول يفسر لي السبب الذي حدا بهم الى تنبيهي بأن اكون حذراً عند اطلاق النار على نعيج المـاي ، وعلي الا اصيب رأسه . وشعرت بالارتياح عندما اصبت الطير في جناحه ، وما ضجّ الجو بصوت الاطلاقة حتى طارت البقية تخفق في الهواء بأجنحتها الكبيرة . وعندما كان

احد ملاحينا يسلخ الجلد عن الطير ، عادت بقيةالطيور المسكينة مرة اخرى تحوم فوق رؤوسنا وهي تنظر بدهشة الى جثة الطائر القتيل الممزقة .

كنا في طريق عودتنا من الصيد ونحن نجذف فوق سطح هـادىء من المياه ، والى يميننا على مسافة ثلاثين ياردة غابة من القصب الطويل وهناك رأيت الحية ... لامعة نحاسية اللون ملتفّة كالحلزون حول حزمة من القصب لمسافة قدم او قدمين فوق سطح الماء . وكان لونها النحاسي ووضعها ذاك كلاهما يوحي بالشر والخوف ، ولم اكن بحاجة الى التمتمات المحمومة التي اطلقها احد ملاحينـا ليخبرني بأننا امام عدو خطير .

وفي تلك الانفعالات مد الشاب اصبعه يشير الى الحيّة بعد ان كنت انـا قد لفتُ نظره اليها . وحين وضعت البندقية على كتفي في محاولة لاطلاق النار كان صوته وهو يدفعني الى الاطلاق متحشرجا كصوت سرب من الخفاش يدق عــلى طبلة اذني .ولم تكن الحيّة كبيرة وربما لايزيد طولها على الاربعة او الخمسة اقدام. ولا تعتبر شيئا يذكر بالنسبة للحية التي اصطدمت عيناي بها في فزع ورعب بعد عدة اسابيع .

ولم اكن اعرف هل ان هذه الحيات المائية من فصيلة واحدة ولم اعرف حتى اسمها العلمي . والمعدان ينظرون الى الحيات بخوف كبير وحتى ان مجرد لمسها يصيبهم بالاضطراب . وهم يسمونها (عربيد) ويدعون انها قاتلة تميت ضحيتها في عشرين دقيقة . وقد قابل ثيزيجر في السنة الماضية جماعـة كانوا عائدين من دفن فتاة قتلها عربيد ، وكانوا يحملون جسم الفتاة في المشحوف الى مكان الدفن ، وحين انزلوها الى ضفة النهر اندفع من فمها دم اسود بكمية كبيرة . وهـذه القصة تدل على ان العربيد من فصيلة الحيات السامة *Viper* التي تهلك الانسان بسرعة بإحداثها نزيفا دمويا في جسمه وبهذا تختلف عن نوع الحيـات الاخرى التي تقتله بتعطيل جهاز التنفس عنده .

(والعرابيد) بلا شك تنمو الى حجم كبير ، فبعد عدة اسابيع من اطلاق النار على تلك الحية وقع نظري على حيّة اخرى لن اذكر تقديراً لطولهـا خوفا من

سخرية القارىء . فقد كنا نسير مرة بين القرى بطرادتنا المحملة مع ملاحينا الاربعة وانا احتل الصدارة في الطرادة حيث كان ثيزيجر ابداً يؤثرني به ووجهي الى المقدمة بينما جلس هو امامي في الجهة الاخرى ووراءه اثنان من الملاحين يجذفان وخلفي ايضا اثنان آخران ، وكان هوالوحيد من بيننا تقع نظراته على المناطق التي نطويها في سيرنا . وقد كنا نسير خلال ممر مائي ضيق يحف به من الجانبين قصب طويل حين اصطدمت عيني بوجه ثيزيجر ، ولدهشتي الكبيرة رأيت نظراته تتجمد برعب لا يصدق في اتجاه مرفقي الايمن . انه لشيء غريب لم اعهده في طبعه الهادىء من قبل ، ولم افكر في ان اسأله السبب وانما استدرت برأسي لا اراديا الى وراء .. الى الجهة التي كان يحدق فيها دون حاجة الى سؤاله عما يلفت نظره هكذا . ورأيت ويا للهول مؤخر ثعبان لاحت لي عدة اقدام من طوله ينزلق من القصب الى الماء ، ومع ذلك فقد كان عرض القسم الذي تراءى لي منه لا يقل عن عرض ساعدي . وادركت ان الثعبان لابد أنه كان قريبا مني قبل ثانية أو اثنتين ، ومما لاشك فيه ان ثيزيجر قد رأى منه اكثر مما رأيت إذ انني لم المح منه غير ذنبه وهو يغوص في الماء .

* * *

واستمتعنا ذلك المساء بمشاهدة رقصات قام بها راقص لا يحضرني اسمه الآن واظنه كان صعباً في تلفظ كلماته ، واذكر انني كنت اشير اليه (بالبرغوث الراقص) ولعله كان في الثامنة من عمره . وعندما يضطر للاستراحة خلال وصلات الرقص فإنه يتراءى طفلاً صغيراً حالماً ، وعيناه كبيرتان براقتان والحزن يلوح على ملامحه ، ومظهره الساذج هذا لا يدل على ماله من موهبة ساحرة في الرقص وكأنه بهذا أصابع صغيرة من المتفجرات لا يدل مظهرها الخارجي على ما فيها من طاقات كامنة ، واني الآن ، وعندما اتذكر رقص المعدان تقفز الى مخيلتي صورة ذلك الطفل الفنان .

المنظر ساحر خلاب والنجوم اللامعة تنعكس على صفحة الماء الذي يتراءى خلال فتحة الكوخ ، واللهب يتصاعد من نار القصب اللاهبة وقد احاط بها الرجال

في ساحة مربعة طول ضلعها اربع ياردات ، اما اولئك البعيدون عن النار فلاحت رؤوسهم غارقة في عتمة الظلال .

ـ ارقص !!

صاح احدهم في الصبي فقام دون ممانعة ما . وتراجع الحشد عن النار ليفسح له مكاناً في الوسط استطعت تقديره بما لا يزيد على ثلاثة اقدام عرضاً واربعة طولاً .

وابتدأت الضربات على الطبلة بايقاع بطيء في البداية حيث كان الصبي يتقدم خطوتين الى الامام ويتراجع خطوتين الى وراء دون ان يلتفت . وتصاعد ايقاع الطبلة تتم تتم ، تتم تتم . ولاح الصبي هادئاً ساحراً مسيطراً على نفسه . وكانت اعضاؤه تتحرك بدقة وهدوء وتجلت سيطرته على كل عضو من اعضائه واضحة وكأنه شاب كبير . وتدريجياً ازداد قرع الطبلات وازدادت ضربات اقدمه على الارض ، مع مرور الدقائق ، حدة وسرعة بإيقاع يتساوق مع اللحن ... تتم تتم ، تتم تتم ، ومال بجسده الى الامام وكأنه يريد ان ينقض على المتفرجين وقفز الى وراء فجأة . وازداد الايقاع سرعة وعنفاً ، وفي لحظة ابتدأ كتفاه يضبطان الايقاع مع قدميه ، وكل منهما يتحرك على انفراد وكأنهما جزءا ماكنة يحركها مصدر واحد ، قدماه تتحركان الى امام والى وراء وكتفاه يرتجفان الى اعلى والى اسفل ، والرجال المحيطون به يرددون نغماً واحداً في وقت واحد واصابعهم تفرقع مع ايقاع الطبلات . وانغمر الرجل الذي عهدت اليه مداراة النار في موجة من طرب فنسي واجبه وكان ان خفت اللهب واختفى جسد الصبي في دشداشته الفضفاضة . وفجأة تصاعد اللهب مرة اخرى عندما القيت في النار حزمة جديدة من القصب فتجسدت اعضاؤه من تحت الدشداشة الشفافة الناعمة على ضوء النار الدافيء . وشاركت عضلات اخرى في الرقص حتى كان جسده كله يهتز مع الايقاع بقدمين تلعبان بخفة في الهواء وكتفين راعشتين واصبح كل عضو فيه يؤدي دوره التام بمهارة وفن عجيبين ، واشتد الايقاع وصار الرقص الآن مثيراً للشهوة الى حد كبير . فكلما ازداد الايقاع سرعة كلما توقف الصبي فجأة بين الحين والآخر وراح يرجف أحد كتفيه ثم يتبعه بترجيف الكتف الآخر ، او ان يلوي ويرجف ردفيه بخلاعة

وإثارة ، وعيناه تدوران ولسانه يندلع الى الخارج خـــلال الرقص . ولولا تلك الحركات الرائعة الموقوتة ذات الايقاع المتساوق مع الطبل لخلته مصاباً بنـــوبة صرع .

وهكذا لاح الصبي وقد اخذت عليه حركاته العنيفة المجنونة تلك كل حواسه حتى تراءى وكأن لا نهاية لذلك الرقص . فقد استمر الصبي يؤدي حركاته الراقصة الرائعة مدة عشرين دقيقة في تلك البقعة الضيقة من الارض دون تكلف أو عناء ، وفجأة القى بنفسه على الارض واستلقى وهو يتلوى ويرجف اعضاءه بسحر ويحرك عضلاته بجنون ، ومع ذلك فقد كانت حركاته في كل ادوارهـــا منسجمة مع الايقاع .

وتوقف الطبل عن ايقاعه فنهض الطفل بـين عاصفة من الضحك ونظرات الاعجاب والاكبار . وجلس مرة اخرى متربعاً قرب الموقد فعاد طفلاً هادئاً خجولاً من جديد ! ولم تبد عليه علائم من تعب او اعياء بعد كل ذلك الجهد العظيم ، وحتى انه عندما عاد للرقص ثانية تحت الحاح المتفرجين لم يظهر عليه اكثر من انه استيقظ من اغفاءة خفيفة عاود فيها نشاطه وحيويته .

☆☆☆

وخرجنا في الصباح لاصطياد الخنازير . واذا كان الجاموس اخلص اصدقاء المعدان واكثرهم فائدة فالخنازير عدوهم الاكبر وهي من الحيوانات المنتشرة في الاهوار وحجمها يفوق حجم خنازير اوربا والهند بل انها من اضخم خنازير العالم كله ، فهي شرسة ضارية عديمة الفائدة لأن لحمها محرّم في الدين الاسلامي ، وتختفي في كل بقعة من الاهوار لتبني لنفسها جزراً صغيرة من القصب تنام فيها . وكثيراً ما يصادفها المعدان اثناء قطعهم الحشيش فتهاجمهم وتتركهم عظاماً نخرة تحت الشمس واذا نجح الحيوان في محاولاته القاتلة ام لا واذا سقط الشخص على ظهره أو على بطنه فالمسألة مسألة صدفة ، ولكن المعروف ان الخنزير سرعان ما يدير ظهره ويولي عادة الأدبار بعد مناوشات قليلة .

وأخطر الجروح تحدث عندما تسقط الضحية على الظهر وحينئذ يكون الوجه والرقبة والبطن تحت رحمة أنياب الخنزير بطعناتها القاتلة وحقيقة كون الخنزير لا يصبر حتى يعرف مصير ضحيته يترك للانسان فرصة كبيرة للهرب . ويحمل الكثير من المعدان على اجسادهم آثار طعنات الخنازير التي تهاجم حتى القوارب اذا ما فاجأتها وهي نائمة . وأخبرني ثيزيجر مرة انه رأى طرادة طولها خمسة وثلاثين قدما وقد مزقتها انياب الخنزير .

فلا غرابة اذا علمت ان المعدان يكرهون الخنازير ويقتلونها بكل طريقة ممكنة حينما وجدت . وقد حصل ثيزيجر ، الصياد الماهر ، على اكبار واعجاب عدد كبير من السكان من قرى مختلفة لأنه استطاع قتل مئات الخنازير خلال السنوات الاربع التي قضى بعضها بينهم حتى اخذوا يعتقدون ان قتل الخنازير جزء أساسي من عمله الى جانب تطبيبهم ، غير ان السلاح قليل والذخيرة ضئيلة اذا ما قورنت بعدد الخنازير الهائل ، لذلك فالوسائل المتبعة في صيدها محدودة وهم يقولون ان الخنزير عندما يكون سابحاً في الماء فعلى الشخص ان يغوص في الماء ويأتيه من ورائه ليمسك بقائمتيه الخلفيتين ويمكنه حينئذ اغراقه غير انني لم اشاهد ذلك بنفسي ، وهو يتضارب والرعب الذي يظهرونه عند رؤيتهم خنزيراً سابحاً في الماء . ويتم كذلك عدد كبير منها (بالفالات) والهراوات عندما تكون سابحة في المـاء . وادعت احدى القرى امامنا انها قتلت مائة واربعين خنزيراً خلال عام واحد . والمعدان يقتلون صغار الخنازير بلا رحمة ولا شفقة لأنها عدوهم المجرد عن القابلية والسلاح . وفي هذه الحالة يظهرون تجاه الحيوان قسوة متناهية . ومن الصعب على المرء ان يميز عندهم شعوراً بالشفقة والرحمة لحيوان يتعذب . وهـذه القسوة الكبيرة التي يظهرونها تعطي لأول وهلة انطباعاً خاطئاً بأنهم مصابون بالسادية العنيفة . وعلى كل مسلم ان يتجه برأس الحيوان عند ذبحه الى جهة القبلة اذا كان الغرض منه الاكل ، اما اذا كان الحيوان كبيراً فعملية ذبحه تصبح قاسية عنيفة . وتراهم يظهرون غبطة لاهية بينما الحيوان الجريح يتلوى الما . وقد رأيت بعضاً منهم يضجّون بضحك مجنون امام بطّة الحّ عليها الألم فراحت تتلوى . وتختلف المشاعر وتزداد عنفاً

عندما يكون الحيوان القتيل خنزيرا .

لذا تراهم يتبعون في صيد الخنازير من الشدّة والحزم اكثر مما يتبعون في صيد أي حيوان آخر . واني وانا اكتب الآن تنثال على خاطري ذكريات عذبة لصيد الخنازير .. ذكريات محمومة من حذر واصرار وعزم وخوف .

وبينما كنا نجذف مرّة خلال غابات القصب وكلنا يقظة وعيون متفحصة والهدوء مطبق الاّ من همسات قطرات ماء المجذاف تتساقط عائدة الى النهر بينما الطرادة تنساب على سطح الماء بخفة وهدوء ، والاّ من صوت غريب لطائر يدعى بالبرهان Gallinule ، وصوت عقاب انطلق فجأة يخفق في السماء والريح تضرب على جناحيه الكبيرتين الضخمتين بقوة وبصوت يشبه اندفاعها بين القصب وحسيس (الجريـح والكولان Sedges) اليابس بـين القصب العملاق يتناهى الى اسماعنا خافتـاً . والمجاذيف تضرب في الماء بهدوء وقطرات الماء البراقة تتساقط منها ليحتضنها ماء المستنقع الازرق من جديد . والطرادة تشق دربهـا خلال قصب كثيف نحو مستنقع جديد والاصوات تتضخم تدريجياً من كل جانب حادة تصم الآذان . وتراءى لنا من بعيد نسيج عنكبوت كبير وقـد تعلق به مئات الذباب تسطع الشمس على اجسادها الخضر وما تركت الطرادة القصب حتى توقف الضجيج فجأة ومرة اخرى عشنا في عالم من هدوء واعداد من العقاب تحوم فوقنا في سماء زرقاء صافية . (والسّماك kingfisher) من امامنا تبرق الوان ريشه الزاهية .واخذ كل منا يتسّمع .. يتسمع بكل حواسه صوتا خافتاً تعذر علي تمييزه أو ادراكه .

ويتمتع سكان الاهوار بآذان حساسة وبقوة ادراك عجيبة لصوت العدو لايمكن تصديقها . وخلال اقامتي القصيرة بينهم رأيت الشيء العجيب منهم في هذه الناحية ، فحفيف ناعم بين القصب مثلاً والاصوات الخافتة المتسللة من حيوانات مندسة بين مجاهل القصب والبردي ، تلوح لي متشابهة لا يمكن تمييزها ، اما بالنسبة للمعدان فكل صوت منهـا مهما كان ضئيلاً يرسم امامهم صورة للشيء او الحيوان الذي يصدر ذلك الصوت .

وقد تجاهلوا مرّة صوتاً عنيفاً ظننته في باديء الامر صوت خنزير هائج في حين

اخذوا يصغون بحذر بعد بضع ثوان الى همس خافت تعذر علي سماعه . وامتدت الاصابع تشير باضطراب الى جهة معينة ، ووقف ثيزيجر وسط الطرادة والبندقية في يده متهيئة للانطلاق . واطبق الصمت حتى من القطرات المتناثرة من المجاذيف ورحنا نسير فوق صفحة الماء البراقة في سكون ثقيل . ثم سدّد ثيزيجر بندقيته الى هدف لم استطع رؤيته بين القصب على بعد خمسين ياردة عن يسارنا . وتبع الاطلاقة صوت عنيف وسقط جسم ضخم بنيّ الشعر في المياه . وراح الخنزير يسبح في مساحة مستديرة وكأنه قطة تطارد ذيلها ، وفكه الاسفل المتهشم يتدلّى والدماء تنزف منه قانية تصبغ الماء الازرق بلون احمر قان ، ثم غاص في الاعماق ولم يبق من أثره غير بقعة حمراء وسط المياه ... لقد كانت ميتة مخيفة لحيوان مرعب مخيف .

ووصلنا بعد ذلك الى بحيرة ـ الدويمة ـ الكبيرة بصفحتها الزرقاء تحتضنها غابات القصب من كل جانب . وعندما كنـــا نترك الممر المائي الذي اخذ يكبر تدريجياً لندخل هـــذه البحيرة رأيت للمرة الاولى عملية صيد السمك (بالفالة) هناك .

وتعتبر (الفالة) ذات الخمس رؤوس مع العصا ذات الرأس المعدنيـــة والخنجر الذي يصنع غمده من قرن الجاموس ، تعتبر هذه كلها من الاسلحة التي لا يمكن لرجل من الاهوار الاستغناء عنها . (والفالة) عصا يبلغ طولها حوالي عشرة اقدام تشد الى احد طرفيها قطعة حديد كبيرة ذات خمس رؤوس مدببة . واكثر صيد السمك عندهم يكون بهذا السلاح المرعب ، ويستخـدم ايضاً لقتل الخنازير وفي احيان اخرى لقتل العدو من الانسان . واذا كان الهدف ظاهراً فالميتة محتمة، ولكن استعمال الفالة الشائع هو قذفها بقوة عند جـــذور القصب حيث تتجمع الاسماك .

وقد لاحظ عمارة مرة على سطح الماء الهـــادىء حركة واضطراباً خفيفاً على مسافة عشرة او خمس عشرة ياردة فرمى المجذاف جانباً وتناول الفالة وامسك بها بكل قوتة ثم قذفها بعنف شديد على تلك الفقاعات واصابت نهايتها الهـــدف .

فأخذت الفالة ترتجف بقوة وقد غاص منها قدمان في الماء الضحل . ولم نتوقع ايجاد شيء في نهايتها ، الا اننا عندما التقطناها وجدنا ثلاث رؤوس حادة منها وقد انفرزت في سمكة كبيرة يزيد طولها على تسعة انشات ولو كنت عدت الى انكلترا ذلك الوقت لنقلت اساطير خارقة عن مهارة المعدان في الصيد بالفالة ، ولتحدثت كثيراً عن الهدف الذي يبلغ طوله تسعة انشات وعرضه ثلاثة والذي اصيب وهو على بعد خمسة واربعين قدماً من قارب يتأرجح ويتمايل . ولكنها ويا للأسف كانت شهرة زائفة كشهرتي في صيد دجاج الماء التي سرعان ما تلاشت .

ولاح لنا في وسط البحيرة من بعيد خط أو امتداد اسود ولعل طوله يزيد على الميل ، وعندما امعنت فيه النظر لمحت ثمة شيء كبير ينقض فوقـــه كطائرة تنقض على هدفها ، واعقبه ثان وتبعه ثالث . وفجأة ظهر خط ابيض من زبد الماء وكأنه بقعة من الارض الى جانب الخط الاسود ثم انطلق صوت هادر . وكان الخـــط الاول يتكون من الاف من دجاج الماء انضم الى بعضه تحت مهاجمة خمسة من طير العقاب **eagles** من الجو . وهي لا تستطيع الانقضاض ودجاج الماء في الميـــاه ، لذلك كانت تنقض عليه عدة مرات في محاولات لافزاعه واقتناصـــه حينما يطير . وعنـــد كل هجوم من العقاب ترى دجاج الماء ينشر اجنحته ويرفرف فوق الماء لمسافة قريبة فيثير الماء من امامه في موجات بيض ، وحين يرتفع العقاب يتجمع دجاج الماء مرة اخرى وينضم الى بعضه حتى ان المرء اذا اسقط بينه ابرة فلا بد انها ستسقط على احده . وهنافقط يمكن لأتفه اطلاقة تلبية اوامر ثيزيجر في الصيد مائتين بالمائة .

وسرنا عبر البحيرة نحو ذلك السرب من دجاج الماء وقبل ان نصل الى منتصف المسافة عنه كانت طيور العقاب قد يئست من صيد سمين لها . وقبل ان نبتعد عن تلك المنطقة رأيت اثنتين منها تطير فوق رؤوسنا بانخفاض كبير وكانت من نوع العقاب البحري البيض الذيول الذي يبيض بين القصب . وحين تكون صغاره في العش ويمر بهـــا المعدان وهم يجمعون الحشيش افزعهم العقاب فجأة وأرعبهم . وطيور العقاب الاخرى اصغر واشد سواداً ولا يمكنني ان اطلق الاسم العلمي

الصحيح لكل حيوان في الاهوار ، لأن الحيوان الوحيد الذي جلبته معي الى انكلترا ظهر جديداً على العلم . وخلال الشتاء واوائل الربيع يزداد عدد طيور العقاب في الاهوار فلا تخلو السماء في اية لحظة من عدد منها ، وهي متعددة الانواع والاشكال الى حد يثير الحيرة . وبما ان العرب لا يقتلونها لذا تراها لا تخشى الانسان كالغراب الابيض والاسود الذي يحط كعصافير الاهوار على سيقان القصب العملاق المنحنية ، غالباً ما تسمح للمشاحيف بالمرور قريباً من تحتها دون ان تتعرض لها .

وبعد ابتعاد طيور العقاب عاد دجاج الماء وانضم الى بعضه على سطح الماء باعداده الهائلة حتى خيّل لي انه اصبح كقطعة ارض يمكن للانسان السير عليها لمسافة نصف ميل . وحين صرنا على بعد ثمانين ياردة عنه اخذ ينفض عنه الماء ولما طار امتلأ الهواء برذاذ الماء وتشكل منه في السماء قوس قزح مختلف الالوان ، ولو كان مرّ فوق رؤوسنا لحجب الشمس عنّا بيد انه طار الى يميننا . واطلقت عليه رصاصة ، ولأن اعداده هائلة جداً لذا لم اتمكن من ادراك عدد القتلى منه ، ولكنه حينما ابتعد عن المنطقة ولم يبق من أثر غير طيف قوس القزح في الجو وجدت ان ما اسقطت منه لا يقل عن التسعة عشر .

وفي ذلك الوقت تلاشى كل ما كنت احمله للمعدان من اعجاب في استخدام الفالة ، حيث كان علينا ان نتعقب الطيور الجريحة بالطرادة ، ومرة بعد اخرى كان عمارة وحسن يقذفان الفالة على احد الطيور القريبة ، ومرة بعد اخرى كانا يخطئان الهدف .

وتناولنا طعامنا تماماً كما تناولناه في اليوم الاول من وصولنا الاهوار في جزيرة غير مستقرة والقصب يحيطنا من كل جانب . وطعامنا يتكون من طيور ذبيحة ملوثة بالرماد وخبز غير ناضج وسمكة كان قد اصطادها عماره ، مع دبس أسود ربما كان يسرق للمرة الثانية او الثالثة . وكان الدبس في جرار لمحتها عيون ملاحينا الحادة محشورة بين القصب ، وقد قيل انها كانت قد سرقت واخفيت هناك ، وعلى هذا فهي الآن تسرق للمرة الثانية .

واخذت الرياح تهب مرة اخرى بشدة قبل ان نعود الى القرية في تلك الليلة . وفي احد الاكواخ في قرية ـ ام الجريفات ـ كان الدخان المتصاعد من (المطال) خانقاً والرياح تخترق فجوات الكوخ .

☆ ☆ ☆

كانت تلك ايامنا الثلاثة الاولى في الاهوار الدائمة وقد مضت بعد ذلك عشرة أيام قبل ان نعود اليها مرة اخرى ، لأننا سافرنا في صباح اليوم التالي الى القرية ـ الرفيعة ـ موطن عائلة كل من عماره وسبيتي . وبعد ثلاثة ايام كنا نمر في الاهوار ـ الوسطى ـ التي تقع الى غرب نهر دجلة ـ من الجنوب الى الشمال . ونحن الآن نسير في اقصى طرفها الشمالي على بعد عشرين ميلاً جنوب مدينة العمارة . والمسالك المائية تبقى شريان المواصلات حتى خارج مناطق الاهوار ، واما التغير فيها فهو تدريجي . وكلما توغلنا خارج الاهوار اكثر كلما اصبح القصب اقل طولاً ومبعثراً هنا وهناك حتى لم نعد اخيراً نرى له اثراً واخيراً صارت المسالك المائية مربكة وماؤها بني اللون طينياً . وعندما تهب الرياح تصطبغ مياه هذه القنوات بلون خاص بها لا يمكن تمييزه في البداية . ويضطرب سطح المـــاء ويتجعد في موجات تشبه كثبانا رملية في الصحراء احد جانبيها برتقالي اللون وهو لون الماء العكر . في حين ترى الجانب الآخر ازرق بعكس لون السماء . ومع ذلك فالكل ، الذي يلوح وكأنه لا يمكن تمييز لونه ، في الحقيقة متكون من لونين وتناسقهما في الحركة مع التيار يجعلهما يظهران كما لو انهما لون واحد .

وتحولنا من هذه المسالك المائية الطينية الى قنوات ضيقة خلال حقول الرز وعلى جوانبنا ضفاف من اليابسة تناثرت عليهـــا مخالب سرطان وقطع محار من مختلف الاشكال .

ومناطق الرز منبسطة يطغى عليها لون واحد ، فعندمـــا تلقى البواري على اقواس الاكواخ الجديدة عند انشائها تكون ذهبية براقة ولكن الطقس سرعان ما يحولها الى رمادية شاحبة وتصبح جزءاً من عـــالم داكن يشمل الارض وبيوت القصب وحتى الابقار والاغنام ما عدا اعواد الرز الغضة الخضراء . انها ارض مملة

متشابهة الاشياء لم اشعر فيها بالراحة ، ومع ذلك فعندما خرجنا من الاهوار كان الحنين يتململ في اعماقي للعودة اليها .

ولم اشعر بالانهاك والتعب في اعصابي وعضلات جسمي خلال الايام الثلاثة الاولى من رحلتنا الا عندما وصلنا – الرفيعة – حيث ادركت هناك كم تأثرت عضلات جسمي من جراء الوضع الواحد الذي عانته اجسادنا خلال الرحلة والذي لم يتغيّر الا نادراً . فعندما سحبت خطاي الى الضفة الرملية حيث ينتظرنا جماعة من المعدان شعرت ان رجلي في غير وضعها الطبيعي فأخذت اتعثر خلال سيري وأترنح كطفل صغير لم يتعلم المشي بعد ، وأحس برأسي ترتفع عالياً في الهواء . وكل عضلة وعظم من خصري الى الاسفل يلتهب فيه اعياء وتعب . ولم ارغب عند تلك اللحظات في شيء اكثر من ان تتحول المسافة القصيرة البالغة عشرة او عشرين ياردة بيني وبين البيت الذي نقصده الى اميال عدة لكي تستعيد ساقاي فيها بعض قواها المفقودة خلال الرحلة الطويلة ، ولكن لم اقف على قدمي اكثر من دقيقة بين الرياح المائجة والافق العاري حتى وجدت نفسي مرة اخرى اجلس متربعاً في داخل الكوخ .

وفي هذه القرية التي ينتمي اليها اثنان من ملاحي ثيزيجر امتلأ البيت بسرعة وصندوق الادوية تنهال عليه الطلبات . وكما هو الحال في قرية – الرّملة – كانت هناك عاصفة من التراب لا تسمح للمرضى بالانتظار في الخارج وهكذا عولجوا في احدى زوايا الكوخ . وانحدرت الشمس نحو المغيب فلم يكن يضيء الحشد من المرضى غير الضوء المتراقص من نار (المّطال) الملتهب ولاح ثيزيجر ، وهو يعالج احد المرضى بجسده المنحني ، وكأنه شبح طبيب من السّحرة في قصص الاساطير ، وقطعة البطانية التي يرتديها كالشال تلقي على الجدران المقوسة ظلالاً سوداء كبيرة كطير ضخم بجناحيه المنشورين باعتداد .

وفي هذا الوقت كانت امراضهم ما تزال تحمل لديّ انطباعاً واضحاً عنهم ، وقد وجدت اني كتبت في مذكراتي ما يأتي عن تلك الساعة :

عدد الاشخاص العور .

عدد الاشخاص الذين يحملون عضات الكلاب .
عدد الاشخاص المصابين بأمراض مرعبة متنوعة .
اربعة وجوه بلا أنف رأيتها في تلك الليلة .

وكلّما مرّ عليّ الوقت في الاهوار كلما صارت تلك الاشياء مألوفة لديّ ، وأخيراً اصبح تناولي الطعام مع شخص مجذوم مثلاً ، لم يترك له المرض غير اصبع واحدة في يده ، شيئاً اعتيادياً !

واني اتذكر الآن تلك الليلة بكل مزعجاتها ، فخلال ساعاتها الثقيلة الخطى كانت الكلاب تعوي وتنبح حول جدران اكواخ القصب النحيفة وفي حوالي الساعة الثالثة عند الفجر سمعت حواراً يدور بين بعض الشبان الذين تقرفصوا حول جمرات النار في الموقد . وكان ذلك بداية لمفاوضات لاحت لا نهاية لها حول زواج عمارة من أخت سبيتي .. تحديد المهر وتعيين موعد الزفاف ، وتوقع المشاحنات التي قد تحدث في المستقبل . كان ذلك كله يدور خلال الليل بينما عمارة نفسه ، واقولها بصراحة ، لا يدري بالأمر وانما راح يغط في نومه العميق قريبا منهم ووجهه الجميل الشاحب غارق في سباته العميق ترتسم على صفحته علائم من غطرسة ونوع من قسوة .

الفصل الخامس

ان شيوخ العشائر في تلك المناطق هم كما يتصورهم الغربيون الى حد كبير ... رجال يميلون الى ان يظهروا اقوياء اشداء ويرتدون الملابس الفضفاضة – وغالبا ما تطرزها اشرطة من الذهب – فوق اجسامهم ورؤوسهم . ولأنهم يقضون معظم اوقـــاتهم متربعين على الارض لـــذا اصبحت ارجلهم صغيرة وقصيرة بالنسبة لأجسامهم . وقد اعتادوا ان تقبل ايديهم في شيء غير قليل من التذلل والخضوع . والشيوخ يرسمون خطط شؤونهم بأنفسهم وتلوح امارات الاستبداد والظلم على محيا بعضهم الا ان وجوه البعض الاخر تطفح بالرحمة والبشر . وعدد قليل منهم يظهر بليداً شريراً . وعلى الغالب يلوحون وانفة مركزهم تسيطر عليهم .

والشيوخ يحكمون مناطق كبيرة او صغيرة من الارض وقد تكون ارضا خصبة تتبع نظام ري معقد ، او تكون منطقة من الاهوار الدائمة لا يمكن اصلاحها الا بصرف ملايين الدنانير من واردات النفط . وكلمة (شيخ) تعني اكثر من سيد او صاحب ارض ، لأنها كلمة تتوارث وتحمل معها معنى المسؤولية والمركز الكبير في المجتمع . والحقيقة ان جميع اراضي العراق تعود الى الحكومـــة ولكن الشيوخ يسيطرون على اراضيهم بواسطة نوع من الايجار يدفعونه للحكومة . ويكونون مسؤولين عن ادارة وسلامة القرويين التابعين لهم .

كانت العشائر قبل الحرب العالمية الاولى ضمن الامبراطورية العثمانية في ثورات واضطرابات دائمة فيما بينها يشجعها الاتراك لكي يجعلوا العشائر في حالة من الضعف

لا تقوى فيها على القيام بثورة مشتركة ضدهم . وقاربت هذه المنـــازعات نهايتها خلال فترة الحـكم البريطاني . ومركز الشيوخ الوراثي كقـــواد للعشائر في حالة الحرب يتناقض وتطور الزمن ، وحتى وجودهم ما هو الا مرحلة عابرة ليس لهـا غير الزوال . والماء هو المشكلة الرئيسية هناك وتوزيعه توزيعا عادلاً كفيل بحفظ الامن بين الشيوخ . وعندما يكون احدهم مسؤولاً عن ارض في عهـدته فإنه يود ان يرى فلاحيه يحصلون على المياه الكافيـة لسقي محاصيلهم في الوقت المناسب ، وكل شيخ يعرف هو و (سركاله) حقيقة المشكلة ، وكيف ومتى تأخذ كـل منطقة دورها في الارواء . وقد يكون احد موظفي الحكومة مسؤولاً عن المياه والسيطرة عليها وتصريفها الا ان هذا الشخص المسؤول عن توزيع المياه ليس له من دافع لأن يرى كل مزارع يحصل على ما يحتاجه من الماء ما لم يحصل هو على شيء يملأ جيبه ، ولذلك يكون من السهل ان يتقبل الرشوة التي بواسطتها يستطيع كل من يدفع اكثر ان يحصل على ما يحتاجه لارواء ارضه . ويتطلب حفظ المياه بناء سدود كبيرة ضخمة وهذا عمل خطير معقد يقوم به الفلاحون ، ولا يمكنهم القيام به بالتعاون فيما بينهم لو لا اوامر الاقطاع الصارمة الصادرة اليهم من قبل الشيخ . وتأخذ الحكومة حسب سياستها الحاليـة نصف الارض من الشيخ وتوزيعها بين المزارعين الذين سيتعاونون حينئذ فيما بينهم للحصول على الماء الـذي لو لاه لجفت ارضهم وماتت ، ويعني ذلك بالتالي هلاك عوائلهم .

وقد ادرك فاتحو تلك الاراضي السهلة لنهري دجلة والفرات منذ البداية ان الماء الوفير هو دم الحيـاة الذي يتوقف الوجود كـــله عليه . ولكنهم لم يركزوا اهتمامهم في القنوات والانهار الرئيسية وانما تركوا المياه تنساب في غير ما فائدة ، في حين راحوا يقتلون أو يبعدون وكلاء الاراضي الذين عرفوا جيداً بحكم تجاربهم اين يجب ان تذهب المياه وتوزع لتستمر الحياة . وتوجـد اليوم مساحات شاسعة خلت صحراء قفراً منذ عهد الفاتحين الاوائل ، اما الناس الذين كانوا يسكنونها فقد فروا خوفا ورعبا من الجفاف في هذه الأراضي السهلة ، دون ان تبقى ثمة اسطورة تحكي فرارهم هذا .

والعدد الاكبر من الشيوخ لا يقوم اليوم بإنجاز مسؤولياته الوراثية ، وخاصة اولئك الذين احتكوا منهم بالثقافة الغربية التي بدأت ، كشيء حتمي ، تقتحم عليهم عالمهم الخاص . وربما كان مثل هذا النوع من الشيوخ يمتلك ارضا تسقى بالمضخات ، وقد علمه الاوروبيون عاداتهم فصار مقامراً . وهو لا يستطيع المراهنة بأرضه التابعة للحكومة ، لذا يلجأ الى المراهنة بأشياء ارضه المنقولة العائدة له كمكائن الضخ مثلاً . وهكذا يأتي الشخص الرابح ليأخذ المضخات وحينئذ تستحيل الارض الى صحراء مجدبة ، ويهاجر الفلاحون ويمضي الزمن ويغطي غباره المتراكم على الايام وليس ثمة ذكر او سؤال الى اين انتقلوا وأين صاروا . وتأتي حكومة غاضبة فتتدخل في الامر لتأخذ الارض من الشيخ المفلس وتعطيها الى تاجر كبير واسع الثراء . ويأتي هذا بمضخات جديدة مرة اخرى ، ويأتي بمزارعين جدد يعملون في الارض ، ويقوم عداء مستحكم بين التاجر والشيخ المطرود الذي يحتج مدّعيا ان ارضه قد اغتصبت منه . وتقوم حرب اهلية بينهما وحينئذ على السلطة ان تتدخل ثانية .

ولا يعيش غير عدد ضئيل جداً من الشيوخ ، ان وجد ، في الاهوار الدائمية مع ان سلطتهم تمتد لتشمل كل فرد من المعدان ، وانما تراهم يسكنون الضفاف اليابسة من الانهار أو ضفاف الاهوار حيث يشيدون لهم قلاعا حجرية معدّة للقتال يحرسها زنوج افريقيون حصلوا على مر الاجيال على مساواتهم وعلى حريتهم الدينية . وينشأ اطفال هؤلاء الزنوج يشاركون اطفال الشيخ لعبهم . ولذلك لا ترى غير القليل منهم ، ان وجد ، يرغب في ترك خدمة اسياده ، وهم يتمتعون بالحماية ويعيشون في حال افضل بكثير من رجال العشائر انفسهم . ويوجد صنف آخر من الشيوخ يعيشون في قلب الاهوار الحقيقية ومركزهم جاء عن سمعة وشهرة مرموقة وليس عن غنى او ثراء متوارث . وهؤلاء عادة لا يملكون ارضا أو مالاً وهم أو آباؤهم قد اختارهم رجال الاهوار كحكام لائقين لفضّ المنازعات التي تحدث بينهم من قتل أو ثأر وحق لابداء رأيهم في ابسط القضايا العارضة .

وقلاع الشيوخ ذات نمط واحد ، وقد رأيت عدداً كبيراً منها فكانت خربة

من الداخل . وكل قلعة تحتوي على غرفة استقبال اوروبية المظهر انشئت اثناء الاحتلال الانكليزي ، ولا تستعمل إلا عند استقبال موظفي الحكومة . وهي طويلة ضيقة رصفت بمحاذاة جدرانها وبصورة متقاربة بكراسي وثيرة من انتاج البصرة وبغداد . والغرفة عادة تمتلىء بالغبار وجدرانها مهترئة ويتدلّى من سقفها مصباح كهربائي كئيب . وقد كنا خلال رحلتنا نستقبل عادة في هذه الغرف ، ولما لم يتيسر لي دخول بقية الحجرات الاخرى الخاصة للسكنى من القـــلاع فقد بقيت احمل عنها فكرة للخراب،ولكنه خراب يحمل في حناياه احلى معاني الكرم.

ولكل شيخ او شخص مرموق مضيف مبني من القصب يقوم قرب قلعته ويمكن للغرباء ان يحلّوا فيه ضيوفا معززين ، وفي منتصف المسافـة بين القلعة والمضيف تقوم (الصريفة) وهي شكل مستطيل مبني بالقصب خصص لاستقبال ضيوف أقل عدداً واكثر صداقة ومعرفة .

وكل عائلة من الشيوخ تقريبا ترتبط مـــع عوائل الشيوخ الآخرين بروابط المصاهرة كما هو الحال مع عوائل دوقات انكلترا ، ولذلك وجدت ، بعد نزولنا مساء اليوم في مضيف ــ عبدالنبي بن دخيل ــ احد اعضاء اسرة معروفـة ، ان معظم المضايف التي زرناها فيما بعد كانت لأعمامه واولاده واجداده واولاد اخوته ، وهؤلاء فروع لشجرة كبيرة من الانساب لايمكن استيعابها الا بعد تشذيب فروعها.

وغادرنا ــ الرفيعة ــ خلال قنوات ري ضيقة يحف بهـا النخيل وحقول الرز من الجانبين ، وتغرد فيهـا بزهو واعتداد طيور جميلة تحت سمـاء غائمة . وبمقارنة هذا المنظر مع منظر الطيور الزاهية في اعماق الاهوار فإن الاول يظهر وكـأنه منظر اوروبي يثير الملل . ودخلنا قنوات اكبر يبلغ عرضهـا خمسين ياردة تقريبا وماؤهـا شاحب بزخرف الصفصاف و « الطّرفه » ضفافه وتتناثر على شطآنه اكواخ المعدان دون انتظام او ترتيب ، والكلاب الوحشية تعوي بينهـا بشراسة وغضب مما اضطر ملاحينا الى الابتعاد بالطرادة عنها .

وابتدأت السحب تنقشع عندمـا اخذت الشمس تنحـدر وراء الافق ، ولاح المضيف معتمـاً تحت سمـاء اختلط فيهـا اللون القرمزي بالاسود .

وتناثرت هنا وهناك بعض قزعـات من الغيوم ولاحت معتمة .. كالمضيف نفسه ، كالارض الممتدة عـلى البعد ، كتلك النخلة الوحيدة التي طعنت الافق الاصفر من بعيد .. قزعات سود مظلمة كمقدمة الطرادة العالية تمزق الابعاد الصفراء التي تنحدر هي على صفحتها . ولم ار في اية بقعة من بقاع العالم اطياف الغروب غريبة تتلفع بالسحر والجمال كتلك الاطياف التي تلمع كل مساء ببريق أخاذ فوق سهول دجلة والفرات . وتلوح لي في تلك الالوان فوق الارض الزراعية عند الغروب اكثر جمالاً وروعة على العكس منها في النهار حيث سطح الارض واكواخ القصب تظهر بالوان ميتة شاحبة . وأطياف الغروب هنا تختلف عنها في الشمال حيث انها ليست متنافرة الالوان شاحبتها بحيث تنفر منها العين .

ومـع ان غروب كل يوم فوق تلك السهول يختلف عن غروب اليوم السابق ولا يمكن ان تتكرر فيه نفس الالوان الا انه يكون عادة تدريجيا ، حيث ترى الشمس في البداية منخفضة شديدة الضياء ، والاكواخ والاشخاص على ضفاف الانهار يصطبغون بلون برتقالي امام افق شرقي بنفسجي اللون داخن . وفي الجو تحلق اسراب (نعيج الماي) فتنعكس اشعة الشمس على صدورهـا من الاسفل لتبدو وكأنها دروع من البرونز . ويزحف فوق ذلك كله ليل ازرق شاحب تتناثر فيه النجوم البراقـة . وتنحدر الشمس وراء الافق فجـأة فتتراءى آثار رحيلها يصبغها لون برتقالي يختلـط بلون اخضر ثم بلون ازرق داكن ويتحول اللون الأصفر تدريجيا الى لون احمر . ويبدو الافق البعيد معتماً والنجوم تتـألق لامعة فوق الرؤوس . وحينئذ لايقلق صمت الماء الشاحب غير المشاحيف المنسابة بقدماتها العالية تمزق الآفاق البعيدة .

انه ضوء اللحظات الاخيرة الساحر الواهن الذي طالعنا من بعيد قبل ان نصل مضيف عبدالنبي . ثم تلاشى كـل ضوء من الارض وحجب المضيف من امامنا ضوء الافق البعيد الذي انعكس عليه فلاح هيكلا مقوسا اصفر كالذهب .

* * *

كان ــ عبدالنبي ــ قد خلف والده ــ دخيل ــ اثر حـــادث امتدت مأساته

وملابساته فترة طويلة بعد حدوثه كما هو الحال عند كل موت مفاجيء غامض هناك . وكان دخيل والد عبدالنبي صديقا حميماً لثيزيجر الذي زاره في مضيفه عدة مرات حتى عرض عليه دخيل اخيراً ان يزوره في القلعة وان يقضي لياليه فيها بدلاً من المضيف ، وفوق ذلك كله ان يعتبر نفسه احد افراد العائلة . وفي صباح الليلة الاولى التي قضاها ثيزيجر في القلعة اقترح دخيل ان يقضوا يومهم ذاك بصيد البط في الاهوار مع عدد من الضيوف الآخرين بينهم شخص يدعى – عبود – وهو ابن اخ دخيل وفي الوقت نفسه زوج ابنته . وفي طريقهم الى الصيد لاحظ ثيزيجر حوالي احدى عشرة خرطوشة تحمل علامة LG ولما لم يلاحظ هذا النوع من الخراطيش هناك من قبل فقد سأل دخيل عنها فأجابه انها اطلاقات لصيد البط ، ولكن ثيزيجر اخذه الشك في الأمر وفتح واحدة فتدحرجت في يده ست قطعات ثقيلة من الرصاص ، ولم يحتمل ان قال : « لا بد ان شخصاً ما اعدت هذه الاطلاقات لقتله . فهي لا تستخدم إلا لصيد حيوانات كبيرة كالخنازير مثلاً ، وانه لشيء مرعب ان تستخدم لصيد كهذا » . ولكن دخيل ظهر غير منتبه لهذه الملاحظة وانما كان تفكيره يسرح بعيداً في اشياء اخرى .

وتفرقت الجماعة بين القصب وفي كل مشحوف صغير بندقية مع فرد واحد يقوده وغاب كل منهم عن الآخر . وأخذ عدد من البط يتطاير من حولنا وسرعان ما دوت الاطلاقات في الجو بغير انتظام . وسمع ثيزيجر مرّة صوتاً مدوياً غريباً ينطلق من احدى البنادق ، فأشار لمن معه : « يوجد واحد من جماعتنا الآن يطلق بصورة خطيرة » .

وعند الظهر انطلقت رصاصة غير بعيد عن ثيزيجر وفجأة سمع دخيل يصرخ : « قتلني !.. قتلني !! » وظهر ابن اخيه عبود في جنون ورعب من وراء قصب كثيف يبعد سبعين ياردة عن ثيزيجر وهو يصرخ بأنه لا يدري بعمه هناك . ولم ينتظر ليرى هل قتل عمه ام لا وانما اطبق الخوف على مشاعره فهرب خلال القصب وهو يلحّ على الصبي الذي يقود مشحوفه ان يجذف بسرعة .

وفي مثل تلك الحال يبدأ الثأر عند العشائر . فالقتل يجب ان يؤخذ بمثله وان

كان غير متعمد ، واذا لم يكن من القاتل نفسه فبذكر من اقاربه ، وهذا بدوره برجل من عائلة القاتل الاخير . وهكذا يستمر هذا اللغو الذي لا يستند على ذرة من العقل مطلقاً الى ان يسوّى الامر بدّية من النساء . والقاتل في الاهوار لا يعاقب بمثل الشدة التي يعاقب بها في المدن ، وتخفف العقوبة كثيراً اذا كانت الجريمة ارتكبت في فورة من الغضب كأن تكون قد ارتكبت بعد عدد من الساعات معينة من القتل الذي اخذ بثأره .

وفي نظر هؤلاء القرويين ليس لعبود في مشكلته غير طريق عشائري واحد يمكنه ان يسلكه ليتخلص مما جنت يداه وهو ان يأخذ والده الى محسن والد دخيل ـ وهو شيخ قوي معروف وأحد الشخصيات الكبيرة هناك ـ ويقول له : « هذا ولدي تحت رحمتك . لقد قتل ابنك غير متعمد فاقتله مقابل ذلك ان شئت . ويقال ان ذلك يستدر رحمته وعطفه على القاتل » .

واقترب ثيزيجر من مشحوف دخيل بعد دقائق معدودات من اصابته فوجده منهاراً والملاح يحاول باعجاب ان يحفظ توازن المشحوف في المياه . كان دخيل غائباً عن الوعي والدم يبلل قميصه من جهة صدره اليسرى وعندما رفع ثيزيجر ثوبه وجد الاطلاقة وقد اخترقت حلمة ثديه الايسر .

واستعاد دخيل وعيه حين كانوا يحملونه الى البيت فأرسل يطلب ابنه عبد النبي على الفور ولكن هذا تأخر عن بقية الجماعة لأنه كان يسير حافياً في الأشواك على ضفاف الاهوار . ولم يكن ثمة وقت للانتظار لذلك فقد ترك دخيل الى ابنه وصية يخبره فيها انه مهما يكن القاتل فعليهم اعادته الى ابيه دون ان يمسه احد بسوء .

وفي القلعة ثار جدل عنيف حول ارسال دخيل حالاً لمعالجته بيد ان الرجل اصبح واهناً والأمل فيه ضعيف . واخيراً ارسلت طائرة خاصة لنقله من مدينة العمارة الى بغداد ولكنها لم تصل الا بعد ست وعشرين ساعة من اختراق الرصاصة صدره .

وفي ذلك الحين هرب عبود المرتعب الى والده الذي سلم ابنه الى السلطات

الحكومية بدلاًمن أن يذهب واياه الى والد القتيل ويضعانفسيهما تحت رحمته ، وبذلك يكون قد تحدى التقاليد والمثل العشائرية القائمة واثار الحقـــد والكراهية ضده . واتبع والد عبود الطرق الرسمية في القضية فوكل المحامين عن ولده واخيراً حـــكم على عبود بالسجن لمدة ثلاث سنوات وهي المدة الاعتيادية للحكم في قضايا القتـــل العشائرية . [1]

ولكن محسن كان يصر ان يأخذ بثأر ابنه . وفوق ذلك كله فقد قتل رجل آخر من ابنائه تحت ظروف غامضة ولم يكن محسن يحمل لابنه ووريثه الوحيد الباقي حباً أو إعجاباً كافياً لذلك راح ينـــدب ابنه دخيل قائلاً : « آه يا ولدي ... لم يبق لدي احد يستحق ان يحمل اسمي بعدك » . واخذ محسن ينتظر خروج عبود من السجن لينتقم منه .

واخيراً خرج عبود من السجن فأرسل اليه حالا يهدده بالقتل انـ هو عاد الى المنطقة ثانية . فرجع عبود خائفاً الى الحكومة التي ارسلته الى الاهوار مرة اخرى قاطعة له عهداً بحمايته . ولكن محسن أثار رجال العشائر فأغرقوا مشحوف عبود قبل انـ يصل الى ارضه ونجـــح هو في الهرب والتجأ مرة اخرى الى السلطات الحكومية لحمايته .

ونفى محسن التهمة عنه مدعياً انه لا علم له بما قام به العشائر ضد عبود . ولكن الحكومة سجنت ابنه مدة غير قليلة وسبب لهم هذا شيئاً من الخجل والفضيحة . وفي ذلك الحين اعيد عبود ليعيش قرب مركز للشرطة بلا مزارعين يتبعونه وبلا ارض يقوم بزراعتهـــا ليجني ثمارها . وتم تهديد اصحاب المشاحيف والتجـــار المتجولين بعدم التعامل مع عبود فامتنعوا عن ذلك مباشرة بعد وصول التهديدات لهم . وبعد هذا كله لا اتصور احدى شركات التأمين في العالم كله لها من الجرأة بحيث تجازف بالتأمين على حياة ... عبود !

* * *

---

(١) الغي قانون العشائر بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ . المترجم

يلاحظ الزائر ان الجو تحت اقواس مضيف الشيخ المعتمة يختلف عنه في اي كوخ من القرية . وكلما تقدمت ساعات النهار كلما امتلأ المضيف بالرجال ولكن معظمهم من الرجال الكبار السن ومن المرموقين في القرية الذين سرعان ما يجلسون متربعين في صمت وهدوء . وحين يتحدثون يكون ذلك برزانة ورصانة وتتصاعد طقطقات مسبحاتهم من بين اصابعهم وكأنهـــا اصوات دجاج في حقل زراعي . وتتصاعد معها سحب دخان ازرق كبخور الكهنة من (المّطال) المشتعل في موقد القهوة لتحيل قصب وبواري السقف الى لون اسود كلون خشب الماهوكني اللامع الثمين .

وخرج الناس من المضيف في الليـل مبكرين فلا يمكن ان يقوموا بالرقص او الغناء في مثل هذا المـكان الذي يتسم بالوقار والاحترام . وحين اضطجعنا لننام اخذت جموع الخفاش تطير فوق رؤوسنا بين اقواس المضيف المعتمة وهي تلقي ظلالا كبيرة على اعالي تلك الاقواس . وينعكس ضوء (لوكس) قرب الباب على اربعة وجوه لأربعة عبيد سود اقتعدوا حول النـــار واسلحتهم حول ارجلهم ، وظلالهم ترتسم ضخمة على الجدران فوق رؤوسهم .

☆☆☆

وتناولنا طعام الغداء في اليوم التالي في قلعة شقيق محسن وكان طبيعياً في مثل ذلك الحقد والعداء بينهما ان تجدهما لا يتكلمان مع بعضهما حتى قيل انهما يتبادلان الشتائم والسباب عبر النهر .

وقد تميز ذلك اليوم بحادث ساخر مؤلم وقع لي ، حيث كنت قد احضرت معي من انكلترا بندقية لصيد الاسماك بالسهام وهي من النوع الذي يستخدمه المصطافون على شواطيء البحر الابيض المتوسط . ولم تكن البندقية تعود لي ولم استعملها قط وحتى صاحبها الاصلي لم يستخدمها ابداً . وكان قد حدثني مرة قائلا انه اكتشف تحت ظروف خاصة مخجلة عجزه عن استخدامها في وقت كان فيه هذا النوع من السلاح جديداً على الناس .

كان صاحبي مضطجعاً مرة على رمال شاطىء ايطالي وبجانبه تلك البندقية عندما اقترب منه جماعة الايطاليين وسألوه عنها ، ثم تفحصوها برغبة واعجاب ، وتساءلوا هل من الممكن حقاً صيد السمك بسهام تطلقها هذه البندقية فأكد لهم صاحبي ذلك بفخر واعتزاز . وذكروا له ان استعمالها لا بد يتطلب مهارة كبيرة فازداد الرجل تيهاً،ورغبوا اليه في استعمالها بكلمات من الاعجاب والمراوغة وسألوه بهيبة ووجل عن كيفية تعبئتها بالسهام .

وكان يعرف ذلك نظرياً إلا انه لم يجربه عملياً . وكانت عند فوهة البندقيه عقدتان من المطاط في سمك الاصبع ويجب سحبها بقوة كبيرة حتى يثبتها عند شقين في نهاية انبوب الاطلاق . ولم يتصور صاحبي انه سيلاقي كبير صعوبة في ذلك وبسرعة تناول البندقية منهم .

وتحت نظرات الايطاليين المندهشة الساخرة جاهد صاحبي في سحب احدى العقدتين إلا انه لم يتمكن من سحبها الى اكثر من نصف المسافة عن الشق . واخذته الحيرة ولفّه الخجل فراح ينضح بعرق العار والخجل ورفع رأسه بعد عدة دقائق ونظراته تضج بحيرة لاهبة وانفاسه مضطربة ليقول لهم انه في الحقيقة اخطأ وان هذه البندقية لا تستخدم لصيد الاسماك واعادها الى انكلترا لكي لا تثير في نفسه ذكريات خيبته وفشله ... وهناك حصلت عليها .

وكنا في قلعة جابر قرب النهر حين فكرت في تجربتها لأثبت لنفسي اني اكثر كفاءة من صاحبها نفسه . وقبل استخدامها اوضحت للمشاهدين اني لم اجربها ولا مرة واحدة من قبل . وبسبب العقدتين من المطاط في طرفها اطلق عليها ملاحونا اسم ـ ام الكرون ـ (وبنفس الطريقة يسمون بيتاً معيناً : ابو البرغوث . ويشيرون الى شيخ كريم يضع عند باب مضيفه ضوءاً يدعو الغرباء لاستضافته في اي من ساعات الليل الطويل ، يشيرون الى هذا الشيخ : ابوالضّوه) ولم يكونوا اقل رغبة مني في رؤية ما يمكن ان تعمله (الكرون) هذه .

وجلست على ضفة النهر وضغطت البندقية الى بطني وحاولت سحب العقدتين بقوة حتى شعرت بالألم في مفاصلي وامعائي ونجحت اخيراً في ان اضع احداهما في

مكانها بأنفاس لاهثة وأتبعتها بالثانية وثبت مسمار الأمان في مكانه .

ولم يطق حسن صبراً فأحضر عدداً من (الطـّال) كهدف لي ووجدت نفسي في أتم استعداد للاطلاق ، ورمى واحدة من الاقراص في الماء الاصفر العكر على مسافة عشرين قدماً عني ثم جرفها التيار باتجاهي . وحركت مسمار الامان وسددت البندقية نحو الهدف بحذر وأخمصها على بعد انشين من وجهي وسحبت الزناد .

وفي لحظة شعرت بشيء يدق على جسر انفي بشدة وعنف فانقلبت على ظهري وحين نهضت اوتوماتيكياً باعياء وجدت قميصي مبللا بالدمـــاء النازفة من انفي بغزارة . واخذت افتش في جيبي عن منديل لأمسح الدم وما تحسست انفي حتى فوجئت بعظامه تطقطق في الداخل فتحدث صوتاً يشبه طقطقات مكعبات الزار . ولاح ثيزيجر متأثراً لاصابتي بيد انه لم يتمالك نفسه من الانفجـــار ضحكاً والدموع تنفر من عينيه كالدماء المتدفقة من انفي .

وفي تلك اللحظة راح احد العبيد ، وقد هزته حالتي ، يطلق صيحات عطف وخوف لحالي وصرخ بانفعال قائلا انه سيذهب للمضيف لاحضار دواء يوقف به نزيف الدم من انفي . واوضح له ثيزيجر انه سيحضر بنفسه دواء لي من صندوق الادوية الذي لا يبعد عنا غير بضعة اقدام ، الا ان ذلك لم يقف دون رغبة العبد البريئـة لاحضار الدواء من القلعة . وعاد بعد قليل وهو يلهث ويترنح من التعب والقى بين يدي قنينة دواء قرأت كتابتها بالانكليزية فأدركت انه يستعمل لعسر الهضم ، وهزّني أنا وثيزيجر منظر العبد وحماسه ليوقف دمي النازف بدواء عسر الهضم فلم اتمالك ان غرقت في موجة من الضحك شددت عليها اكتمها براحة يـدي ولكن دون جدوى ، ووجدتني وقد افلت من يدي زمام السيطرة على نفسي وانطلقت في ضحك وقهقهة عالية حتى ظن العبد انـــه حدث لاعصابي شيء بسبب ضربة البندقيه العنيفة .

وعندما توقف النزيف من انفي ونظفت قميصي من الدماء حاولت استخدام البندقية ثانية . وفي هـــذا الوقت وضعتها بعيداً عن وجهي واطلقتها وكانت من الشدة بحيث شعرت بآلام حادة في عضـــلاتي المتوترة . وهنا ادركت لماذا تحطم

انفي وأحسست بها وقد سلخ الخط المتحرك الذي يربط السهم الى البندقية انشاً من جلد اصبعي . ولم يكن امامي الا ان اعيد هذه البندقية المرعبة الى الطرادة ولم يجد معي دواء عسر الهضم الذي قدمه لي العبد ثانية لأوقف به الدم النازف ولكن.. من اصبعي في هذه المرة .

* * *

وغادرنا مضيف جابر عند العصر لزيارة جده محسن ، ولكننا عندما وصلنا إلى قلعته وجدناه يستعد للركوب في زورق بخاري لزيارة ابنه علي . فتركنا الطرادة مع الملاحين وصعدنا معه وشق الزورق طريقه بين القرى المزدحمة البرتقالية اللون تحت طيف الغروب اللامع .

وعندما وصلنا إلى المضيف كانت الشمس تنحدر وراء الافق لترسم اطياف الغروب الساحرة هناك . وكان المضيف يميل بزاوية حادة لأن اسسه قد تأثرت بالفيضانات قبل ثلاث سنوات . وقد وضع علي تصاميم لبنائه مجدداً في العام السابق غير ان قلة القصب في ذلك الوقت حالت دون ذلك . وقيل ان عاصفة لا مثيل لها هبت على المنطقة فتسببت في قتل عدد كبير من الناس ، واهلكت الطيور وهشمت قصب الاهوار فألقته محطماً على صفحة الماء كغلة انكليزية ملقاة على الارض في نهاية صيف انكليزي رطب عاصف .

ونقل العبيد عدة مقاعد ضخمة من غرفة الاستقبال في القلعة الى المضيف . وجلس محسن على احدها قرب المدخل بجسده الضخم المهيب وراح يدخن باستمرار . ولاح لي انه بشاربه الكث ولحيته البيضاء الكثيفة اشبه ما يكون بتشارلز لوفتون Charles Laughton . وكان كل رجل يقبل يده قبل ان يدخل المضيف ، وفي كل لحظة كان البعض يهمس في اذنه اشياء خاصة . وظهر في جلسته تلك ممتلىء الجسم الى حد كبير بيد انه يبدو بارعاً في الظهور بالمظهر اللائق بمكانته الرفيعة . وتجاهل نافضات السجاير طول الوقت وراح يرمي باعقاب سجائره على البواري دون ان يطفئها . وكان طعام الغداء فخماً متعدد الالوان ولكن محسن جلس في ركن خاص يتناول من سمكة كبيرة .

وبالرغم من عاداته تلك فإنه يعطيك انطباعاً واضحاً عن قوته وذكائه ولياقته للمركز الذي يحتله كأحد الشخصيات البارزة في جنوب العراق . وخلال مساء ذلك اليوم كان سركاله يجلس قريباً منه قمينا تلوح على وجهه علامـــات الدهاء والخبث مختلطة بآثار الجدري ، ويضع على ركبتيه دفتراً كبيراً يدون فيه بين الحين والآخر اشياء كالارقام الحسابية . واخذ محسن يتحدث مع ثيزيجر باهتمام وود بالـــغ ولم اتمكن من معرفة ما يدور بينهما بصورة واضحة وتراءى لي انهما يتحدثان عن امور خطيرة . وفجأة ظهر ثيزيجر في حيرة والتفت يسألني : «كافن ... كم طول حديقة سانت جيمس ؟ » واخيراً سألني : « ما هي الكلمة التي تستعملهـــا في الانكليزية للشخص الذي يقضي صباحه نائماً في الفراش ؟ » فاجبته *Slugard* . وسرعان ما امر الشيخ محسن سركاله ان يسجل هذه الكلمة في دفتر الحسابات .

اما علي بن محسن فقد لاح مختلفا عن ابيه الشيخ ، فوجهـه ترتسم عليه علائم الغطرسة والكبرياء وملامحه توحي بالشر . فعندما اخبر ثيزيجر مرة احد ملاحيه ان يشد الطرادة قرب القلعة الصخرية ، وجه علي اوامره ان يضرب ملاحنا هذا ويلقى في النهر . ويمتلك علي صندوقاً كبيراً مملوءاً بالمسامير والاشواك الحـادة يوضع عليها ويضرب كل من يثيره ويقلق راحته .

ولعلي صريفة انشأها الى جوار المضيف ، وفي هـذه الصريفة قضينا ليلتنا تلك وقد نمنا على فراش جلب الينا من القلعة . وقد اخذتني فرحـــة غامرة اولاً لاني تمكنت من الجـلوس بعد ذلك العناء على مقعد وثير ، وثانياً لاني استطعت ان استلقي على فراش ، ولكن فرحي كان اقل للظاهرة الغريبـة الثالثة التي يحتقرها معظم الشيوخ واعني المراحيض .

فخارج المدن لا احد ، فيما عدا الشيوخ ، يفكر بامتلاك المراحيض في بيته . ففي الاهوار يأخذ المرء قارباً ويذهب به صوب القصب الكثيف ، ويحط نفسه على جانب الزورق المتأرجح ، اما اذا كان في اليابسة فليس لديه إلا ان يبتعد عن الاكواخ قليلاً . (واذا كان لدى المرء خـــادم فإنه يقول له : « اريد ابريج » ومعناها اريد ماء اغتسل به . ثم يأخذ طريقه الى الخارج حاملاً اناء من الماء) .

ومهما يكن من امر فهنالك عدد من الشيوخ يمتلك مراحيض وعملها ليس هو قضاء الحاجة وانما للفخفخة فحسب . وتكون المراحيض عادة على ضفة النهر ، وتتكون من اربعة اعمدة يحيطها ستار من القصب والبواري تستر عن الانظار خندقاً مجوفاً محفوراً في الارض . ويستطيع المرء ان يستنتج بأن هذه الخنادق تصب ما فيها في النهر . وفي مثل ذلك الجو الجاف والشمس الساطعة يشكل مليون من الذباب غيمة فوق تلك المراحيض ، اما في الجو الرطب شتاء فمن الافضل ان نترك المنظر للمرء يتصوره .



الفصل السادس

وقمنا في صباح اليوم التـالي بسفرة قصيرة الى قرية ــ الصحين ــ ومررنا في طريقنا بمجموع الجاموس تقوده المشاحيف امامهــا الى الشمال .. الى قرية ــ ابو نعيجة ــ ويحث الجاموس على السير وسط المياه بإسماعه اصواتاً عــالية متعاقبة كأصوات وز وحشي . وقد كانت العاصفة ، التي سبق ان ذكرت شيئاً عنهــا ، مسؤولة ليس عن تدمير القصب وعرقلة علي عن بناء مضيفه فحسب وانما عن اكبر من هذا واخطر الا وهو القصب عمـاد اقتصاد سكان الاهوار . فقد قضت هـذه العاصفة على البردي والقصب فانهارت الحـالة المعاشية الواطئة لعدد كبير منهم فاضطروا إلى بيع جاموسهم في سوق ابو نعيجه .

وقرية ــ الصحين ــ عبارة عن مجموعة جزر مزدحمة بالاكواخ وتحتل بعضهـا جزراً قائمة بذاتها ، وتقطعها مسالك مائية كبيرة وصغيرة تلتقي مع بعضها البعض بزوايا قائمة كما تلتقي الشوارع في المدن . وانتصبت في وسط القرية قلعة صخرية صغيرة اقتحمها ــ دخيل ــ قبل اربع سنوات عندما اوشك الفلاحون على القيام بثورة ضد ابيه . وكانت القرية ما تزال محصنة وافواه البنادق تمتد من منافذهـا العليا بمعدنها الاسود . وقد كان فلاحو قرية اخرى قد ثاروا ايضاً قبل مدة قليـلة على شيخهم . وعندما تغلبوا على حاميته انتصرت الحكومة لهم واكدت استقلالهم ومن السهل على المرء ان يلاحظ ان اي حل معقول يمكن ان تقوم بـه الحكومة لمشكلة معينة قد يقود الى مشاكل اخرى .

وفي مثل هذا الوضع الذي يظهر فيه السكان كما لو انهم في حـــالة من حرب دائمة كان شيئاً مدهشاً ان نجد ــ الصحين ــ ... القرية الاولى التي نزورهــا ونجد اطفالها يذهبون الى المدرسة ولذلك تراهم يتكلمون بعض جمل انكليزية رغم انهم لا يدركون معانيها . ودراسة اللغة الانكليزية اجبارية في المدارس العراقيــة ، وتدرس بالطريقة المباشرة *The Direct Method* التي اوضحها دزموند ستيوارت وجون هايلوك *John Haylock* في كتاب ــ بابل الجــديدة ــ والتلاميذ يتلقون تعليمهم للانكليزية ، كما اكتشفت فيما بعــد ، بواسطة معلمين عراقيين يعجزون هم نفسهم عن الاستمرار بأبسط محادثة بلغة غير لغتهم الاصلية ، فيما عدا عدة جمل تعلموها كالببغاوات ليرددوها امام التلاميذ بصوت عــال من كتب بسيطة في تعليم المبتدئين على الانكليزية .

ارسلت بعد ظهر ذلك اليوم لأقوم بعملي الاعتيادي الحديث ، الذي لم يستقر بعد ، ألا وهو صيد الخضيري ودجاج الماء لوجبة العشاء . وأصر الغلام الذي كان يقود مشحوفي ان يجرب لغته الانكليزية وربما اراد التفوق على معلمه في تقليد قواعد أو لهجة رجل انكليزي حقيقي .. وهو انا . وقد كان عجيباً كثرة الكلمات التي استطاع ان ينطقها امامي في محاولاته تلك ، ولكن الاعجب من هذا كم كان ضئيلا ما يفهمه من معانيهــا .. لا شيء في الحقيقــة غير بضـــع مفردات بعد ترديدها مرات عديدة باستمرار .

ــ في الانكليزية ماذا يدعى هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى القارب واستطرد متعثراً : انك (لَمْ) اجبت على سؤالي .. هل محرك مائي ؟

وبعد فترة شعر فيها بالخجل قال : « الآن صاحب (لم) يكن ثيزيجر صديقك بعد الآن ، لأنه جداً يحب الاطــلاقات » ثم قال : « هل الصاحب ثيزيجر يحب الاطلاقات الفارغة ايضاً ؟ » وبعد قليل عاد يسأل : لماذا العراقيون صفر والانكليز حمر ؟ اجب على سؤالي .. انك (لم) اجبت على ســؤالي .. لماذا اصفر انا احمر انت ؟ » ولم يكن هو في الحقيقـــة اصفر ولكن وجهي اخـــذ يحمر بالفعل

كلما مرت الدقائق علينا ونحن في سيرنا في المور .

واخيراً نجحت في صيد واحدة من طير الخضيري ، وما وضع الشاب رأس الطير الى جهة الكعبة وراح يعمل سكينه في حنجرته حتى سألني « في انكلترا الى اي جهة تذبحون ؟ واستطرد ، وقد نفذ صبره ، قائلاً بصوت عالٍ وهو يشير بأصابعه المرتبكة : المسلمون الى هذه الجهة .. الرأس الى مكة ، في انكلترا كيف ؟ .. » وتبادر الى خاطري كيف انني كنت اتكلم مع عربي في مراكش عندما مر بائع الماء بقربته المصنوعة من جلد شاة ، يسبقه رنين طاساته النحاسية التي تكلفك فلساً واحداً لتشرب منها ، فسألني العربي : « ما سعر طاسة الماء في لندن ؟ » .

☆ ☆ ☆

ورأيت في قرية ـ الصحين ـ هذه الليلة لاول مرة راقصين محترفين ، وكانا رجلاً وابنه البالغ من العمر اربع عشرة سنة . وقد استدعاهم مضيفنا ليرقصوا لنا بعد العشاء ، بيد ان الغلام القى تحيته وجلس ، ولم تجدِ معه اية وسيلة في اقناعه بالرقص . وكان شعره الذي تنحدر خصلاته على كتفيه قد قُصَّ قبل يومين بسبب دخوله المدرسة ، فارتدى على رأسه طاقية حمراء مَرَّ عليها باصابعه بعصبية حالما جلس متربعاً ، وراح يحدق في الارض بنظرات شاردة . واخيراً ارتضى ان يضرب على الطبلة لأبيه الذي قام يرقص بدلاً عنه ، وبرقت الدموع في عينيه عندما لمح أباه يشد اطراف كوفيته لكي تشبه شعراً طبيعياً متلاعباً ولكنها لم تصبح كأكثر من حبلين يتأرجحان مع عقدة صغيرة شدت في منتصف كل منهما .

ونالت الوصلة الراقصة العنيفة التي قدمها الاب اعجابا مفروضاً فيه لهذا الراقص الماهر . ولكني لم استطع طوال الوقت ان احول عيني عن الغلام ، فقد كانت عيناه مثبتتان في الكوفية التي تمثل شعر ابيه والتي اخذت تتأرجح بنمط موزون وانحدرت على خديه دموع صامتة لم يلحظها أحد وراحت يداه توقعان على الطبلة بجنون وكأنهما تتمتعان بحياة مستقلة ، أو كأنهما مشدودتان الى قدمي ابيه المتلاعبتين

الراقصتين بخفة وليس الى ما يوحيه اليه رأسه الذي فقد تاجــه الرقيق من الشعر المتاوج . وللطبلة المصنوعة من جلد نعجة الماي رنين يشابه رنين آلة موسيقية وترية، والطريف في الامر ان ايقاع الطبلة يمكنه ان يكون حزينا شجيا يضرب على اوتار القلوب ، كما يمكنه ان يكون هادراً دافقا مشوشا في ضربات سريعة كما هو الحال الان . وكانت يد الغلام تضرب عليها بسرعة وبانفعال ظاهر ولكنه لم يحرك عينيه ولا مرة عن العقدتين المتأرجحتين على رأسه حتى انزلقت الطبلـــة فجأة من تحت يديه ، وعندمـــا انحنى ليلتقطها لاحظته يمسح بسرعة دموعـــه المتناثرة بطرف دشداشته وذكرني منظره هذا بشمشون المسكين بعد ان قُصّ شعره وبقي في الطاحونة مع العبيد .

***

وتردد اسم ــ غضبان ــ كثـيراً خلال الحديث حول الموقد في تلك الليلة وسألت ثيزيجر بعد فترة عمن يكون غضبان هذا فأجاب : « انه شخص خارج على القانون ... انها قصة غريبة تلك التي نسجت حوله » .

ففي نهاية الحرب العالمية الاولى رفض غضبان ، وكان ينتمي الى عائلة من قبيلة بني اسد ، الاستسلام للسلطات الانكليزية . وبنى له مكاناً حصيناً في احدى جزر الاهوار الطينية ، وتكللت الهجمات الاولى ضدّه بالفشل ، واخيراً قام الانكليز بمناورة للقبض عليه بمساعدة بعض الاشخاص من العرب الذين يتميزون بالجرأة والشجاعة . فأرسلوا طائرة حربية تحوم فوق تحصيناته بينما نصب له الاعراب كميناً في طريق عودته من الجزيرة ، وقد وقع غضبان في الفخ وغطس قاربه في الماء واصيب هو اصابة بالغة في ساقه . وهرب خلال القصب وهو يحمل طفله بين ذراعيه وفتش عن ملجأ بين عشائر الرعي في الاراضي المختلفة قرب الحدود الايرانية .

وحاول ــ فالح ــ اخو غضبان ، بعد ما يقرب من الثلاثين سنة اي في عام ١٩٥٤ ان يلعب نفس الدور ولكن بنجاح اكبر . فتحصن بنفس الجزيرة التي هرب منها اخوه وراح يسرق وينهب المناطق المجاورة واخيراً ادركت الحكومة

نواياه واهدافه فمنحته ارضاً يجني ثمارها ويعيش فيهـا . وانتشرت في ذلك الوقت اشاعة مفادها ان ـ فالح ـ تصدّى لثيزيجر وجماعته وانه جرت بين الطرفين معركة حامية . وقيل ان ثيزيجر نفسه هرب بعد ان أصاب ـ فالح ـ ورجاله بأضرار بالغة ، واشيع كذلك ان عمارة وسبيتي قد قتلا ، ولذلك فعندما وصلا الى قريتهما سالمين وجدا ان عائلتيهما كانتا تستعدان لاقامة الفاتحة على روحيهما .

وما سمع ـ غضبان ـ ، الذي قضى حياته بين قبائل الرعاة الى الشرق منفياً من الارض التي ظنها ملكه ، بما قام به اخوه وباتفاقه الاخير مع الحكومة حتى تراءى له ان بإمكانه ان يفعل مثله ، لذا عاد الى الجزيرة التي لعبت الآن دوراً كبيراً في تاريخ عائلته . واليوم وبعصابته المسلّحة راح يقتفي اثر اخيه في النهب والسلب . وفي الأسبوع الماضي سمعنا انه نجح في القبض على زورق في نهر الفرات محملاً بالتمر والبنادق .

واخذت افكر عميقاً بهذه المشاكل التي لانهاية لها ، واكبرت هذه الحكومـة الذكية على ما تقوم به لحلها . . وكيف ان حلاً عادلاً تقوم به لأحد المشاكل يمكن ان يجر وراءه مشكلة اخرى .

☆ ☆ ☆

وعندما غادرنا قرية الصحين غادرنا معا منطقة الاهوار الحقيقية واخذنا نسير في اراضٍ من حقول الرز نصف غارقة في المياه كاللقالق Storks ومالك الحزين Herons وأسراب هائلة من الطيور الخواضة تقف بينها النسور برهبة واعتداد ، والغريب في الامر هو ذلك التجاهل الذي تبديه بقية الطيور نحوها .

وفي ساعات متأخرة من اليوم التـالي وصلنا ـ ام كعيده ـ وهي قرية كبيرة تقع على ضفتي قناة واسعة معظم سـكانها من (السادة) . وكانت عـلاقة ثيزيجر بهم ضعيفة لأنه وجدهم أناساً منعزلين لا يرتاحون لمرأى (الكافر) بينهم ، غير انهم اخذوا يعاملوننا الآن معاملة تختلف تماماً عن ذي قبل ، حيث كانت سمعـة ثيزيجر الحسنة تنتشر في الاهوار سنة بعد اخرى وقد وصلت الآن الى هذه القرية فكانت

الدعوات توجه الينا من كلا الضفتين لتناول الطعام معهم .

وخلال سفرتنا الطويلة في مناطق الاهوار كنت أتأثر كثيراً للكرم العربي الذي يتضاءل الى جانبه الكرم الاوروبي حتى يصبح شيئاً جامداً فظاً ، لأن على الغريب ان يهيء في دماغه سببا واضحا معقولاً قبل ان يجرأ على دق جرس باب بيت في اوربا والا فلا يمكنه الدخول ابداً . واذا دخل الدار فيقدم له من الطعام ما لا يمكنه ان يسد به غائلة جوعه . اما في هذه المناطق ، حيث لا أبواب ولا اجراس ، فالغريب يدخل دون ان يسأل عن السبب في حضوره ابداً ، بل ان اي تأخير في تقديم الطعام للضيف يعتبر شيئا مخجلاً للغاية .

وربما لم يكن الكرم الاوروبي على فظاظته والعربي على اسرافه في الحقيقة غير مظاهر منفصلة للرغبة في السيادة واظهار القدرة والقوة ولكن الاول يعني شخصا واحداً في حين يعني الآخر العشيرة او الجنس كله .

وهبطنا في مضيف (سيّد) معروف كان يضع على عينيه نظارة طبية وفوق رأسه عمامة بيضاء ، ومنذ اللحظة الاولى راح يعاملنا بادب جم ولم يغادر المضيّف المكان عند دخولنا كما فعل اولئك الذين التقينا بهم فيما بعد .

وكانت وجبة الطعام فاخرة سخية . وقد جلس بيننا صبي تعلم في مدارس ـ العمارة ـ واخذ يعمل يده في دجاجة امامي يمزقها بين اصابعه وتمتم بانكليزية محطمة وهو يناولني قطعة منها : « هنا .. أنا أأكلك ! » فقلت له : « اتعني انك تطعمني ؟.. » وراحت اصابعه تنبش في الدجاجة التي غطّاها المرق : « نعم !..» اخذ يرددها عدة مرات واستطرد قائلا : « أنا أأكلك .. أنا يأكلك كبيرجداً !.» وكان كالغلام الذي قاد مشحوفي في ـ الصّحين ـ لم يدرك معنى كلمة واحدة من اللغة التي يتكلمها .

وقررنا مغادرة القرية بعد الظهر وسرنا أكثر من ربع ميل ضد مجرى النهر والاكواخ تحيطنا من الجانبين حتى نادى علينا احد (السّاده) ان نهبط ونشرب الشاي معه . واعتذر ثيزيجر في البداية قائلا انه يوجد في منطقة بعيدة من يتوقع

وصولنا عند المساء ، الا ان (السيّد) اخذ يلح كثيراً . ولم تنته زيارتنا له عند شرب الشاي فحسب وانما قضينا ليلتنا تلك كلها معه . واظهر لنا كرما وادبا مفرطاً أثار انتباهي فظننته سيطلب منا شيئا كعادة رجل الاهوار قبل مصارحتك بما سيكلفك به .وبدأت الان ادرك شيئا من اللغة العربية،وغالبا ما كنت أفهم بعض المناقشات التي تدور . وبعد تبادل التحيات التقليدية وبعض الحديث سأل«السيّد» ثيزيجر عن سير عمله في التطبيب وعما اذا كان يحمل معه ادوية ، واضاف قائلا ان هناك بعض المرضى سيقدرون عنايته ويشكرونها ان هو قام بمعالجتهم .

وظهر فجأة اولئك المرضى المنتظرون بلهفة وكانوا حوالي اثني عشر غلاما يرفعون دشاديشهم بارتباك بعيداً عن اجسامهم . وكانت تلك المرة الاولى التي ارى فيها تأثير الجراحة المحلية واعراضها المرعبة ، وما رأيت ذلك المنظر حتى شعرت بان ثيزيجر يستحق ان يكون معبوداً ثانيا عند سكان الاهوار . وكانت قد اجريت لهؤلاء الصبية عملية الختان قبل حوالي ثلاثة اشهر على يد ختان متجول وكانت النتائج مما يحز في النفس ، فالمسحوق السحري العجيب قد أدى عمله بصورة لا يشكر عليها ، فأحدث التهابات حادة وتقيحا كبيراً عندهم ، ولاح وكأن من المستحيل شفاؤهم واندمال جروحهم . وقد عرض مضيفنا أمر تطبيب هؤلاء الاطفال على ثيزيجر بصورة مؤدبة مقنعة لأنه هو نفسه كان يرغب ان يجري ثيزيجر عملية الختان لابنه .

والاستغاثة وطلب المساعدة التي يقوم بها سيد الى (كافر) ليست بالشيء القليل هناك ، بل تعتبر من اعلى معاني الثقة والاطمئنان الممكن ، وقد رأيتها حققت نتائجها خلال سفرتنا عبر الاهوار فقد أحضر احد الختانين ابنه ، وبوجه تلوح عليه امارات الخجل ، راجياً ان يقوم ثيزيجر باجراء العملية لولده .

وكانت تلك المرة الاولى التي ازور فيها مجتمعاً من السّادة ، لأنني كنت اصادفهم خلال رحلتنا سابقاً افراداً بعيدين عن صنفهم وسط هذا التهويل والاحترام المبالغ فيه لمركزهم الديني (فكل شخص ينهض قائما عندما يدخل احد السّادة وعلى المرء ألاّ يتقدمه عند السير وألاّ يدير له ظهره مطلقاً) . انه لشيء

يلفت النظر ويؤثر في النفس ان تعلم بأن السادة انحدروا من صلب رجل لم يدّع الالوهية ابداً . وقد رأيت في تلك الليلة شيئاً لاح لي غير اعتيادي ، إذ اننا ما جلسنا حول النار في المساء حتى لاحظت عدداً من محفظات المسدس تلوح من تحت رداء مضيفنا والضيوف الآخرين وخالطني نفس الاحساس ، كما اذكر ، عندمارأيت صور ــ الجلاّوي ــ ذلك الشخصية الاسطورية وهو يسحب سلاحه بوجه اعدائه في مراكش ، أو كأنه ــ البابا ــ وهو يفتح نار بندقيته الآلية على جماعة البروتستانت الخارجين على الدين .



واخذنا نتجول لعدة ايام في الاراضي الزراعية والمناطق المحيطة بالاهوار . وكنا نمكث في بعض الاحيان في اكواخ بدائية من القصب يغطي ارضها نثار القصب وفضلات الجاموس ولكنها سرعان ما تنقلب ، بعد بضعة دقائق من وصولنا ، الى ارضٍ اخرى مغطّاة بالسجاد والوسائد وفي احيان اخرى كنا نمكث في مضايف الشيوخ وقلاعهم . وانا الآن اتذكر احدى هذه القلاع وهي تعلوها آثار الاطلاقات التي شققت طابوقها وعلمت انها صمدت قبل عشرة اعوام امام حصار محسن الذي اندفع عليهم بموجات هائلة من رجاله ، واخيراً تراجع تاركاً امام جدار القلعة ستين قتيلاً من رجاله .

والليالي ... لن انساها ابداً ، تلك التي كنا نقضيها في الاكواخ او على ضفاف المسالك المائية بكل متاعبها وآلامها ، والصورة التي تتركها عند الانسان تظل ماثلة امامه لتحرك في القلب ابداً حنيناً اليها وسأظل اتذكر آلام التدليك قبل النوم .. والليالي التي تتماوج بالبرغوث .. وهل يمكن ان تغيب عن خاطري مشاحيف الاهوار بخيالاتها المقوسة وبانعكاسها في امواه يصبغها نور القمر بلون فضي ؟.. مطلقاً ! وستظل كذلك ماثلة امامي صورة قمر تلك الليالي العذبة وهو يسير بتؤدة وهدوء متعثراً بين حين وآخر بقزعات متناثرة من غيوم . ولا اظن ذاكرتي تغفل يوماً نسوة القرية وهنّ يندبن ويولولن على الموتى ، والرياح الرطبة وكأنني احسها الآن تهب على البيت طوال الليل تلفّحها قطرات من ندى .

وما تزال تداعب اذني تلك الاصوات التي تمزق صمت الليل من حولنا مختلطة بحسيس انفاس الجاموس عند نهاية الكوخ . وقد اعتدت ان استيقظ في بعض ساعات الليل لأستوعب بكل حوامي هذه المناظر وتلك الاصوات بألفة حبيبة .. اني اتذكر في لحظتي هذه كل ذلك كشريط سينمائي من ذكريات الطفولة ... اتذكرها كما لو انها كانت اشياء خبرتها في زمن ما وعبرت عليها الايام ..

☆☆☆

وفي – الهدّام – وهي قرية تقع في منطقة من الاهوار الموسمية وصلتها مياه الفيضان حديثاً اخبرونا ان المنطقــة المحيطة بهم يهددها خنزير شرس وان احد الاطفال من قرية مجاورة اصابته انياب هذا الخنزير الوحشي قبل اسبوع ، وهناك كانت لي تجربتي الاولى في صيد هذه الحيوانات بطريقة جديدة .

وتنبثق على مسافة نصف ميل من القرية جزيرة منخفضة تتدرج في الارتفاع من حواشيها الى قمّة في الوسط مغطاة بالحشيش . وما صعدنا المنحدر حتى لاحظت انها خاصة بدفن الموتى فقد تناثرت على الطين اليابس البني اللون قطع من المعادن المتصدئة وشظايا لامعة من فخار اخضر وازرق وعظام بشرية مبعثرة وانتصب على الأكمة المغطاة بالحشيش نسر اسود ولم يتحرك من مكانه حتى صرنا على مسافـة عشرين ياردة عنه .

ومن اعلى نقطة في الجزيرة الصغيرة اخذنا ندور في المنظار بهــذا المنظر الميت والماء يمتد من كل الجهات حتى الافق متعثراً هنا وهناك ببقع من اليابسة وبأعواد البردي المتناثرة وبمساحات صغيرة من القصب البعيد الكثيف . كان منظراً يصطبغ بزرقة السماء الباهة وباللون العسلي للقصب والطين . والغريب في الأمر كيف يظهر للعين المجردة فارغاً لا روح فيه ولا معنى في حين يبدو مزدحماً بكل شيء اذا نظرت اليه خلال عدسة منظار . وحيثما وجدت بقعة من اليابسة ترى اسراب الطيور المائية الخواضة الصغيرة تغرد هنا وهناك . وكشفت بعض الجزر عن نفسها من خــلال العدسة فتراءت وكأنها اكداس من طير الخضري النائم . وانبثقت امام عيوننا فجأة منطقة من الطين على مسافة ربع ميل وكانت ... العدو الاكبر .. خنزيراً وحشياً

نائماً . ولاح الحيوان عظيماً في وضعه ذاك .

وكانت الفرصة الوحيدة التي يتاح لي فيها تفحص احد تلكالخنازير الوحشية . وكان الخنزير ضخماً كالحمار ، ولكنه بالتأكيد اكثر قوة ومتانة . وجـلده وشعره ممزقاً ، وشعره طويل بلون طيني شاحب يتجمع عند بعض اجزاء جسـده ويلتف على بعضه ، فتتوضح بعض خطوط سود وبقع خالية على جلده .

وسرنا في منحدر الجزيرة وأخذنا نخوض نحوه لأن المياه الضحلة تحـول دون استمرار الطرادة على السير في كثير من المناطق . وكان الماء بارداً قارصاً لا يزيد عمقه عن الركبة ، بيد ان قدم المرء تغوص في قاعه اربعة او خمسة انشات اخرى من الطـين اللزج . وبعد ان سرنا مايقرب من العشرين ياردة خلعت حذائي الذي اختير بحيث يمكن خلعه بسرعة عند دخول احدى الدور ،وبعد ان تقدم جماعتنا في سيرهم خمسين ياردة كنت انا قد تأخرت عنهم حوالي عشرين منهـا . ولم يكن سروالي الذي تعذر على تثبيته في مكانه عند رفعه لكي يسهل على الخوض في المياه. — بينما ليس على الآخرين الا ان يرفعوا دشاديشهم ويلفوها حول وسطهم — اقول لم يكن سروالي هذا هو العائق الوحيد لسيري ، فحين خلعت حـذائي وصرت أسير حافياً وجدت الطين تحت قدمي وقد زرع باعقاب القصب المحـترق الشائك كإبر قنفذ ، واحسست وكأنني اسير على فراش من مسامير لأحد الفقراء الهنود . وكلما سرت خطوتين او ثلاثا انزلقت قدمي في آثار عميقة لأقدام حيوان او انسان كان قد مرّ بهذا الدرب في مرة سابقة . وكلمـا ترنحت لأحفظ توازني انزلقت قدمي الاخرى فوق الاشواك وهي تئن تحت ثقل جسدي . وتخلّفتُ الى الوراء كثيراً بينما كان ثيزيجر وعمارة يسيران امامي بثبات .. الاول بحذاء من المطاط والآخر بقدميه الصلبتين الحافيتين ابداً وبباطنهما المتحجر اللا حساس ، دون ان يتعثرا كما لو انهما يسيران على ارض يابسة ناعمة .

واصبح ثيزيجر وعمارة على مسافة مائـة وعشرين ياردة عن الخنزير بينما كنت انا وراءهم اسير في ضعف تلك المسافة ، وقبل ان يقف الحيوان قائماً على قدميه نظر اليهما بوحشية ورعب ، وخطا خطوة او خطوتين ثم التفت ليحدق فيهما مرة ثانية .

وثبت ثيزيجر عصاه الطويلة ذات الرؤوس المدببة في الطين واسند عليهـا بندقيته ثم صوبها نحو الهدف .

واخيراً وجدتني وليس لي الا الاستسلام لفضيحتي ، حيث انـني تخلّفتُ الى الوراء وبقيت اترنح في سيري بين دجاج الماء . واخطأ ثيزيجر ، وهو الصياد الماهر ، الخنزير ، اما عمارة الذي اخذ تدريبه الكافي وصار يتمتع بقدرة كبيرة في الرماية فقد اخطأ هو الآخر الهدف ثلاث مرات . ولكن الاطلاقة السابعة اصابت الحيوان المرعب في اضلاعه ولكنها لم تطرحه ارضاً ولم تحل دون تقدمه . واخذنا نراقبه على بعد مرمى اطلاقة وهو يشق طريقه في المـــاء الضحل حتى اختفى اخيراً في متاهة من القصب تبعد عنا مسافة نصف ميل .

وتبعناه لنصف ساعة اخرى وانا اتعثر وقدماي محمّلتان بالوحل وكانتا تنزلقان بين الحين والآخر في آثار الاقدام وتتعثران بسيقان القصب المقطوع الحادة التي كانت تنغرز فيها طوال الوقت . ولما اقتربنا من القصب العملاق اصبح عمق المـــاء الى الفخذ وقـــاعه الطيني ناعما . ثم توقف ثيزيجر ليتكلم مع عماره فتمكنت ان الحق بهما .

وهنا ، حيث القصب كثيف الى حـــد يسهل معه اخفـاء خنزير جريح فيه ، تتكاتف الظروف المواتية لكل من في نفسه غرض خبيث . ورحنـــا نتقدم الى الامام بحذر وانتباه واسلحتنا مهيأة للاطلاق . ومن مكاني ، وانا الى الخلف منهم حدقت في جماعتنا واحسست ان الخطر الاكبر الان لا يتأتى من الخنزير وانمـا من احدنا على الاخر . فقد انفصل عماره عن ثيزيجر وراح يخوض في المياه ببندقيته المنتصبة افقياً وفوهتها موجهة من الخلف نحوي ، بينـما بقي حسن بسبب قلقه في منتصف المسافة بيني وبينهم وبندقيته الالية Golt 45 تهتز في يده وفوهتهـا تهدد كل واحد منـّا .

وعلى اية حال لم نجد الخنزير بين القصب ، ولكننا عندما ظهرنا في الجهة الاخرى رأيناه واقفاً جانباً في ماء ضحل على مسافة مائة ياردة عنا فأطلق عليه

ثيزيجر وعماره النار في وقت واحد ، وفي هذه المرة سقط ميتاً وقـد اخترقت الاطلاقات قلبه .

وكان ذلك هو الخنزير الوحيد الذي اتيحت لي فرصة قياسه من بين العدد الكبير من الخنازير التي قتلناها فقد اضطجع هامداً بلا حراك في ماء عمقه عدة انشات فقط . ونشرت شريط القياس من أحد حوافره الامامية بينما امسك به عماره وشده الى الكتف فكان ارتفاعه ثلاثة واربعين انشاً ، ومع انه ظهر كبير السن وانيابه معقوفة الى اعلى نحو لحم عينيه فإني متأكد انه اصغر من عدد كبير من الخنازير التي استطعنا رؤيتها وقتلنا بعضها فيما بعد ، بل انه اصغر حجماً من الخنزير الذي اوشك ان يقتلني بعد مرحلة اخرى من رحلتنا .

* * *

وقرب قرية ــ الهدّام ــ التقينا لأول مرة بمن صارحنا بعداوته ومقته لنا وكان احد افراد عائلة الشيخ . وعلى الرغم من ان الشيخ نفسه كان حسن النوايا مؤدباً بسيطاً ، ويشبه في هذه الصفات الشيخ محسن غير ان ابنه شاب عدائي المنظر يلبس في احد اصابعه خاتماً ضخماً من الجواهر ، ومنذ اللحظة الاولى اخذ يرشقني بنظرات حادة كما لو انه يرغب في اثبات وجوده بأية وسيلة كانت .

وعندما فرغنا من طعامنا بدأ القرويون يتوافدون نحو القلعة ليعالجهم ثيزيجر واخذ هو يعمل ما يقارب نصف الساعة في الارض المحيطة بالقلعة والمرضى يكتظون من حواليه . وكان ثيزيجر يعالج فتاة يناهز عمرها الرابعة عشرة من العمر عندما اندفع ابن الشيخ راكضاً من القلعة وهو يصيح بالناس ان يتفرقوا وصرخ بوجه ثيزيجر قائلاً انه لعار كبير عليه ان يعالج فتاة من عشيرتهم ، وأخذ يهدر بأحقر كلمات مخجلة مهينة . وكان طبيعياً ان يغضب ثيزيجر فالادوية التي يستخدمها قد كلفته اثماناً باهظة ، وهو الذي خاطر بحياته لمواجهة الامراض وعدواها مضحياً بجهوده واتعابه في خدمة الناس [1] . وتدخل الشيخ نفسه في

(١) اود هنا ان اقتبس جواب الدكتور شاكر مصطفى سليم مؤلف كتاب الجبايش ←

الامر مشيراً لثيزيجر الا ينتبه لكلام ولده وان يعالج من يرغب في معالجته بيد ان الجو خيّمت عليه ظلال من كآبة وغموض . واغلق ثيزيجر صناديق الادوية وعدنا ثانية الى الظلام المزق في غرفة الاستقبال بالقلعة . ولم يتبعنا لا الشيخ ولا ابنه ولكن جاء احد الزنوج بعد مضي عدة دقائق كمندوب عنه يلتمس فحص طفله الذي يتمتع بصحة جيدة .

وان لم يكن ذلك الحادث بالكبير الأثر الا انه ذكرني بما سمعته عن معاملة المسلمين للنساء . ومن السهل ان يتجاهلهن الشخص الغريب ولا يسأل عنهن او يلقي عليهن التحية او حتى ينظر اليهن . ويذهب الامر أبعد من هذا فإنك لاتسأل في القرية عن عائلة الرجل فلان لأن هذا ضمنياً يشمل نسوة تلك العائلة ولا تلبس نسوة العراق الحجاب ولكنهن ، بين الناس البدائيين ، نادراً ما يسمحن بالتقاط الصور لهن ، لذا تراهن وعيونهن مشرعة تراقب الكاميرا فأصبح من المستحيل ان تلتقط لهن صورة دون ان يعلمن بذلك . والشابات من القرويات يتمتعن بقسط وافر من الجمال .. بعيون ناعسة كبيرة كثيراً ما وصفت بعيون الظباء ، وبشرة ناعمة ، وشعر — عندما لا يخّضب بالحناء ولا يعقد في ضفائر قصيرة قبيحة — يصفف عادة وينشر فوق الجبهة ... اسود جذاباً متاوجاً بعذوبة . وغالباً ما تشوه بشرة الوجه في سن المراهقة بواحدة او اكثر من بثور مرض يدعى (حبّة بغداد *Baghdad boil*) وفي نفس تلك السن تراهن وعلى وجوههن بقع من الوشم ليست كثيرة في عددها الا انها كفيلة بإقلاق مثل هذا الجمال الذي يعتمد على الطبيعه والفطرة والبساطة . ولا توجد اختلافات كبيرة في لون الوشم وزخرفته

← عندما سئل في مقابله صحفية مع جريدة — الشعب البغدادية بعددها الصادر في ١٥ حزيران سنة ١٩٥٨ عن رأيه بثيزيجر فقال : « لقد قابلت ثيزيجر واتصلت به .. واني اراه غامضاً غاية الغموض ومهمته محفوفة بالأسرار . ولا يمكن تفسير السبب الذي يدعو الى انفاق الاموال الطائلة في مناطق الاهور ولا يمكن معرفة المصدر يتزود منه بالنقود ، وقد نال ثيزيجر اعجاب المعدان بثقافته وبراعته في الصيد اذ ضرب رقماً قياسياً في صيد الخنازير كما نال رضا الشيوخ بما يهديه لهم بنادق ثمينة وسواها من الهدايا ، وعلى اقامة ثيزيجر الطويلة في الاهوار فانه لم يقدم لنا الا مقالاً صغيراً واحد (زاغل) فيه فنشره مرتين واثبت فيه جهلا فاضحاً ببعض الامور .. » .

المترجم

عندهن ، فلونه ازرق معتم ، وغالباً ما ترى الوشم في خط على الحاجبين ، او ان يقتلع شعر الحاجبين ليحل خط الوشم مكانها . وتكون خطوط نقوش الوشم مستقيمة دائماً ولكنها تشوه رقة البشرة الغضة النضيرة في الجبهة والصدغ . ويهبط خط عريض من الوشم من وسط الشفة السفلى ويمتد احياناً حتى الحنجرة وبين النهدين بامتدادات على شكل زوايا قائمة تصل الى ما فوق الجذع ، وكل واحد منها تتفرع منه نتوءات تشبه اسنان شوكة الطعام ، وقد لمحت ذلك مرة او مرتين خلال مناسبات نادرة ، الا اني لا اعرف الى اي مدى يمتد هذا الوشم عادة في الاسفل . وتحمل اليدين والرسغ تلك النتوءات التي تشبه شوكة الطعام ولكن بخطوط مستقيمة . وغالباً ما تصبغ القرويات باطن الكف والاظافر بالحناء . ومع ان لباس المرأة الاعتيادي للعمل اسود ، والعباءة عند النساء تقابل الدشداشة عند الرجال وتختلف عنها قليلاً فيما عدا خط الياقة الدائري والكمية الكبيرة من القماش فيها ـ والفتيات والشابات منهن يرتدين على الغالب ثياباً ذات الوان مختلفة قرمزية وزرقاء بنقوش من الازهار ، ولا تلبس الفتيات غطاء على الرأس فيما عدا طرحة سوداء تتهدل على الكتفين وتراهن ينظرن من تحتها الى الرجل الغريب بعيون ظباء مشبعة بمعاني الاغراء والشك .. ايضاً ، في حين ترتدي النسوة الكبار حول رؤوسهن قطعاً من القماش الاسود تلتف حول الرأس كعمامة كبيرة وتتهدل اطرافها الى اسفل جانبي الوجه وتحت الذقن مما يكسبهن منظراً لا ترتاح له العين، وقد تصل اطرافه احياناً الى الثدي وغالباً ما تشد اليها بعض الاشياء للزينة .

وتحمل النسوة هناك كميات كبيرة من الحلي ومن المعادن الثمينة وغير الثمينة ايضاً كأقراط الفضة والفيروز ، وتتدلى من احد فتحات الانف عادة حلية كبيرة. ويلبسن كذلك عدداً كبيراً من الاساور والخواتم ولكن ، بينما ترى الرجال والاولاد يحملون الخواتم في اليد اليمنى تشاهد النساء يلبسنها في كلتا اليدين . وربما كانت اغرب حلية اشاهدها عند نساء الاهوار هي الحجول الضخمة من الفضة اللامعة وهي كبيرة الحجم حتى يتراءى انه لا يمكن لمن يلبسها ان يسير دون بذل جهد كبير في ذلك . وتكون الحجول اسطوانية الشكل ، تشبه نعل الحصان ،

ومفتوحة عندنهايتها وترتفع الى الاعلى قليلا عند الكعب ، امـــا الفتحة فلا يزيد عرضها على انشواحد . ومع اني تمعنت فيها كثيراً الا اني خرجت بنتيجة واحدة وهي انه لا يمكن اخراج الحجل من القدم ابداً دون قطع معدنه [1]

وتتزوج الفتيات الشباب من الرجال وينـــدر ان يتأخر الزواج عن السابعة عشرة من العمر وفي معظم الاحيان يكون قبل هذه السن . وتأتي الفتاة الى فراش الزوجية عذراء طاهرة لأن قيامها بعملية جنسية قبل هذا لايعني بالنسبة لهـــا غير الموت لأن هناك الاخوة الذين يقطعون منها الحنجرة ، اما الزاني فلا يعتبر مجرماً . ويأتي العار العظيم في نظر ذلك المجتمع عن طريق النساء فلا رحمة ولا شفقة للمرأة على يد رجل عائلة ان هي قامت بتلك العملية قبل الزواج . واذا ما مثل القاتل امام المحكمـــة فلا تصدر عليه احكام مشددة ، ونفس الشيء ينطبق على قضايا القتل العشائري ، وانما يحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بدلاً من خمسة عشر عامـاً كما في الحالات الاعتيادية ويندر ان تجد نساء مومسات في تلك المنطقـــة ، واذا وجدن فخارج مناطق الاهوار .

ويقوم الوالدان باعداد الترتيبات اللازمـة لزواج ابنائهم ، ومن المحتمل ان الرجل في الاهوار يعرف زوجة المستقبل بالرؤية فقط ، الا انه لاتوجد ثمـة اسباب معينه لاختيارها دون غيرها . ولا بد ان يكون الزوج من نفس العشيرة التي تنتمي اليها الفتاةما عدا حالات شاذةنادرة .ويدفع الزوج او والده الى العروس مبلغ ٧٥ ديناراً اوثلاثة رؤوس من الجاموس (وبما ان الثأر يسوى بدفع دية من سبع نساء فعلى هذا يمكننا تقدير قيمة الرجل بحوالي خمسماية دينار) .

ويحق للمسلم حسب شرائعه الدينية ان يتزوج اربع نساء في اي وقت يشاء ، زد على ذلك ان الطلاق يتوقف فقط على دفع الرجل لمؤخر الصداق دون حاجة الى ذكر الاسباب التي دعته الى ذلك .

ولكن معظم سكان الاهوار لا يمكنهم ، لأسباب اقتصادية ، ان يتمتعوا بهذه

---

(١) في الحقيقة انه يمكن اخراج الحجل من القدم دون ما حاجة الى قطع المعدن كما ظـن المؤلف . المترجم

الامتيازات وان يتحملوا المسؤوليات المترتبة عليها، ولذلك فهم نادراً ما يتزوجون بأكثر من زوجتين او بزوجة واحدة وبلا سراري . بيد ان الامر يختلف بالنسبة للشيوخ اصحاب المقاطعات الكبيرة والثراء الوافر . فبعد سفرة استغرقت يومين عند عودتنا من قرية ـ الهدّام ـ مكثنا في قلعه شيخ كان قد سافر قبلنا لزيارة احد اقاربه فاستقبلنا ابنه وكان شاباً ممتلىء الجسم ناعم الوجه لا يزيد عمره على خمسة عشر عاماً غير انه يمتلك ثلاث زوجات .

وقد وصف ثيزيجر في احد كتاباته حفلات الزواج عند المعدان والتي هي عادات اجتماعية اكثر منها واجبات دينية قائلاً : « الزواج عند سكان الاهوار مناسبة كبيرة لاقامة الافراح ، فإذا كانت العروس من قرية اخرى فإن اصدقاء الزوج ينطلقون عند الصباح بمشاحيفهم لاستقدامها ، ولا يصحبهم الزوج في ذلك وانما يظل ملازماً الدار . وينصرم يومهم في قرية العروس بالرقص والغناء . ويجتمع الكل عند المساء في بيتها يرددون (الهوسة) رقصة الحرب . وينشد احد الرجال بيتين من الشعر يرددها الجميع وراءه وهم يضربون على الارض في شكل دائرة من حوله ويلوحون بأسلحتهم ويطلقون منها عيارات نارية . ثم تجلس العروس في القارب وتؤخذ الى قريتها الجديدة ... قرية الزوج المنتظر يصحبها عدد كبير من (المشاحيف) تعد بالعشرات وهم يغنون ويرقصون ويطلقون النار من بنادقهم . وتعرف هذه الجماعة (بالزوافيف) وخلال سيرهم يهبطون عند كل قرية يمرون بها وينزلون في احد الدور ليرددوا (هوساتهم) ويصل الفرح والانفعال ذروته عندما يقتربون من بيت الزوج . وكنت قد اشتركت حديثاً في الاحتفال بزواج شاب يتيم يدعى (دخيل) . وكان قد باع كل شيء يمتلكه تقريباً من اجل توفير مهر الزوجة في حين لا يملك هو حتى كوخاً لنفسه . وقد نصب ناموسية صغيرة حمراء في مؤخرة بيت ابن عمه لتكون فراش الليلة المشهودة ، لذلك امضى معظم ساعات يومه في توسيعها . ولأنه ينتسب الى عشيرة اخرى فقد ظهر واضحاً ان عرسه سيكون بسيطاً ، ولما كان صديقاً مخلصاً لي فقد اصطحبت معي عدداً من الرجال واطلقنا عدداً لا يستهان به من الرصاص ونحن في طريقنا لاستقدام عروسه وقد

أثارت اصوات الاطلاقات الكثيرة المعدان من القرى المجاورة فشاركونا في ذلك ، وصار عرس (دخيل) في هذه القرية على الأقل ، اكبر احداث ذلك العـــام . وعندما حلّ المساء غصّ البيت بالناس حتى اضطروا إلى الجلوس في مشاحيفهم خارج الكوخ بينما استمر الغناء والرقص في الداخل . وغادرته عند منتصف الليل ظناً مني انه سيكون مسروراً لو غادر الناس البيت . وحين رأيته في الصباح كان حاسر الرأس وقد تمزق قميصه الجديد . وعلمت انّ اصدقاءه الذين تركتهم معه اخذوا يسخرون منه مدعين انه عندما دخل على زوجته القته في الماء ، غير انه انكر التهمة عنه بسخط وغضب . ولما كان من عادة المعدان انْ يطلق الرجل اطلاقة واحدة حينما ينتهي من عملية الدخول على عروسه فلا بد ان (دخيل) قد فتح بندقيته باطلاقة مزقت اجواء الفضاء [1] ».

وقد تلعب الزوجة في بيت الرجل من المعدان دوراً فعالاً في حياة العائلة . وتقوم علاقة متينة بين الزوجة وزوجها او ابيها إلا ان هذه العلاقة تتحدد وتقيد خارج نطاق العائلة . ويتناول الرجل طعامه عادة مع نساء عائلته اذا لم يكن بينهم ضيف غريب في حين تراهن يجلسن لشرب القهوة مع الضيوف الذين تربطهم واياهم صلات وثيقة وربما لا يتناولون الطعام مع الغرباء مطلقاً . ومع كل هذا فللنسوة هناك مركز دقيق في العائلة ، ليس تافهاً فحسب وانما يجب على النسوة عدم تجاوزه . واذا ما افترضنا ان ثمة عائلة من المعدان انتقلت مباشرة من الاهوار الى مدينة اوروبية فالنساء في هذه الحال هنّ اللواتي ينهضن في المجالس العـامة ليتركن مقاعدهنّ للرجال الذين يجب ان يقدم لهم الاحترام قولاً وعملاً . وحين يسافر الرجل مع عائلته فإنه يأخذ مقعد الشرف متقرفصاً في داخل المشحوف وهو يدخن لفافاته ببلادة وغباء في حين يقوم النسوة بالجذف لأنه شيء لا يليق برجولته انْ يعمل مثلهن [2] . وبنفس الطريقة حددت العادات والتقاليد للمرأة الاعمال التي

---

(١) ذكر ثيزيجر ذلك في نفس مقالته الوحيدة عن الاهوار بعد اربع سنوات من الزيارات المتوالية لتلك المناطق ، وقد ترجمها الاستاذ باقر الدجيلي بعنوان (المعدان او سكان الاهوار) .

(٢) (ولكن يجب على الرجل ان يسير المشحوف الذي تركب فيه معه امرأة داخل القرية) . (الجبايش ـ الدكتور شاكر مصطفى سليم) .

ألا تعتبر من اختصاص الرجل . فليس ثمة رجل يجلب ماء الشرب اذا كانت المرأة حاضرة ، وليس ثمة رجل يفكر يوماً يجمع فضلات الجاموس (السرجين) او يقوم بطحن الحبوب . ويكاد هذا العمل الاخير خاصاً بالمرأة ومن الصعوبة بمكان ان نتصور الرجل يوماً وهو يقوم به . وقد اعتدت رؤية منظر طحن الحبوب هذا مربعاً خلال اقامتي في الاهوار . وتتم العملية بأن تضع اثنتان من النسوة بعض الحبوب في وعاء يتشابه بشكله في جميع مناطق الاهوار ، ويبلغ طوله القدمين . والوعاء عبارة عن جذع نخلة مجوف يقف باستقامة وكأنه برميل ضيق ، وتمسك كل منهما بطرف مطرقة خشبية تستخدم ايضاً لرض" القصب قبل صنع البواري ثم تتناوب الامرأتان على الدق في البرميل بنغمة رتيبة ، وفي الوقت الذي يصدر فيه هذا الوعاء نغمته تطلق احداهن لصاحبتها معه نغمة من طبقة موسيقية مختلفة . ويظن من يسمع هذه الاصوات بأنه يستمع الى لعبة (تنس) يتقاذف الكرة فيها مضربان اوتارهما من حديد احدهما يصدر صوتاً حاداً والآخر اهدأ . ولا يليق بالرجل هناك ان يصدر مثل تلك الاصوات [1] .

وسواء كان العمل الشاق أو الولادات الكثيرة أو الامراض المتوطنة سبباً في انهاك المرأة في الاهوار فإنها تشيخ بسرعة كبيرة ولا تتمتع بريعان صباها وروعة شبابها الغض الا قبل سن العشرين اما بعده فإنها تبدو كبيرة وكأنها في منتصف عمرها. اما الوفيات بين الاطفال فكثيرة . وسكان الاهوار لايتبعون طريقة معينة لمنـع الحمل ، وعلى هذا فلا بد ان يظن المرء بأن رجل الأهوار الذي يتزوج من امرأتين لابد وان يمتلك في اخريات ايامه حوالي خمسة عشر اوعشرين طفلاً ، ولكن الواقع يدحض ذلك فالطبيعة بأمراضها العديدة قـــد حددت النسل عندهم بدرجة ادق مما تحدده العقاقير المانعة للحمل في العالم الغربي .

---

(١) الوعاء الذي يعنيه المؤلف هنا يدعى (بالجاون) ولكنه لا يصنع من جذوع النخيل وانما من الخشب الصلب المجوف ، ولا يمكن طحن الحبوب ، كما ظن المؤلف ، وانمـــا يستعمل لازالة القشر الخارجي والداخلي عن حبوب الرز .

المترجم

الفصل السابع

وعندما غادرنا – الهدّام – كنا ما نزال نسير نحو الشمال .. الى خارج مناطق الاهوار . ومررنا في البداية خلال حقول رز تغطي المياه بعض اقسامها ، ولكن الاقسام الصالحة للملاحة منها هي قنوات الري الضيقة تحيطها ضفاف طينية عالية رخوة تتميز بالالتواءات الكثيرة الى حد يصعب معه على الطرادة ان تستدير فيها وشعرت وانا اسير لأول مرة مشياً على هذه الضفاف الطينية وكأنني طفل لم يتعلم المشي بعد . وكانت المسالك المائية تنحرف دائماً عن هدفنا وكأنهـا أزقة مدينة خيالية ، فكان علينا ان نرفع الطرادة المحملة بالامتعة مرة بعد اخرى فوق مناطق طينية لندفعها في قنوات ذات زوايا قائمة لنسلك طريقنا الاعتيادي . وكثيراً ما اخذ الجهد والتعب الممض ملاحينا وهم يخوضون في الماء الضحل الى منتصفهم لكي يضعوا الطرادة على مرتفع طيني بموازنة قلقة ثم يدفعون مقدمتها الى قناة جديدة .

وسرعان ما أصبحت ضفاف الجداول المتعرجة واطئة والمياه تفيض من حولها بصورة مستمرة حتى اختفت نهائياً تحت المياه العظيمة الممتدة امامنا . ولاح على البعد ، الى الشرق حيث تلتقي السماء بالماء عند الافق ، اسطول مبعثر من الطرادات والمشاحيف ذات المقدمات العالية تبدو في أبدع وأروع منظر . وفوق رؤوسنا خيوط ناعمة من نسيج العنكبوت تطفو في كل مكان من السماء الزرقاء يتعلق بها نثار من قطع البردي تسبغ عليها لمعاناً وضياءً فوق المياه الهادئة .

واخذنا نجذف لأكثر من ساعة فوق سطح البحيرة البراق . ومررنا في طريقنا

بجماعات من (البربرة) العراة الذين يصيدون السمك بالشباك ، ولثيزيجر معرفة قليلة عن هؤلاء القوم . وهم كالناس الذين يعملون في الحياكة اليدوية ، وكفلاحي الحدائق في المدن ، والى حد ما كبائعي الملابس المتجولين ينظر المعدان اليهم نظرة ضعة واحتقار ويمتنعون عن الاكل معهم أوالزواج منهم ، وهذا شيء غريب في حد ذاته ولكن لأن هذه النظرة لا تستند الا على طريقة الصيد التي يتبعها هؤلاء (البربرة) ولما كانت هذه الطريقة بالذات هي افضل طريقة في الصيد عند سكان الاهوار لذلك فإن خرافة احتقار (البربرة) هذه تافهة وليس لها ما يبررها . والعبقرية التي اظهرها المعدان القدامى في استغلالهم القصب الذي ينبت في الاهوار بصورة طبيعية مع ملاحظة قضية ادخالهم الحيوانات المحبة للماء كالجاموس مثلاً ، كل هذه توحي بأن اولئك المستوطنين الاوائل لا بد انهم اكتشفوا بسرعة الامكانيات الهائلة للسمك الذي يزحم مياه الاهوار . ولا يعرف احد كيف نشأت بينهم تلك الفكرة التي تعادي قضية صيد السمك بالشباك .

وتحت ظروف معينة يستطيع (البربرة) الحصول على ثروة كبيرة من عملهم . وقد رأى ثيزيجر قبل ست سنوات جماعة منهم يصطادون في ماء ضحل يزدحم بالسمك فكانوا يكسبون الف دينار في اليوم لمدة اسبوع .وكان هؤلاء (البربره) خلال ذلك يستأجرون المعدان كل يوم لسحب القوارب الكبيرة التي تبلغ حمولتها اربعين طناً الى اقرب نقطة يشحن فيها السمك الى بغداد .

وتوجد هناك بعض جماعات من (البربره) المستقرين ، غير ان القسم الاعظم من هؤلاء الناس يكونون نصف متنقلين من منطقة الى اخرى ، حيث علمتهم مئات السنين من التجارب والخبرة ان الزيادة والانخفاض في مستوى المياه تزيد من وفرة الاسماك .

☆☆☆

وأخذت تظهر في الجانب البعيد من هذه المنطقة المغطاة بالمياه الحواجز والضفاف الطينية مرة ثانية فوق سطح الماء . وأصبحنا حالا نسير بين قنوات الري التي تمد حقول الرز بالمياه ، ومرة اخرى كان علينا ان نرفع الطرادة الطويلة الكريهة

فوق الضفاف الطينية بين آونة وأخرى . ولكن ما كنا نتقدم وننتقل من قناة الى اخرى حتى تتدرج تلك القنوات في السعة والتنظيم اكثر فأكثر . ودخلت بنا احداها فجأة في نهر عريض يتفرع من دجلة الى الجنوب. ووصلنا (سوق الطُويل) القرية التي تكتظ بأكواخ القصب والتي تحف بضفافها بساتين النخيل ، انها من طراز يختلف عن اية قرية مررنا بها ، حيث توجد فيها اسواق تزدحم على طول ضفاف النهر بالناس الذين قصدوها لقضاء حاجاتهم [1] . والسوق في حركته الدائبة كأنه خلية نحل والممر الضيق بين الحوانيت والماء المتدفق عبر النهر ، كل ذلك كان يثير في نفسي ذكريات شارع القرية الاوربية في يوم السوق . وتسير في النهر الكبير سفن تجارية كبيرة ومقدماتها مقوسة مطلية بالقار تشمخ فوق المشاحيف والطرادات المحملة بالحاجيات المختلفة . وتلمع على الشاطىء هنا وهناك اثواب القرويين المختلفة الاشكال والالوان كما هو الحال في ملابس الناس في بغداد والبصرة . ولاح امامي معلم مدرسة ابتدائية يسير بملابسه الاوربية التي هي الزي الرسمي للموظفين المدنيين في العراق . وكان المعلم يتحدث بحماس مع قروي صبغت لحيته بالحناء ، ورأيت كذلك شرطياً بملابسه الخاكي يقف امام مركز الشرطة المبني من القصب وقد تراجع الى وراء ليفسح الدرب امام رجل دين يضع على رأسه عمامة بيضاء ، وكان الممر الضيق يقطع في عدة اماكن بقنوات عميقة تسير خارج القرية بين النخيل ويمتد عبر كل قناة جذع من النخيل يعبر عليه الناس دون حذر او اضطراب او حتى نظرة خاطفة الى اسفل .

وهبطنا في قسم من القرية خصص لبناء المشاحيف ونحن نشق طريقنا بصعوبة خلال حشد من الزوارق الراسية . وكان ثمة زورق كبير يزيد طوله على المائة قدم وقد انهمك اثنان من الرجال في وضع دفة جديدة له . وكان أحدهم يستخدم مثقباً كبيراً لا يديره المقبض الاعتيادي المعروف وإنما تديره آلة تستخدم كما يستخدم قوس الكمان . وعلى الضفة العالية القريبة من هذا المكان شيخ أبيض

---

(١) سوق الطويل صارت (ناحية الطويل) في الفترة الاخيرة .

المترجم

اللحية يرتدي ازاراً يغطي وسطه فقط ، وقد جلس الى جانب حوض كبير من القار يعبر من تحته نفق يتأجج بنار القصب . وكان الرجل الشيخ يحرك سطح القار المغلي من حين الى آخر بتؤدة وهدوء فتتصاعد منه فقاعات ونثرات صغيرة تندفع في الهواء ، وعلى بعد قليل منه جماعة من الرجال يطلون بالقار مشاحيف مقلوبة على وجهها .

وفي مضيف أحد (السّادة) قضينا ليلتنا لا يحرسنا كما اعتدنا عبيد مسلحون وإنما تحرسنا حيلة بسيطة خادعة . فبعد ان اضطجعنا لننام في الليل وضع مضيفنا عموداً طويلاً ، يستخدم لدفع المشاحيف في النهر ، افقيا عبر مدخل المضيف على ارتفاع قدم من الارض ، ووضعت عند المدخل ايضاً ادوات القهوة وأواني من الالمنيوم حيث يتوقع ان يصطدم بهـا من يحاول عبور العامود فيحدث بذلك صوتاً وجلبة كفيلة بايقاظ النيام في المضيف . وكان سبيتي هو الضحية الاولى لتلك المصيدة ، حيث خرج في الليل لقضاء حاجته الطبيعية ، وقد احسست به عندما نهض ليخرج . ويلوح ان سبيتي تذكر ان يقفز فوق العامود عند خروجه بيد أن تخدير النوم كان ما يزال يتململ في عروقه عند عودته فنسي العامود واصطدم بالاواني ولكن ... لم يستيقظ احد !

وكانت الاصوات التي يستيقظ عليها الفرد منا في بيوت القصب في الاهوار عادة هي نباح الكلاب او عراكها قرب جدران الكوخ الرقيقة أو اصوات البط على بعد قدم من رأسه ، او صياح ديك يستقبل اليوم الجديد . غير انه كان في هذا الصباح صخب وضجيج مائة عصفور ترفرف بين اقواس المضيف في الداخل وكأنها اصوات صناجات في ليلة فرح . وانقلبت على جنبي لألصق نفسي بالجدار وسحبت فوق رأسي بطانية لأضع حداً لهذا الدوي العنيف في اذني . وعندمـا فعلت ذلك سمعت صوتاً بين (البواري) التي تفصل بيني وبين العالم الخارجي . ولم يكن الصوت يبعد عن وجهي غير بضعة انشات (والبواري) ممزقة الى درجة تسمح لضوء الصباح الباهر ان ينفذ للداخل . وعلى ضوء هذا الشريط الذهبي من اشعة الشمس لمحت رأس غزال راحت عيناه العسليتان الباهرتان تحدقان باغراء

واعجاب في ظلام المضيف . وأخـــذ أحد اظلافه الرقيقة يداعب بلذة ويخدش باستمتاع جدار المضيف القصبي . وادركت ان التشبيه بعين الغزال الذي طالما اكثر شعراء فارس والهند استعماله كان في الحقيقة شيئاً واقعياً ، لأن هذه العين وهي قريبة من عيني كانت في سحرها وجمالها ولمعانها تشبه بصورة عجيبة مثيرة عيون الفتيات العربيات .

* * *

وعندما غادرنا قرية (سوق الطويل) انحدرنا جنوباً نحو الاهوار الدائمة ، ووجدت نفسي انظر الى الأمام بلهفة وشوق كبير ، الى العودة لذلك العالم العجيب من البحيرات والمستنقعات والقصب العملاق والاكواخ التي يحتل كل واحد منها جزيرة قائمة بذاتها .

وتحولنا من مجرى النهر الرئيسي الى قنوات أصغر فأصغر وأخذنا نسير لبعض الوقت بين المجاري الوعرة الضيقة لحقول الرز ، وجدار الرز أبداً يتراءى لنا عند الافق الجنوبي والشرقي شاحباً كئيباً . وبعد مضي ساعتين خرجنا الى منطقة كبيرة تغمرها امـــواه هادئة كتلك التي مررنا بها في اليوم السابق ، وعلى جانبها البعيد انتصبت صفوف القصب الذهبية . وعنـــدما اقتربنا منها انطلق في وجوهنا نقيق الضفادع بحدة ، وكانت في البداية همهمة مختلطة انضمت بعد ذلك ، كـــما في مرة سابقة الى بعضها كفرقـــة انشاد ضخمة اطبقت علينا اصواتها من جميع الجهـــات كجدران غرفة مغلقة .

وقد تغير مظهر الاهوار خلال المدة القليلة التي قضيناها خارجاً عنها ، لأن النمو في هذا الموسم سريع جداً وبصورة خاصـــة في الاهوار الموسمية التي تعتمد على ثلوج الجبال الشمالية . وانتشرت الاشواك الخضر للنباتات الحديثة العهد في كل مكان خـــلال القصب الذهبي القديم . وجثت عند اقدامها نباتات مائية لم تكن هناك من قبل . وما تدور العين الى اعلى حتى تصطدم النظرات اول ما تصطـدم بسماء زرقاء تنعكس على صفحة ماء تزخرفه اوراق ارجوانية ملقاة على سطحـه تختلط بخضرة نباتات مائية زاهية ، وينفرش فوق الكل اللون الاخضر والذهبي

البراق للقصب العملاق نفسه واطرافه العالية كأنها ذيول ديكة .

وبسبب هذه النباتات الجـديدة لا حت الاهوار مجاهل ومتاهات دون ان تقطعها ممرات معينة . ودهشت كيف يتمكن المعدان خلال كـل هذه التغيرات الموسمية من تمـييز طريقهم في الممرات المقفلة ، ويستطيعون بما لا يزيد عن العشرين كلمة اخبارك بمختلف انواع هذه المسالك المائيةوحتى انهم يستطيعو ان يحددوا لك ؛ بملاحظة عدد من اعـواد القصب المكسور او المهشم اي نوع من القوارب سلك هذا الطريق قبلهم ، هل هو طرادة او (بلم) او قارب صيد صغير .

واظن ان لدى هؤلاء الناس البدائيين ، الذين يعيشون حياتهم في بيئة واحدة لا تتغير مع بعض حاجات قليلة محدودة ، نوعاً او درجة من المعرفة او الذاكرة المصورة لا يمكن لرجل متحضر امتلاكها ابداً . وقد رأيت بعيني امثلة كثيرة على ذلك . فعندما كنا مرة نعبر احدى البحيرات صرخ حسن انه رأى مشحوفاً سرق من احد اصدقائه قبل عدة اسابيع مخفيا في مجاهل القصب على بعد لا يقل عن ربع ميل عنّا . وعند هذا المدى لم يكن بمقدوري غـير ان استنبط فقط ، مجرد استنباط ، وجود مشحوف هناك ولكني اعجز عن تمييز نوعه . وعندما ادركناه ظهر ان حسن كان مصيباً في قوله . وفي مناسبة اخرى كنا نجذف في الظلام خلال مجرى مائي عريض تحيطه ضفة طينية في منطقة أهوار موسمية ، والسماء يتوجها قمر فضي حجبته عنا غيوم ثقيلة ، والضفاف المحيطة بنا تبدو اكثر عتمة من السماء ، وكان معنا في الطرادة مسافر غريب عـائد من حفلة زواج في قرية اخرى ، وفجأة ... اطلق الرجل صيحة عجب واشار الى كتل سود لم تكن بالنسبة لي غير اشياء يمكن ان الحها بالظن والاحتمال اكثر منه بالرؤية الحقيقية ، وقد استطيع القول بأنها أشباح ، مجرد اشباح جاموس ، بينما هو على العكس من ذلك ادرك انها جواميسه التي فقدت من قريته . وانزلناه عند احدى الضفاف ليرجعها الى بيته ، وكانت فعلاً جواميسه المسروقة كما قال . وفي الحقيقة ان كل رجل منهم يدعي ان بإمكانه في لحظة واحدة تمييز جواميسه من بين الف من هذه الحيوانات المتشابهة الى حد بعيد ... يميزها بواسطة ندبة صغيرة على قرنها أو بنظرة خاطفة

الى جزء من جسدها أو بصوتها أو بأي شيء آخر فيها . واظهرت عدم اعتقادي بهذا الشيء الى ثيزيجر الذي نقل الكلام بدوره الى ملاحينا فلاحت عليهم علائم من غيظ وذكروا انهم اذا لحوا مرة ولو بالصدفة ، سطح بندقية ما فبإمكانهم تمييزها ومعرفتها بعد مضي سنة من بين عشرة آلاف بندقية من نفس النوع ، وهنا يجب الا يغيب عن بالنا ان ذلك لا يحدث بالطريقة الاعتيادية وهي حفظ رقم البندقية لأنهم لا يعرفون القراءة . واذا كان هذا الادعاء مبالغ فيه ام لا فالشيء الاكيد انهم يستطيعون معرفة وتمييز كـــل مشحوف عن الآخر ليس في قريتهم فحسب ، وانما عند كل القرى المحيطة بهم ولو على مسافة بعيدة .

* * *

كان قرص الشمس يميل نحو الغروب حين وصلنا قرية ـ كـدي ـ ... غروب ناعم بزرقة المحار يتخلله سرب طويل من الطير المعروف (بأبي منجل *Ibis*) وكان الماء الرقراق يعكس تلك الالوان الزاهيـــة في الضوء الخافت . ولاحت اكواخ القصب والمشاحيف الهلالية سوداء معتمة من بعيد ، وتراءت امامها اشباح البردي ترتفع في سماء يزحف عليها الظـــلام . ومن بعيد كانت تنحدر على صفحة الماء أصوات طبل كبير يضرب بإيقاع (الهوســـه) او رقصة الحرب التي لا تعلن عن الحرب فقط وانما عن افراح الزواج ايضاً .

ولم نستطع كبح جماح انفسنا في تتبع مراسيم تلك الحفـــلة مع اننا لم نكن من بين المدعوين . وما نزلنا في الاكواخ القريبة منا ونظرت حـــوالي حتى اثارت في نفسي تلك الاكواخ ثانية مرأى السفن الكبيرة الراسية في البحر . وصلت إلى اسماعنا اصوات الرصاص بينما العروس تنتقل من بيتها الى (عش الزوجية !) وكان بيت الزوج غير بعيد عنا . وفي الوقت الذي وصلت فيه العروس الى هناك ازداد صوت الطبل وحشية وحمّى ساعة بعد اخرى . ودخل علينا بعض الراقصين المحترفين ، الذين كانوا يقومون قبل قليل بالرقص في بيت الزوجة ، ليقدموا لنـــا رقصاتهم المثيرة . وتراءى لي وكأن عواطفهم قد ثارت بالمناسبة السعيدة لأن حركاتهم كانت اكثر من تعابير عاطفية مثيرة . وبعد ذلك عرضت امامنا رقصتان جميلتان .

وفي الوقت الذي غادرنا هؤلاء الراقصين بعد منتصف الليل بقليل خرج الضيوف من بيالتزوج ، وانساب ضوء القمر ناعمـاً هادئاً يغرق الكون . وبعد فترة قصيرة مزقت صمت الليل وهدأته اطلاقة عنيفة تعلن انتهاء عملية الدخول على العروس . وعند الهزيع الاخير من الليل انطلقت ثلاث اطلاقات اخرى في فترات متباعدة كانت كل واحدة منها تثير كلاب القرية فتروح هذه في عواء ونباح جنوني لاتهدأ ثائرته الا بعد مضي عدة دقائق .

وتلعب الاسلحة النارية دورها الكبير في حياة عشائر الاهوار . ولا تعتبر الحفلات ، مهما كان نوعها ، كاملة ما لم تتحد الاذن فيهـا اطلاقات بندقية في البيت الصغير . وتمتلك بعض العشائر من الاسلحة كميات اكثر من غيرها ، وتراءى لي ان عشيرة ــ الفريجات ــ عندها من السلاح ما يفوق اية عشيرة اخرى ، وربما تبلور ظني هذا بسبب اقامتنا الطويلة بين هذه العشيرة فعرفنا ذلك فيها عن كثب. (والعشائر تشتبك فيما بينها في معارك ضارية ولذلك فربما تضم القرية هناك اعضاء من عشيرتين او اكثر ، فقرية ــ كدي ــ مثلاً نصفها من عشيرة ــ الفرطوس ــ الذين يقيمون بعيداً الى الغرب ، والنصف الآخر من ــ الفريجات ــ . والعشيرة الواحدة في مناطق الاهوار ربما كان بعض سكانهـا من المعدان الحقيقيين الذين يستوطنون الاهوار ، والبعض الآخر من المزارعين الذين يعيشون في المناطق اليـابسة خارج الاهوار ، ولكن كل قسم منهما يشابه الآخر في اللهجة التي يتكلمون بها وفي استعمال الكلمات التي تعبر عن اشياء حياتهم هناك) .

والسلاح الاكثر استعمالاً في الاهوار هو البندقية التي تعبأ من فوهتها والتي تصنع محلياً ولذلك فقد ترى انبوبتها ليست اكثر من انبوب معدني قديم ، اما اخمصها فمن الخشب ويشد عادة الى انبوبة الفوهة من الاسفل بخيوط نحاسية أو معدنية من الالمنيوم ويثبت صاحب البندقية للزينة في بعض الاحيان قطعة او قطعتين من النقود بخشبها ، اما ذخيرتها فيمكن شراؤها من معظم القرى الكبيرة خارج مناطق الاهوار الدائميـة ، ويكون عبارة عن مسحوق اسود وصفائح مسطحة من كرات الرصاص تتصل مع بعضها البعض بشريط يمكن للمرء ان

يقطع منه العدد الذي يريده من الاطلاقات . وكرات الرصاص هذه ليست مستديرة تماماً لأن انابيب البنادق نفسها ليست تامة الاستدارة . وحين يكون صاحب البندقية غير قادر على شراء تلك الذخيرة فإنه يملأها بأية ذخيرة اخرى يحصل عليها ، ولكن المعادن بأنواعها المختلفة تتمتّع بقيمة كبيرة عندهم .

وتأتي بعد هـذا البنادق الانكليزية S.M.L.E. ويدعوها سكان الاهوار (الكركه Ghurka) وقد دخلت هذه المناطق عند دخول الفرقة الهندية في الحرب العالمية الاولى ، ثم البندقية الايرانية التي يسمونها (برنو Brno) باسم مصنعها التشيكوسلوفاكي . وكان ممكناً شراء مثل هذا السلاح خلال الاحتلال الانكليزي بأربعة دنانير ، اما الآن فمع ان معظم سكان الاهوار فقراء غير أن سعر البندقية ارتفع الى المائة دينار والخرطوشة الواحدة الى نصف دينار .

والمعدان براعة مدهشة في استعمال البندقية التى تعبّأ من فوهتها وخاصة اولئك الذين يستخدمونها لصيد الطيور . وهم بالطبع لا يطلقون النار على طيور محلّقة في الجو ، غير انني في الحقيقة وجدت من الافضل للمرء اصطياد بطة في الجو من ان يطلق النار على عدد من دجاج الماء وهو يسبح على سطح المـــاء. وهذه الحقيقة لم تفشل في اثارة استغراب ملاحينا . وصياد الطيور من المعدان يتسلل بصيدتـه في حذر اما من مشحوفه المسطح أو أن يخوض في الماء البارد عاريــا الى الكتف . وتسير اصغر مشاحيف الصيد ليس بالمجاذيف او اعمدة الدفع وانما يستعمل الصياد نفسه ذراعيه لذلك بينما يكون منبطحا .

ومع ان عدداً قليلا جداً من الشباك يستعمل في الاهوار لصيد الخضيري بسبب الارض غير المناسبة لمثل هذا النوع من الصيد ، الا ان اعداداً هائلة من انواع الطيور والخضيري كذلك تصاد في الاراضي المحيطـــة بمناطق الاهوار ، حيث يستأجر القروي من شيخه منطقة من الارض مناسبة ويدفـع له ثلاثين ديناراً او اكثر لغرض الصيد هناك لفصل واحد فقط . ثم يقوم بحفر خندق في مـاء لايزيد عمقه عن انش او انشين ليخفي فيه طيات شبكة الصيد ، وليبني بعد ذلك (ستراً) من القصب يواجه بصورة مباشرة احدى نهايتي الشبكة (واذا لم يكن الصيادمقابلا

لها تماما فإن حبل السحب لايمكنه ان يغلق الشبكةهذه) ثم ينثر المنطقة بالحبوب لفترة من الوقت غير قصيرة لكي تعتاد الطيور على تلك البقعة من الارض . وجانب (الستر) الذي يواجه المصيدة له ثقبان احدهما للنظر من خلاله والثاني لسحب الحبل الذي يتصل بالمصيدة اي الشبكة نفسها . ويجلس الصياد واحدى عينيه في الثقب الاول ويده تمسك بالحبل في انتظار اللحظة التي تزدحم فيها الطيور في منطقة الخطر او في الشبكة التي تكون عادة صغيرة لايزيد طولها على ثمانية عشر قدما وعرضها في اوسع منطقة منها اثنتا عشر قدما ومع ذلك فقد يحصل الرجل خلال عمليات الصيد على مائة وعشرين طيراً ما بين(خضيري) وطيرخواض بالاضافة الى ما قد يكون من الطيور الاخرى في داخل الشبكة عند سحبها وهم يحصلون من دجاج الماء على عدد اقل بكثير من الخضيري غير اني سمعت بان احدهم استطاع خلال السنة الماضية ان يحصل على ثلاثين من دجاج الماء مرة واحدة خلال سحبه حبل شبكته .

اما في بقية انحاء العراق فتصاد الطيور بكميات هائلة دون اعتبار للعدد الذي لاحصر له من الاطلاقات التي تستنفذ من هذه البنادقالتي تعبأ منفوهتها.ويستورد العراق من الخارج اكثر من مليون خرطوشة في العام الواحد . ولن نكون مخطئين اذا قلنا ان المليون من الخراطيش يعني قتل مليون من الطيور . وانها لرياضة محببة لدى الناس الاغنياء ان يخرجوا للصيد بسياراتهم . وقد اصبحت مطاردة الغزلان في الصحراء بهذه الطريقة نوعا من رياضة شائعة ، وهناك في لواء العمارة سوّاق سيارات تخصصوا بهذا الشيء ، ويمكن للجماعة من هؤلاء ان تصيد خمسين غزالاً او اكثر في اليوم .

وفي الحقيقة توجد بعض انواع من الطيور يمكن اصطيادها بسهوله بواسطة السيارات (كالدراج مثلاً *black Partridge* الذي يظهر ان عدده يتناقص مع الزمن بصورة ملحوظة . وحتى في الربيع عندما تكون اعداد كبيرة من الطيور قد هجرت تلك المناطق فإنك ترى رغم ذلك اعداداً هائلة منها تعج بها الارض ، فكل مساء هناك يشهد عرضاً تقوم به اسراب الطيور ، وآلاف الاجنحة تصفق

فوق الرأس ، وكل فجر تشهد سماؤه امتدادات طويلة من الخضري الوحشي في طريقه الى البحيرات والمستنقعات الكبيرة حيث ينام هناك طوال اليوم .

* * *

وفي قرية – كدي – شهدت مثلاً للحكم المرتجل الجائر الذي يحل محل القانون في مناطق الاهـوار العشائرية . فقد استعار أحد الفتية ، واظنه كان ابن تاجر ، قلماً فضياً من ثيزيجر . وبعد ساعة او اكثر عاد يقول انه اعطى القلم الى احد الاطفال ليعيده لنا ولكن الطفل القى القلم في ماء عميق ، ولأن الظلام كان يسود المنطقة فقد تعذر التفتيش عنه في الماء . وكان مضيفنا هو ابن وكيل الشيخ ولذلك حمل في يده عصا خيزران طويلة كدليل على مركزه بينهم ، وكانت تشابه الى حد كبير تلك العصا التي تدل على العظمة والرهبة المألوفة في الجيش البريطاني . ولم اعرف هل ان ابن التاجر يتمتع بسمعة رديئة بينهم ام لا ، ولكن مضيفنا شك بـه حالاً فعاقبه جزاء لصوصيته وخيانته . ولم يتدخل ثيزيجر في الموقف وانما اكتفيت واياه بتتبع ما يجري .

وتلقى ابن التاجر ضربة قوية من العصا على وجهه فأخذ يصرخ ويتوجـع . ودفعه عدد من الرجـال بقوة الى النصف الثاني من البيت وراء الحاجز القائم في الوسط واستطعت من الاصوات المرتفعة ان اتصورهم وهم يضربونه بقوة ، ولم تكن تلك الاصوات مما ترتاح له الآذان . واخيراً اغتصب مضيفنا خمسة دنانير من الشاب المسكين واعطاها الى ثيزيجر مقابل قلمه المفقود ، فتقبلها ثيزيجر ذاكراً انه سيعيدها اليه عندما يسترجع القلم .

وبعد ساعة عاد ابن التاجر الى البيت وآثار الضرب واضحة على وجهه وجانب رقبته والقلم في يديه تغطيه رطوبة قليلة وقد اختفت ريشته ، وليس هناك غـير القليل جداً من الدلائل التي تشير الى انه كان قد سقط او لم يسقط في الماء . وعندما اراد ثيزيجر اعادة الدنانير الخمسة الى الشاب تدخل مضيفنا ابن وكيل الشيخ قائلاً : « ان النقود يجب ان تصادر كغرامة لمحاولة الصبي السرقة . » وضرب راحة يـده بعصاه الطويلة في نوع من التهديد . واخذ الصبي يتذلل ويتعطف وهو يردد ان

النقود اصبحت الآن من حقه ، وسانده ثيزيجر في موقفه ثم اغلقت القضيه وأرجع له ماله .

وقبل مغادرة — كدي — في اليوم التالي تناولنا الطعام مع صديق كان احد ملاحي ثيزيجر في رحلة سابقة ، وكان شاباً شرس الطباع حتى أجبر اخيراً ان يكون كالرعاة يتجول من منطقة الى اخرى .

ولا تدوم اقامة صاحبنا — ياسين — هذا في منطقة ما حتى يضطر جيرانه للانتقال الى مكان آخر بعد مضي ايام قليلة احياناً او بعد عدة اسابيع في احيان اخرى . وكدليل على مركزه الخطر هذا فقد ابتنى لنفسه أضخم كوخ دخلته في مناطق الاهوار كلها ، فمدخله يفتح على الماء مباشرة ، وأرضه التي قفزنا اليها لا ترتفع اكثر من اربعة انشات عن الماء . ولم تكن ثمـة قصبة خارجة عن تنسيق الكوخ العام . ودخلناه فكان الجو يوحي وكأنه نموذج لمتحف يجب الا تسكنه غير تماثيل جبسية لا يمكن ان تصيبه بأذى . وفي منتصف الجدار اخذ يتأرجح مهد من (البردي) لطفل رضيع تغطي جسمه الاحمر الوردي قطعـة من قماش ناصعة البياض تماماً لم اشاهد مثلها في الاهوار من قبل . والوسائـد والمقاعد التي رأيناها في الكوخ لا تعود الى ياسين وانما استعار الكثير منها ، ليقوم لنا بواجب الضيافة ، بسبب فقره المدقع . وكان استقباله الحار لثيزيجر مؤثراً جداً فقد انحنى وقبل يده بحرارة وجسده كله يرتجف من رأسه الى اخمص قدميه كما لو كان مصاباً بنوبة حمّى . ولا يمكن لياسين ان يهرب من سمعته الرديئة التي تلاحقه حيثما وجد ، لأننا اكتشفنا بعد ثلاثة ايام انه قد فُقِدَ قسم من سلسلة طرادتنـا فشك عماره وسبيتي بأن ياسين هو الذي سرقها ليس لحاجته اليها وانمـا ليشوه سمعتهم امامنـا .

وقمنا بسفرة قصيرة من قرية — كدي — خلال هور هادىء فيه الكثير من الجزر الى — العكر — وهي قرية مزدحمة تقوم على جزيرة كبيرة يحيطها عدد كبير من الاكواخ القائمه على جزر مستقلة بها . وهنا وجدنا السكان مصابين بحمّى وبائية لذا سرعان ما كان ثيزيجر يستدعى في الحال لزيارة اولئك الذين كانـت

حالتهم اخطر من الآخرين. ولم يسمح لي بمرافقته خوف العدوى بهذا المرض المجهول. فتركته عند باب اول كوخ دخله في حين وقف هو جانباً ليفسح الدرب لبقرة يتبعها وليدها وعلى فمه (مجمه) تحول بينه وبين رضع ثدي امه . وتركني ثيزيجر مع احد اصدقائه من السادة ، فرافقني هذ ما يقارب الساعتين خلال تجوالي في القرية . وكانت تلك تجربة غريبة بالنسبة لي فقد تبعنا في البداية عشرون مشاهداً، وارتفع الرقم بعد نصف الساعة الأولى الى اكثر من مائة ، والعدد يتصاعد عند كل لحظة حتى اخذ تقريباً كل رجل وطفل غير مصاب بالحمى ينظر في هذا الرجل الابيض الذي كان يتجول وعيناه تدوران في اجزاء قريتهم . ولم استطع ان افتح فمي بحديث مع (السّيد) يخفف ما احسّه من ضيق لاني لا اعرف من لغته غير القليل ولم استطع من جهة اخرى ان اتجاهله او ادير له ظهري لأن الامر يتطلب احترامه ولا يوجد اخيراً ثمة مكان اهرب اليه ، وشعرت كذلك باني يجب الاّ اضيع فرصة مواتية كهذه اتمكن فيها من رؤية كل شيء في احدى قرى الاهوار ، وهذا شيء لم يتيسر لي القيام به سابقاً .

لذلك رحت اتخطر بين اكواخ القرية كجنرال على رأس جيشه المنتصر ، والجيش الذي املكه الآن يتكون من اطفال مسلحين بأعواد القصب يسيرون امامي لمهاجمة الكلاب النابحة ، وعلى الرغم من جميع الظروف التي تصدني عن النظر والملاحظة التامة فقد استطعت ان اتعلم اشياء كثيرة لم اكن اعرفها من قبل.

فقد رأيت بصورة خاصة ولأول مرة عملية صناعة الحصران (البواري) ... الصناعة التي يعتمد عليها معظم سكان الاهوار للحصول على النقود لانشاء الاكواخ . والعملية الاولى لهذه الصناعة هي نقل القصب المقطوع الى البيت وشقه طولياً بسكين قصيرة منحنية . ويتم ذلك بسرعة مدهشة ومع ذلك فقد رأيت جروحاً مختلفة غير متوقعة عند خبراء بهذا العمل . وعندما ينتهي شق القصب ينشر على الارض ثم يرضّ بمدقة يبلغ طولها ثماني عشرة بوصة لها رأس يقطع من جذع نخيل . وهذا الرضّ يحيل القصب الى اشرطة مسطحة عريضة كل واحد منها يتكون من ثلاثة أو ستة اشرطة متوازية ومتصلة على الجانبين . ويمكن خزن القصب

على هذه الحال لأن هذا الرض يمنعه مـن ان يصبح هشاً . وترى الشخص الذي يحيك (البارية) جالساً على الارض وهو يقوم بعمليـة الحياكـة والقصب منشور أمامه . (والبارية) الكاملة الصنع تكون ذهبية براقة وتنقل السفن التجارية الى خارج الاهوار اكداسا من (البواري) تباع ليس في جميع انحـاء العراق فحسب وانما تتعداه الى الاقطار المجاورة . ويأخذ رجل الاهوار حوالي اربعين فلسا عـن كل (بارية) طولها ثمانية أقدام وعرضها اربعة ، وقد رأيت ايضا نوعاً مشابها لها مرة يباع في اسواق لندن بسعر دينارين للباردة الواحدة .

وبالاضافة الى تسقيف الاكواخ بهـا وفرشها على الارض فللبواري استعمالات متعددة ، فقد تفرش على الارض بأعداد كبيرة وترفع حواشيها وحينئذ تستخدم لتجفيف الحبوب تحت الشمس ، وتخزن تلك الحبوب بعد ان تجفف في تركيب مدور طويل تكون جوانبه من هذه البواري ويختم اعلاه بفضلات الجاموس التي تتماسك كالسمنت صلابة [1] .

وحان وقت رجوع الجاموس فعاد معظمه وحده بيد أن احداه تخلفت عنه وراحت تسبح في البحيرة ولم يظهر منها خارج الماء غير وجهها ، وكان يمتطيهـا طفل صغير وهو يمسك قرنيها بكلتا يديه وفوق رأسه دشداشته المطوية . اما الجاموس الذي وصل قبل عودة المشاحيف المحملة بالحشيش الاخضر فقد احاط ببيوت اصحابه واخذ يجأر بأسىً وحنق . وهنا ، كما في قرىً عديدة اخرى ، حيث توجد تربة يابسة بـين الاكواخ حفرت جوانب هذه الاكواخ عند اسس جدرانها على شكل خنادق من حواليها لحمايتها من ضغط اجساد الجاموس الضخمة ومن قرونه المدببة عندما يحلو له ان يداعب قصب الكوخ من الخارج ، وراح الجاموس يحدّق في هذه الحفر ويجأر من جديد .

وكان (السيّد) يقوم من حين الى آخر بتفريق الحشد الذي تجمع من حولنا . واظنه ادرك اخيراً حيرتي واضطرابي فأدخلني في دار احد التجار وترك الحشد

---

(١) ان مخزن الحبوب هذا يدعى عندهم (محرز) ، واظنه الشكل البدائي للسايلو .
المترجم

الخائب يثرثر بكآبة في الخارج .

ويوجد في كل قرية كبيرة تقريبا حانوت مثل هذا الذي دخلناه الآن ، وهو لايختلف عن بقية الاكواخ الا في العلم الابيض الصغير الذي يرفرف على طرف قصبة طويلة فوق سطح الحانوت . وقد رصفت على جدار الكوخ الداخلي صناديق بسيطة تحتوي على الرز والقهوة والسكر والملح ، وفي بعض الاحيان على عدة باردات من القماش وعلى سكاير وتبغ وورق تبوغ . والتبغ هنالك رخيص السعر بمقارنته بما في اوروبا الى درجة لايمكن تصديقها فالعلبة الكاملة التي تحتوي على عشرين سيجارة تكلف ستة عشر فلساً (١) اما اولئك الذين يقومون بصنع سكايرهم بانفسهم بطريقة (اللف) فيمكنهم تدخين نفس العدد بـثمانية فلوس . لذلك فالتدخين عندهم لايمكنه ان يؤثر على ميزانية الفرد . والاطفال يبدأون بالتدخين في بعض الاحيان وهم في الرابعة او الخامسة من العمر . وعلى الرغم من كل هذه العوامل التي تشجع على التدخين فإن عدداً قليلا جداً من المعدان ظهر لي اكثر تدخينا من الرجل الانكليزي المتوسط في عملية التدخين والذي يدفع في هذه اللحظة ، التي اكتب فيها ، مبلغا اكثر بعشرين مرة من رجل الاهوار الذي يدخن نفس ذلك العدد من السكاير . وبسبب رخص التبغ في العراق فقد جرت العادة ان يقدم المضيف اذا كان غنياً علبة سكاير كاملة لكل شخص من ضيوفه كما هو الحال في اوروبا مع فرق واحد هو ان المضيف الاوروبي يقدم سيجارة واحدة من علبة او صندوق من سجاير خاصة . ويظهر هذا الامر مربكا محيراً في البداية حيث علب السكاير في المضيف فخمة تبدو عليها علائم من ابهة وسطحها ذهبي نقشت عليه كتابة مزوقة بخط عربي انيق . ولما كان ملاحونا يدخنون بصورة قليلة جـداً وثيزيجر نفسه لا يدخن ابـداً فقد اعتدت مغـادرة المضيف وفي جيبي مائة وعشرين سيكارة لطيفة الشكل .

وفي بيت هذا التاجر رأيت جهازاً للراديو من النوع الذي يعمل بالبطارية ،

---

(١) ان اوطأ سعر بلغته علبة السجاير التي يقصدها هنا المؤلف خلال هذه السنوات هو ٢٦ فلسا فقط . المترجم

وهو أحد جهازين فقط رأيتهما في كــل مناطق الاهوار ، وقـد ملأ صوته كل زاوية من زوايا الحجرة الصغيرة وهو يطلق آيات من القرآن بصوت جميل عذب يتملك المشاعر .

واخيراً التحق بي ثيزيجر في بيت التاجر وقد اصبح مصدراً موثوقا يزودك بكل ما تريده عن صفات تلك الحمّى الغريبة واعراضها ولحظة بعد اخرى اخذ يقترب اكثر امسياتي غرابة وتأثيراً في نفسي من نهايته .

* * *

وهبّت عند المساء عاصفة شديدة وتزاحم الليل بصفعات الريح وضرباتها على قصب واجهة الكوخ مختلطة بصراخ الاطفال وطقطقات المطر على السقف . وانبثق جدول ناعم من ماء الامطار من السقف على وجهي . وخيل لي ان ارض الكوخ هي الاخرى تزدحم بأجساد اشخاص غارقين في سباتهم العميق يحولون دون امكاني ان انقلب على جنبي . وبعد فترة من نعاس ثقيل يخدر اعضائي احسست بشخص لا مرئي يمسك بقدمي ويسحبني الى زاوية اخرى من الكوخ . وارتفع لغط وضجيج وحركة من حولي وعلمت اخيراً ان مضيفنا كان يأخذ البواري من تحتنا ليزيد من صمود سقف الكوخ الواهن امام المطر... انها الحياة بسيطة ساذجة، حياة الاهوار تلك ، يستوي فيها فراش الانسان والسقف معاً .

وكانت لنا عودة من ــ العكر ــ الى قرية ــ ام الجويفات ــ لنكمل رحلتنا في شمال المنطقة . وحين توغلنا في قلب الاهوار لاح الاختلاف واضحاً في نمــو النباتات هنا عنها في اية بقعة اخرى ، وصرنا نشق طريقنا خــلال غابة من القصب الاخضر أطبقت علينا من كل الجهات . وزحف الليل بكل رهبته وغموضه وعظمته التي اخذت استشعرها واعيشها كلما غابت شمس يوم من أيام الاهوار . كانت السماء تصطبغ بلون اصفر في البداية بينما تلوح اعواد القصب الى الشرق غارقة بلون برتقالي والماء ارجواني اللون تحت قمر متلألىء يتوج السماء. وفي الأجواء البعيدة امتطى نسر ضخم متن الرياح المتلاشية بين غيمتين قرمزيتين وعندما غاص من السماء فيض نور

الشمس المنحـــدرة اتشح الماء بوشاح خفيف من ضوء قمر باهر بينا تتوهج وتتلألأ بعض نجيمات لامعة في سماءٍ صافية الا من غيمتين طويلتين سوداوين .

وعندما وصلنا القرية كان القمر والنجوم يلمعان فوق رؤوسنا.وسحبنا الطرادة الى نفس الكوخ الذي كنا قد مكثنا فيه قبل اسبـــوعين . وانك لتشعر وانت تعود الى مكانٍ اختبرته وعرفته في تلك البيئة الغريبة وبين تلك الاشياء المتنافرة العجيبة ، وكأنك تعود الى بيتك .

وفي الحقيقة لم يكن حضور الضيف في تلك الليـلة هو الذي شغل افراد تلك العائلة ،لأننا قفزنا من الطرادة لنصبح في وسط جدل ونقاش حاد يشعرك وكأنه ثار منذ ساعات عديدة . وتوقف الرجال الذين كانوا يجلسون حول النار عن جدالهم فترة قصيرة تبادلنا خلالها تحيات اللقـــاء ، ثم عاودوا نقاشهم بألسنتهم وايديهم التي تلوح في الهواء بعصبية لتؤكد كلماتهم .

وظهر لنا اخيراً ان احد الاشخاص في القرية اعتدى بالضرب على رجل آخر لسبب لم يكن واضحاً حتى تلك اللحظة ، وكان رئيس القرية يحاول جاهداً تسوية الموقف مع الجاني . وكنا قد رأينا حين دخولنا الجاني والشخص المعتـــدى عليه يتجادلان بعنادٍ واصرار،ولم يكن لأي منهما من الاستعداد ما يجعله يستمع الى دفاع الآخر عن نفسه ، وبعد لحظات اصبـــح الموقف تمامـاً كما كان قبل وصولنا . ثم ساد السكون وطلب الرئيس ثلاثة دنانير كتعويض للاضرار التي الحقت بالمعتدى عليه . ووافق الجاني على ذلك قائلاً « حسناً ... سندفع ماطلبته ولكننا سنغادر قريتكم هذه غداً ! » . كيف انتهى الامر ... وكم من البساطة ! .. وبعد خمس دقائق ثار الجدل والنقاش مرة اخرى . وبقيت القضية معلقة عندما تفرق الجميـع قبل العشاء .

وبعد تناول الطعام قدم لنا (البرغوث الراقص) عجائب فنه في الرقص ثانية . وكان يجلس صغيراً هادئاً خجولاً بين مداعبـــات الكبار له ولم اكن اظن رقصاته ستكون اكثر خشونة وأعنف من ذي قبـل ، بيد ان الامر كان كـذلك وقد عبر برقصه العنيف عن كل توتر الاصوات الغاضبة التي كان يصغي اليها قبل قليل ، وعبر

عن كل وسائل الاغراء التي اتبعت مع الرجل الذي اجبر على دفـع ثلاثة دنانير جزاء تعبيره عن غضبه بمثل ذلك الشكل ، وعبر كذلك عن انتصـار الضحية او الجني عليه وهو يرى خصمه يدان امام اعين القرية ... كان الصبي يقف وهو يتلوى ويرجّف اعضاءه امام كل مشاهد من الذين احاطوه ، وكان يمسك بانف ذلك المشاهد ويضربه بعنف قبل ان يتحول الى الآخر . ولم تكـن حالة عظام انفي قد تحسنت منذ حادث (ام الكرون) وان اقل لمسة منه لا شك ستسبب له المـاً شديداً . ولذلك جلست في حذر وخوف ويدي امام وجهي احتمي بها حتى همس احدهم في اذن الصبي يخبره عن السبب في عـدم اشتراكي معهم . وعندمـا وقف (البرغوث الراقص) امامي اخيراً رمى يدي جانباً بقوة ، وبينما كنت اتهيأ للاسوأ زرع الصبي على جبيني .. قبلة رطبة دافئة !

☆ ☆ ☆

لقد أحال المطر رصيف الجاموس الى مستنقع من (سرجين) وحشيش ، وفي القسم الخاص بالعائلة ثلاثة عجول اضطجعت برضى واقتناع الى جانب النار وجسدها مغطى (بالسرجين) بينما كانت رائحته المختلطة بأنفاسها الدافئة تملأ الجو طوال الليل . وقبل ان اضطجع لأنام ذهبت الى رصيف الجاموس لأقضي حاجتي الطبيعية وتلمست طريقي بين اجساد الجاموس الضخمة ، وكانت جوانب اجساده والارض المحيطة بها ملطخة (بالسرجين) الذي تأبى فيه القدم الا ان تتزحلق . ومن حافـة الجرف الذي أقف عنده كنت اتمكن من رؤية البيت التالي لنا ورصيف الجاموس تضيئه النار التي ما تزال تشتعل من خلفه ، وتراءى لي هنـاك كلب يصعد جاموسة تغط في نومها ليقضي ليلته على ظهرهـا . وعلى ظهر الجاموسة المجاورة وقفت دجاجة وهي تنقر عليه ، وعلى العمود الفقري لجاموسة ثالثة كان ثمة طفل يحـاول موازنة نفسه على رجل واحدة .

☆ ☆ ☆

غادر ثيزيجر ـ ام الجريفات ـ في اليوم التالي لـكي يجري في قرية مجـاورة مفاوضات تخص قضية خطبة عمـارة . وانطلقت انا وعمـارة نصطاد الخنازير في

قارب استعرناه من احد الرجال هناك . ونجح كل منا في قتل خنزيرين ، ووجدت صيد الخنازير في هذه المرة اسهل مما توقعت . والخنزير الثاني الذي اصطدته كان يسبح حين اطلقت عليه النار ومرة واحدة اختفى رأسه وغاص جسده تحت الماء ، واظنه اضخم خنزير رأيته في الاهوار .

وتكالت مفاوضات ثيزيجر بالنجاح . وشهد مساء ذلك اليوم افراحاً صاخبة بسبب خطبة عماره ، وازداد الغناء والضرب على الطبلة حدة وسرعة و (البرغوث الراقص) تخطف على تقاطيعه نار الاطلاقات النافـــذة عبر سقف القصب وهو في قفزاته وحركاته المثيرة . وعندما كان الصخب على اشده اخذ رجل ضخم من بين الحاضرين يتململ في مكانه وراء ضوء النار ، ثم ابتدأ يجاهد خلال حشد الرجال الجالسين ، وهو يمسك بكلتا يديه بندقية نحاسية من النوع الذي يعبّــأ بالبارود من فوهته ، وللحظة او اثنتين اخذ هذا السلاح المرعب يدور دون مـا روية او انتباه حول رؤوس الحشد ، ثم راح يدوي فوق الرؤوس بصوت هائل وباللهب والدخان يمزق السقف الذي تساقطت منه زخة من نثار قصب محطّم ، ثم في لحظة من صمت قاتل ترنح خفاش كبير الحجم من السقف وسقط في اواني القهوة .

وفي هذا الوقت كان (البرغوث الراقص) يستريح من وصلات رقصاته العنيفة وبيده سيكارة وصلت الى نهايتها ، فرمى العقب باتجاه الموقد ، إلا انه سقط في حضن تاجر يدعى ــ حسين ــ عرف بالكبرياء وبسوء السمعة . ولاحظ (البرغوث الراقص) ذلك بتلذذ وغبطة . واخذ العقب يحترق للحظات دون ان ينتبه اليه احد ، وما تمكن من حرق الدشداشة حتى لامس الجسد ، فقفز التاجر حسين على قدميه بصيحة من دهشة والم . واخذ يتلفت حواليه ، والعيون كلها تتطلع اليه ، ولـكي يداري خجله من الموقف حوّل صيحته الى ابيـــات من رقصة الحرب (الهوسة) . وفي الحال كان الحشد كله قائمـــاً على قدميه ، يوقع ويدوي بلحن (الهوسة) العنيفة ، والبيت ببنـــائه كله يهتز معهم . وبسبب ضغط الاجساد والحركة الكبيرة انطفأ المصباح ، وماتت نار الموقد تحت الاقدام الثقيلة . ولم يكن يشق الظلام الذي اطبق على المضيف سوى خطف البنادق ، وكل اطلاقة

فيه تتبعها زخة من نثار القصب المتساقط من السقف .

وعندما انتهى الحفل وجد السقف وقد مزقه عدد كبير من الثقوب ... وهكذا تكلل احتفال خطبة عمارة بأكبر نجاح .



الفصل الثامن

وفي الصباح كنـــا في طريقنا من ـ ام الجريفات ـ الى الاهوار الشرقية وراء دجلة .

وقضينا ليلتنا في قرية ـ حوته ـ التي كانت اول قرية ندخلهـا من قرى المعدان الرحّل ، فسكانها يرعون قطعان الجاموس الكبيرة ويتنقلون معها حسب ما تمليه عليهم حاجتها الموسمية . ويتوضح وجه الاختلاف كبيراً بين اكواخ هذه القرية واكواخ المعدان المستقرين ، حيث انهـــا لا تبدو اكثر من أقسام ملحقة بملاجىء الجاموس الضخمة او ما يدعى (ستره) . وهذا القسم وان اتصل بنهاية الكوخ ذي الاقواس الضخمة بصورة مباشرة إلا أن طوله يبلغ خمسين قدماً او اكثر ، ويبنى من دون اقواس إلا ان نهايات القصب تتدلـّى من الجوانب وكأنها ذيول ثعالب . ولا تنتزع القشور من القصب الذي يستخدم في بناء (الستره) لذا تراها وكأنها اعلام صغيرة رقيقة تزين الجوانب العليا من جدران الكوخ .

وقد كانت عائلة عماره مدينة لزمن طويل بثأر لاحدى عوائل هذه القرية ، ومع ان الامر سوّي قبل فترة قصيرة بديّة من النساء إلا ان عماره ظهر عند المساء مضطرباً خائفاً .

وكان العشاء الذي قدم الينا في تلك الليلة اسوأ طعام اتناوله إلى الآن ، وهو يتكون من الرز واللبن . ولما لم يكن يفصل ملجأ الجاموس عن القسم الخاص بالبشر شيء فقد تعين عليّ ان انام والى جانبي ترقد جاموسة راحت انفاسها الحارة تداعب

شعر رأسي طوال الليل . وهبت الرياح في الليل عبر الكوخ واعقبتها زخة خفيفة من المطر تساقطت قطرات منه على وجهي من خلال فتحة في سقف القصب ، واتذكر اني فتحت عيني فوقع نظري في ضوء النار الخافت على امرأة ترضع طفلها من ثدي يابس منكمش .

كانت البراغيث في ذلك الكــوخ من الكثرة بحيث أحسستها تسير في معظم اجزاء جسدي ، ويظهر ان طعم جسدي لذلها حتى باءت بالفشل جميــع محاولات بعضها في البحث عن بقعة مني لم تنغرز فيها اشواكها . وثارت اعصابي الى درجــة كبيرة فلم ار بدأ من اشعال مصباح محاولاً بواسطته تقليل اعدادها الهــائلة على جسدي وثيابي . وكنت اعتقد أن الآلام التي احسها سببها البراغيث فقط لأنه لم توفر لي فرصة مواتيةلفحص ثيابي من قبل غير اني ادركت الآن بأني مليء بالقمل ايضاً ، فقد كان هناك جيشان منفصلان من القمل والبرغوث يعملان ويتنازعان بإصرار على امتلاك جسدي.وبعد لحظة من شرود الذهن ادركت أني عاجز عن القيام بأي شيء ذي فائدة في تلك اللحظة . وتــذكرت ان القمل لم يكن يقلقني عندما لم اكن اشعر بوجــوده فقررت النوم ثانية ، ولم تتوفر لي فرصة للاستحمام الا بعد اسبوع واحد ، واختفى القمل بعد ذلك بصورة سحرية الى الابد .

ولم يكن ثمة شيء استطيع ان اعمله لتحسين حالة قدمي فبقي منظرهما مشوهاً طوال مدة بقائي في الاهوار . وقد حدث ذلك التشوه فيهما لأن العادة تتطلب ان يكون الشخص حافي القدمين في داخل الطرادة كما لو انه في داخــل البيت . والبعوض ، وان لم يكن له كبير تأثير أو ضرر الا ان اعداده الكبيرة كفيــلة بإزعاج الانسان ، وعندما يضجر البعوض الشخص في الاهوار فليس عليه الا ان يغطي قدميه بطرف دشداشته وهو في جلسته متربعاً في داخل الطرادة .وقد كنت احسد ثيزيجر ، الذي اعتاد على ارتداء الدشداشة ، لأنه يتمكن من اخفاء قدميــه اما من البرد او من البعوض بمجرد مد طرف دشداشته الى الامام . وتلك واحدة من الحالات التي اجد فيها الملابس الاوربية عديمــة الفائدة لطبيعة الحياة هناك . وادركت بعد الاسابيع القلائل الاولى ،وقد اضجرتني حركاتي البهلوانيةفي ملابسي

الاوربية ، ان الدشداشة هي اللباس الوحيد الذي يمكنه ملاءمة ظروف الحياة في الاهوار . لقد أثبت الواقع ان حزمة الملابس الاوربية التي اشار علي ثيزيجر بأخذها معي ، وان كانت كميتها كبيرة ، الا انها قليلة الفائدة في مثل بيئة المعدان تلك . ولو قدر لي ان اعيش بقية حياتي بين المعدان لما تعلمت مطلقاً كيف اجعل من البنطلون لباساً يمكنني ان اخوض به في مياه الاهوار على ان احتفظ في الوقت نفسه بالعادات العربية . وكان شيئاً مضحكاً لشخص مثلي وصل وهو يجهل لغة القوم ان يرتدي ملابسهم ، ولو كان علي الا آخذ بنظر الاعتبار سوى نفسي لما ترددت لحظة واحدة في استبدال عدم الراحة بالسخرية .

☆ ☆ ☆

وعند مغادرتنا قرية ـ حوته ـ ودعنا المستنقعات والاهوار الوسطى الواقعة غربي دجلة ، فعند فجر ذلك اليوم عبرنا النهر العظيم ولم نعد لتلك الاهوار ثانية . ومررنا بمنطقة من المياه مكشوفة ، وعند الافق يبدو خط من النخيل وعندما اقتربنا منه كنا كمن قفز الزمن وطوى ايام التاريخ حيث صك اسماعنا منبه سيارة .. سيارة !! وكانت على مسافة عدة مئات من الياردات عنا . وأعقب دوي المنبه صوت عجلاتها المطاط وهي تنهب الارض الصلبة ... اصواتاً نسيناها ربما عدنا نفكر في غير ضجيج الهور واصواته الغريبة . ومررنا قرب الطريق الرئيسي ، واخيراً دخلنا في دجلة نفسه ومرقد ـ العزير ـ بمنارته الزرقاء والخضراء يحجب عنا خط النخيل الواقع على يسارنا . وعندما تلاشى النخيل اخذ النهر يشق طريقه في ارض طينية مسطحة لا تتميز بشيء معين . وكان طريق السيارات يحاذي شواطىء دجلة على مسافة ياردات معدودات عنه ، بينما راحت سيارة كاديلاك قرمزية اللون تنهب الارض ، وكانت مفتوحة من الاعلى وكوفية السائق ترفرف وراءه في الهواء . وكان يقودها بمعدل مائة ميل في الساعة مع ان اباه لم يكن في زمن ما اسرع من الجمل او الحصان الذي يمتطيه .

ومررنا في دجلة ضد تياره الحاد لعدة اميال ، وفجأة اختفى طريق السيارات وكل ما يوحي بحضارة القرن العشرين عن ناظرنا حتى التقينا بعدد من وسائل النقل

النهرية البدائية . وتتكون هذه من القصب المقطوع ويبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها ثلث هـــذا الرقم اما ارتفاعها فعشرة اقدام ، وهي تنحدر ببطء مـع التيار تحمل كل منها على ظهرها رجلين او ثلاثة في سفرة الى البصرة تستغرق عدة اسابيع .

ولكن برز مرة اخرى ما يذكرنا بالغرب حين نزلنا في قلعة احـــد الشيوخ الواقعة على ضفة النهر ،فقد وجدنا ثمة قنينة فارغة من Gordon's Gin مرصوفة بين ادوات القهوة ، وتراءت لنا بالاضافة الى ذلك احدى نوافذ القلعة وقد اصلحت بصفيحة معدنية تعلن عن منتجات شركة نفط امريكية .

ولم يكن هناك ما يوحي بوجود حياة انسانية من حولنا سوى القلعة التي نجلس فيها الآن ، وعلى احد جوانبنا يجري دجلة بين ضفاف طينية وقد اضطرب سطحه برياح عالية من سماء شاحبة زرقاء، وعلى الجهة الاخرى امتدت حافة فضية للاهوار التي تتجاوز الحدود الايرانية . وعندما تحولنا في سيرنا عن المجرى الرئيسي لنهر دجلة اصبحنا على مسافة عدة امتار من القلعة ، وفي الحال صرنا نسير عبر مدخل الاهوار الشرقية .

والاهوار الشرقية وسكانها يختلفون تماماً عن اهوار وسكان الضفة الغربية من دجلة . ويعود هذا الاختلاف الى اشياء صغيرة عديدة لم استطع ان احددها او اميزها في البداية . فحياة الناس هنا غير مقيدة تماماً بأصول وقواعد اجتماعية معقدة لا في اللباس ولا في العادات ، والكوفية البيضاء المرقطة بالاسود تتلاشى كلما توغل المرء الى الشرق حتى تحل محلها مجرد قطعة قماش سمراء يغطّى بهـا الرأس على هيئة عمامة دون عقال فوقها ، اما السترة الاوربية التي يلبسها الرجال فوق الدشداشة في الاهوار الوسطى فقد اخذت تتلاشى هي الاخرى حتى اختفت دفعة واحدة ، وذلك الكرم العجيب انقلب الى اشياء بسيطة . والناس هنا يعبّرون عن رغباتهم واهوائهم بحرية اكثر غير مقيدين بقيود ثقيلة من التقاليد او العادات . ولاح لي أن الناس ولا سيما من عشائر ــ الفريجات والسواعيد ــ المتنقلة يختلفون في الجنس عن سكان الاهوار . فعدد كبير منهم يتمتع بملامح جميلة والعيون الخضر والزرق تكثر

بينهم ويتميزون بلحية وشوارب يعتنون بها ويحفظون طولها المعتدل .

وهناك جماعة من الرجال في الاهوار الشرقية ليس لهم من عمل يقومون به غير التهريب وتاريخهم حافل بالاصطدامات المسلحة مع شرطة الحدود . وكلما اقتربنا من ايران ازداد حذر ملاحينا ومراقبتهم خوفاً من السرقات اذ يسهل على اللص ان يهرب عبر الحدود .

ومرنا الى الشمال الشرقي واقتربنا اكثر فأكثر نحو الحدود وقضينا ليلتنا الاولى في (بدعة النوافل) وهي مناطق اهوار موسمية تسكنهاعشيرة الشدّة ــ وقضينا ليلتنا الثانية في ــ ابوليله ــ وهي قرية كبيرة يسكنها جماعة من عشيرة ــ الفريجات ــ الرحل . وتشح المياه كثيراً كلما ابتعدنا عن ــ ابو ليله ــ وكثيراً ما كانت الطرادة تقف في قنوات مسدودة . فيتعذر عليهــا السير . وقد احرق المعدان في هذه المنطقة غابات القصب فاستحالت الى بقع سود من الارض تتخللها نباتات شوكية حديثة العهد . وتعمر هذه المنطقة اسراب من الطيور المختلفة الاشكال والالوان الزاهية كأبي منجل وانواع متعددة من مالك الحزين *Heron* ، وتنتشر فيهــا كذلك اللقالق ونعيج الماي واعداد لا يمكن حصرهــا من الطيور الخواضة تحــوم فوقها النسور في سماء صافية زرقاء الا من قزعــات من غيوم بيضاء متناثرة هنــا وهناك . وحين وجدنا انفسنا وقد نجحنا في اجتياز الف ممر مغلق ، وغادرنا هذه الارض المحترقة . وصلنا الى مواطن عدد من القبائل المتنقلة وقد قوّض المعدان فيها (سترة) الجاموس ... وفي اقرب كوخ منها حططنا الرحال .

وكان مضيفنا قصيراً ناحل الجسم يعجز القلم في التعبير عن مظهره وملابسه فهو يرتدي دشداشة استقرت فوقها سترة من الخاكي لاح وكأن عمرها قرون عديدة ، وقد شدها حول وسطه بحزام من قصب ملتو مضغوط الا ان سترته كانت من القصر بحيث يصعب على حزامه السيطرة عليها فتهدلت على الجانبين لتكشف عن جسده الناحل والشعر الغزير الذي يكسوه . اما حول رأسه فقد وضع عمــامة من قماش ممزق يصعب على المرء ان يميز لوناً معيناً له .

وهنا في قرية ــ جريوه ــ شعرنا مرة ثانية بالعــداء نحونا ليس من الانسان في

هذه المرة وانما من الطبيعة نفسها . فقد اخذت الرياح تهب بشدة في اللحظـة التي وصلنا فيها ، وغابت الشمس فـاظلمت الدنيـا وغاضت جميـع الالوان من السماء والارض حتى صارت الدنيا من حولنا وكأنها حصى الشاطىء البحري العسلي اللون عندما تنحسر عنه الشمس والبحر معاً . وفي امتداد الافق الشاحب كانت الرياح تهب لتحني وتتلاعب بالبردي الفضي اللون ... وميل بعد آخر نقطعه في المياه فلا نجد شيئاً صلباً من حولنا غير الارض القريبة الى الامام منا .

ومع ذلك فقد كان طول القصب البعيد المرتفع يغور بنا ، لأننا سرنا اكثر من ساعة من قرية ــ جريوه ــ قبل ان نصل قرية كبيرة انشئت فوق مجموعة من الجزر الطينية ، وشوارعها عبارة عن مسالك مائية تربط اجزاءها بعضهـا مع البعض الآخر وتدعى هذه القرية ــ الترابيه ــ ومجرد ذكر اسمهـا الآن يثير في نفسي ذكريات مرّة لحادث مؤلم ومنظر رأيته لأول مرة فتملك مشاعري ، غير انه ، كان شيئاً اعتيادياً لدى سكان الاهوار .

فقد اخذت الرياح تهب بشدة وعنف خلال الساعة الفائتة . وعندما هبطنا الى الشاطىء كانت تلك الرياح قد تحولت الى عاصفة قوية حملت معهـا حطام القصب لتذره في العيون ولتغطي به وبرمل الجزر الطينية كل شيء في المنطقة .

وقد وجد ثيزيجر له ملجأ يحميه من كل هذا خلف احد البيوت حيث انشغل يداوي طفلاً مزق كتفه خنزير شرس . وكنت فرحاً لأنه لا يوجد ثمة شيء يستدعي دخول الكوخ والجلوس متربعاً في داخله . فوقفت في الخارج قرب المدخل اجول بناظري عبر خط الماء الذي يشبه شارعاً في المدينة يفصل بين جزيرتنا والاكواخ المقابلة لنا في الجزيرة الاخرى .

وما زالت احداث الدقائق التالية تتراءى لي كطيف خيال بعيد لم يتلاش عن ناظري وعن خيـالي شيء منه . فقد ارتفع صوت المؤذن من جهة لا مرئية من القرية . وكانت تلك المرة الاولى التي اسمعه ينطلق فيها من الاهوار . وكانت جيوش الظلام تبتلع ضوء النهار تدريجياً ، وذلك وقت خروج النساء لملء جرارهن بالماء . وهبط من الجزيرة المقابلة لي ثلاث منهن وكن قد خرجن من ثلاثة بيوت

متقاربة والجرار فوق رؤوسهن نحو منحدر النهر . وهبطت كذلك من الضفة التي كنت اقف فيها ثلاث نساء أُخَر بمواجهة الثلاث الاول . ووصل الماء الى الركبة منهن ، وملأت الجرار ورفعت كل واحدة وعاءها فوق رأسها وخرجن من الماء في توافق وانسجام عجيب ، وبينما كنّ عائدات الى بيوتهن حلق في الجو سرب من طيور بيض اخذت تغرد فوق البيوت بانخفاض كبير وكأنها دفعة من الزّبد فوق موجة من مياه البحر تندفع الى امام ، وعبرت الطيور من فوق رؤوس النسوة بحفيف ناعم من اجنحة بيض كالثلج ثم توارت عن الانظار .

وفجأة ، وانا في وقفتي تلك ، انطلق من البيت المقابل لي مباشرة صياح وصراخ شديدان . وكان ثمة طفلين خرجا يركضان من ذلك الكوخ والقيا بنفسيهما في الارض الضيقة الفاصلة بين جدران الكوخ والماء ، وراحا يضربان بأنفها الصغير على الجدران بحدة والم ويخمشان ملء اكفهما بنثار القصب وكتلاً من الطين يرميانها هنا وهناك وعلى نفسيهما ايضاً . واندفع بعض انفار من الرجال من ذلك الكوخ واخذوا يدقون على صدورهم وبطونهم ويضربون بجنون على جدران الكوخ ، واصابعهم تخطف الطين والقاذورات من الارض يرمونها فوق رؤوسهم .

واخيراً تمكنت من معرفة سبب كل ذلك ، وتمكنت ايضاً ان اشاهد بعيني اللحظات الاخيرة من حياة شيخ كبير في ذلك الكوخ يرقد على فراش الموت .

ولقد رأيت مثلاً على ذلك بعد مضي بضعة ايام عندما جلبت احدى النساء ابنها وهو يشكو من الم بسيط . وكان اليوم دافئاً والناس في تلك القرية من قرى العشائر المتنقلة ، حيث الماء القليل ، يحيطون بنا وكل منهم منصرف الى عمله . وصرخ الطفل بحدة عندما بدأ ثيزيجر بفحصه ، ومن دون سابق انذار اخذت المرأة تصرخ فجأة على ان ابنها قد مات . واخذت تولول عالياً وتضرب صدرها بقوة وخطفت كمية من (السرجين) ولطخته في جبهتها والقت بنفسها على الارض . وكان على مسافة عشرين خطوة منها اثنتان من النسوة تطحنان الحنطة فكفتا عن عملها فجأة واخذتا تصرخان عالياً . وشارك المرأة عويلها عدد من الاطفال الذين كانوا يلعبون بالقرب منا بأصوات ناعمة بائسة . وخلال دقيقتين لم تبق امرأة سمعت

الصراخ الا واخذت تصيح هي الاخرى وتضرب جسدها بيديها . وفي هذه اللحظة نفد صبر ثيزيجر وانفلت زمام الموقف من يده فصرخ في الناس قائلاً ان الطفل حي واخذ يتلفظ كلمات قاسية في وجه الأم فتوقفت عن الصراخ بنفس السرعة التي بدأت بها . وعندما تحقق لديها ان طفلها ، بعد كل هذا، لا يزال حياً اخذتها موجة من ضحك ، ولم الحظ اي اختلاف في تعابير وجهها وهي تضحك الآن عنها عندما كانت تبكي . وفي لحظات قلائل عاد الاطفال الى لعبهم والنسوة الى بيوتهن والصبية الى عملهم وكأن شيئاً لم يحدث .

وفي الاهوار الشرقية يوجد عدد من الجزر الصغيرة غير المتناسقة يزيد على ما هو موجود الى الغرب من دجلة ، وعلى الرغم من ان عدداً كبيراً منها يزيد ارتفاعه على العشرين قدماً الا انها صغيرة جداً ولا تستطيع ان تحمل اكثر من بيت واحد او بيتين ومع هذا فلم تستخدم لذلك لأن المعدان يخشون اللصوص ويفضلون العيش في بيوت متقاربة لكي يكون تعاونهم مشتركاً في ساعة الخطر ، وتكسو سطح عدد كبير من تلك الجزر قطع من الفخار تلمع تحت الشمس وكذلك تكسوها قطع من الحصى الاسود واخرى من الطابوق ، ومن الصعب ان نكتشف كيف وصلت مثل هذه الاحجار الى هنا . والمعدان يستخدمون بعض تلك الجزر لدفن موتاهم .

ورأيت الهور من قمة احدى هذه الجزر يمتد الى الافق من جميع الجهات ، وفي هذا الموسم من السنة كان مخضراً ومخططاً بخطوط ذهبية من قصب له من الطول ما يمكنه من اخفاء القرى المتناثرة فيما بينه .

وسافرنا من قرية ــ الترابية ــ الى الشمال متوجهين الى قرية ــ دبن ــ اكبر تلك الجزر الرملية على الحافة الشمالية للاهوار الشرقية . واستغرقت سفرتنا يوماً واحداً تناولنا الطعام خلالها في قرية صغيرة تدعى ــ ابو صخير ــ في بناء جميل يشبه الكوخ ، اما مدخله فكان الشكل الوحيد من نوعه الذي شاهدته هناك ، فهو يشبه مدخل عش العصفور ، وارتفاعه لا يزيد على ثلاثة اقدام ، وفي هذا البيت اشتريت جلدين لحيوان ــ كلب البحر Otter ــ انتزعت الاحشاء منهما بصورة عجيبة

من الفم دون ان تحدث اثراً في الجلد . وعندما جلبت معي احداهما ، وجلبت ايضاً حيواناً حياً من نفس النوع الى انكلترا ظهر انه غريب وجديد على العلم الحديث .

ووصلنا بعد الغروب الى ـ دبن ـ والسماء ما تزال صفراء عند الافق الغربي . واشباح الاكواخ لاحت سوداء من بعيد بينما النار المشتعلة في داخلها تضفي عليها لوناً كطيف الغروب القرمزي ينعكس على مياه هادئة قرب مدخل كل كوخ . ولاح شبح اسود لشخص رمى على سطح احد الاكواخ دجاجتين سوداوين اخذتا ترفرفان تحت خيوط الشمس الغاربة الواهنة .

وكان المضيف الوحيد في ـ دبن ـ تملكه امرأة ، وهذا شيء تظهر مخالفته واضحة للعادات والتقاليد هناك . وكانت ارملة (سركال) الشيخ هذه قد حصلت على ذلك في ظروف قلقة ، وكنتيجة لطرد الشيخ نفسه من قبل رجال عشيرته .

من غير الممكن ان تعيش في تلك المناطق لبعض الوقت دون ان تسمع كثيراً عن ـ الشيخ ناصر بن سلمان ـ لأن مجرد ذكر اسمه يعني الحذر والخيانة .

وقد كان اصغر ابناء ابيه ، وله ايضا عدد من الاخوة لأبيه سلمان من نساء غير أمه . وارادت ـ ام ناصر ـ التحكم في امور الشيخ المسن سلمان . ودبرت خطة لابنها كي يرث ويستولي على ثروة ابيه كلها ويحرم بذلك اخوته لابيه الآخرين . وقيل انها دست السم لأحد ابناء زوجها ، ويشك بأنها دبرت قتل اثنين آخرين منهم وهما عائدان من دفن جنازة اخيهم الاول . واخيراً اقنعت الشيخ سلمان ان يسجل جميع امواله واملاكه باسم ناصر .

واستغل ناصر بدوره هذه الثروة ابشع استغلال واكتسب خلال عدة اشهر سمعة خاصة بين الناس لقسوته وعدم التفاته الى شؤون الفلاحين . وكوّن له عدداً من الاصدقاء الاوربيين في بغداد والبصرة لا يحسد عليهم ، واخذ يشرب الخمر ويلعب القمار ويبتز الاموال .

واخيراً لم يستطع ـ طالب ـ ابن احد اخوته المقتولين ان يتحمل اكثر من ذلك . وهو وان كان صبياً في السادسة عشرة من العمر غير انه جمع افراد عشيرته

واعلن الحرب على جده سلمان الذي حرمهم الا – ناصراً – من ثروته . وعندما علم سلمان بذلك قرر ان يستقل طرادته ويذهب بنفسه ليـدبر الأمر مع حفيده غير ان مستشاريه نصحوه الاقلاع عن هذه الفكرة لأن ذهابه يعني قتله ، فطالب الآن في حالة من الغضب شديدة ولن يقف شيء دون قتله جده . بيد ان سلمان وافق على ارسال احد (السّاده) كسفير بينهما ، ولا شك ان طالب سيجبر على احترام هذه الشخصية الدينية . ولكن هذه الخطة برهنت على فشل ذريع ،فعندما اقترب (السيد) من قلعة طالب بمشحوفه مرفرفاً بكوفيته الزرقاء في الهواء على طرف قصبة طويلة لتدلل على شخصيته انطلقت من القلعة اطلاقة شقت المشحوف الى نصفين وحالف الحظ (السّيد) ليهرب بجلده .

ومنذ ذلك الحين اصبـح – ناصر – في خطر . ومرض ابوه سلمان وهمس الطبيب مرة في اذنه قائلاً ان ناصر عرض عليه ثلاثة آلاف دينار لدس السم لوالده المريض . ولم يكذبه سلمان واخذ منذ تلك اللحظة يفكر في اتلاف كل وثيقة كتبها لصالح ولده العاق الذي انكشف على حقيقته الآن . وابتدأ النزاع بينهما ، وراح ناصر يقابله بحجج قانونية مشروعة وهذا شيء مخجل بين الابن وابيه . وعندما وصلنا العراق كان النزاع قد انتقل الى الحاكم في بغداد . ولم يتوضح لحد الآن موقف الحكومة في هذه القضية التي كان كل شخص في الاهوار طرفاً فيها . وقد وقف عدد قليل من المعدان الى جانب ناصر يدفعهم الخوف اذا ما حالفه النصر . وانتقمت احدى زوجات ناصر المطلقات منه بتأليف اغنية تهجو فيهـا طباعه واخلاقه الفظّة ، وسارت الاغنية في كل حدب وصوب وصارت اغنية الموسم تتردد على شفة كل فلاح يجمع الحشيش من بين القصب ، وعلى فم كل راعٍ يسرح بالجاموس .

وكان علينا في اليوم التالي ان نعيش في حومة هذه المعركة . وفي ليلتنا الاولى في – دبن – تملك افكاري واسترعى انتباهي طير عجيب . فبعد ان تناولنـا طعامنا مساء ذلك اليوم خرجت من المضيف لبضع دقائق ولمـا عدت وجدت مقعدي وقد استولى عليه مخلوق تعكس عيناه البرتقاليتان ضوء النار . واخبرني

الرجال هناك انه نوع من العقاب لم يشاهدوا مثله من قبل . وكان قد انطلق بين القصب امام جماعة من المعدان يجمعون الحشيش فسارعوا الى ضربه بعصا الطرادة الطويلة ولم يتأثر بالاصابة كثيراً . ووجهت حزمة ضوء مصباحي اليدوي على الطير فأغمض عينيه ولم يتحرك . وكان هذا واحداً من اغرب الطيور التي رأيتها في حياتي بريشه الذهبي والاسود المنتظم وعيناه البرتقاليتان الغامضتان تومضان كما لو ان هناك ناراً تتأجج وراء عدستيها . وقد اقتطع صيادوه منه ريش القوادم وستمضي عدة اشهر قبل ان يستطيع الطيران مرة ثانية ، وليس من العسير عليّ ان اتوقع بأن ذهاب فورة حماسهم لهذا الطير معناها موته جوعا . ولكي نضمن سلامته اتفقت وثيزيجر ان ندفع ثلاثة دنانير ثمنا لضمان حياته حتى عودتنا الى ــ دبن ــ ثانية خلال اسبوعين او ثلاثة . فوافقت صاحبة المضيف بكل رحابة صدر وسألتنا عما ستطعمه فأشرنا عليها بتقديم اللحوم اليه . وسرعان ما رمى شخص كبير السن يجلس قبالتي قطة المضيف نحو الطير . وفعلا امسك بها العقاب ليأكلها لولا ان خطفها ثيزيجر منه . وتذكرت ان كل مضيف يعج بالخفاش والعصافير ، وفي لحظة واحدة خرجت هذه الطيور وهي تفر من بين شقوق اعمدة المضيف واقواسه السوداء المظلمة امام ضربات عصا طويلة . وهرب الخفاش بسهولة عبر الباب الواطىء الى ضوء النجوم الباهر ، واخذت العصافير تضطرب في الظلمة وتتساقط ولكن سرعان ما كانت القطة تتلقفها قبل ان تصل الارض وكم وددت لحظتها لو ان الشيخ المسن خلصنا منها تماما حين رماها امام منقار العقاب الحاد لأننا لم نفلح في جمع عدد كاف من العصافير للطير الا بعد نصف ساعة .

***

ووصل ــ جابر ــ اكبر اخوة ناصر لأبيه الى قرية دبن في اليوم التالي واصبح واضحاً الآن كم خسر ورثة سلمان الشرعيون فجابر هذا لا يملك حق ولا طرادة واحدة . وعلى اية حال فقد كان يتبعه ستة من رجاله المسلحين .ولاح وجهه صارما حاد التقاطيع ، وملامحه تفضح ما يعتمل في داخله من ثورة وحقد .

ولم يظهر في البداية ارتياحا لوجودنا ولم يعلن عن الغرض من زيارته لهذه القرية

الا بعد وقت غير قصير . ومر ذكر سلمان وناصر على لسانه عرضا وقال له ثيزيجر: « انني لا اعرف والدك شخصياً غير اني لم اسمع عنه غير السمعة الطيبة اما ناصر فلا اقول اكثر من ان كراهيتي له تزداد في كل مرة ازوره فيها ، وحين دخلت مضيفه آخر مرة خرجت وقد عضني الجوع .

وعند هذا تحركت عواطف جابر فأخذ يشرح الظروف والملابسات التي احاطت بالقضية .فقد حاصر جابر قلعة اخيه ناصر القريبة وهدد مستوطنيها ان من يطل برأسه خارج جدرانها يكون نصيبه القتل . لذلك اخذت قلعة ناصر ، التي بذلت جهود كبيرة في تقويتها منذ عدة اعوام ، تحاول جاهدة حقن الدماء ، وهكذا التجأ ناصر يحتكم عند الحكومة في بغداد فأرسلت معه مفرزة من الشرطة لحماية قلعته .

واصبح واضحا الآن بأن الغرض من حضور جابر الى هنا هو اختبار رجال العشائر الذين اغتصبهم ناصر منه واثارتهم في حالة وقوف الحكومة الى جانب ناصر . وكان الاب الشيخ سلمان قد اعطى في البداية اربعمائة رجل مسلح الى ناصر في ذلك الوقت الذي سجل باسمه جميع امواله واملاكه ، بيد ان ثلثمائة وخمسين من هؤلاء عادوا الى سلمان حين سمعوا ما اشيع عن قضية الرشوة التي عرضها ناصر للطبيب في حالة دس السم لأبيه الشيخ المسن .

وقد وعد جابر رجال العشائر الذين يحاربون الى جانبه بتوزيع الاراضي عليهم عند انتصاره على ناصر ، لذلك وزعوا الذخيرة فيما بينهم . وظهرت المشكلة معقدة متشابكة لأنهم سيبدأون الحرب بعد ثلاثة ايام . وقال لي ثيزيجر : « والآن يجب علينا مغادرة هذه المنطقة لأن المسؤولية تقتضينا تجنب المشاكل الداخلية في هذه البلاد بغض النظر عن موقفنا من المتنازعين،ولم اتدخل انا سابقا في ايةمشكلة سياسية داخلية كانت او خارجية ، لذا لا اود ان تكون هذه بدايتها في حياتي » .

وكانت تلك امسية صاخبة على الرغم من ان كل شيء سار في طريقه الاعتيادي .

وقد جلس جابر مع رجاله على جانب واحد من موقد القهوة في المضيف .

وطلب فجأة ان تعلق علبه سجاير فارغة فوق باب المضيف من الداخل على بعد عشر ياردات منه ، ثم تناول بندقيته وسددها وسحب زنادها فسقطت العلبة مع قطع ذهبية اللون من القصب المتناثر ، وارتفعت اصوات التشجيع له . وركض احدهم ليلتقط العلبة فاكتشف ان الاطلاقة لم تصبها. فاغتاظ جابر من ذلك وأمر ان توضع له العلبة مرة ثانية واصابتها اطلاقته الثالثة في الوسط . ودعانا جابر ان نحاول نحن ايضاً اصابة نفس الهدف . وفي الحقيقة اننا كنا داخل المضيف وعلى مسافة ابعد منه عن العلبة ، ولكن بنادقنا كانت من نوع Colt 45 . ولحسن الحظ نجحت وثيزيجر في اصابة الهدف عند الاطلاقة الاولى ثم وضعت علبه من الشخاط مرة ثانية . وبعد عشر دقائق فقط انتصبت سيجارة محل الشخاطة وغام المضيف بدخان البارود ، واخذ الحظ يحالفنا المرة بعد الاخرى . وتقبل جابر التحدي فاستمر يطلق بسرعة حتى اصاب السيجارة فقسمها الى نصفين في اطلاقته السابعة والعشرين .

وبقي عقب السيجارة مثبتا في مكانه ، وفجأة امسك احد السادة ، وهو رئيس جماعة جابر ، بندقيته ونهض على قدميه . ووقف متمايل الساقين واسند بندقيته الى كتفه واخذ يطلق النار دون هدف معين ، فتناثرت قطع القصب من عمود المضيف على مسافة انج الى جانب عقب السيجارة . وخطا ثيزيجر وادخل اصبعه في الثقب الذي حفرته الاطلاقة واستدار ليتكلم بشيء ما في اللحظة التي رأيت فيها اخمص البندقية يستند على كتف (السيّد) في وضع استعداد تام لاطلاقته الثانية . وصرخت بثيزيجر أن ينحني . وعندما فعل ذلك خطفت الاطلاقة على مسافة ستة انجات من فوق رأسه ومزقت السيجارة فتناثر منها التبغ. ورحت اتساءل مع نفسي فيما اذا حدث ان اقترب ثيزيجر من الموت يوما او تعرض الى بتر اعضائه اكثر من هذه المرة خلال الخمس سنوات التي قضاها في الاهوار .

وركض (السيد) الى خارج المضيف وهو يصرخ ، مع سلمان ضد ناصر !.. » واطلق بندقيته في الهواء . وتبعه جابر ومن ورائه كل رجل في المضيف ثم انخرطوا من حوله في دائرة ، وصاح جابر : « مع سلمان ضد ناصر !.. » والتقط

الحشد كلماته تلك فراحوا يرددونها وهم يدقون الارض باعتداد ووحشية في ايقاع مخيف لرقصة الحرب (الهوسه) . وعندما كانوا يرقصون كانت بنادقهم تهتز فوق رؤوسهم والاطلاقات تعوي بين حين وآخر وتضيع في الاهوار الخالية التي هي حق شرعي لجابر . ان معظم هؤلاء الرجال سيموتون خلال اسبوع واحد لو أنهم اندفعوا لينفذوا فكرتهم التي هتفوا بها ، لأنه لا يمكن الاستيلاء على قلاع الشيوخ دون اسلحة ثقيلة . غير انه لا بد ان حامية قلعة ناصر قد اخذها الرعب والفزع وهي تسمع الاطلاقات المدوية وكأنهـا تعلن بداية المعركة . وقال لي ثيزيجر : « لا مفر لنا من مغادرة المنطقة فإننا هنا تحت حماية الحكومة العراقية ولا يجوز لنا ان نكون طرفا في نزاع أو اضطراب » .

وعندما انتهت (الهوسة) ودعنا جابر اللاهث الانفاس والعرق يتنزى من جسده بغزارة وكوفيته متهدلة تحجب احدى عينيه ... ثم ذهبنا .



الفصل التاسع

مضت ثلاثة اسابيع قبل ان نعود الى قرية ـ دبن ـ وقد سافرنا الى الشمال نحو قرية ـ البيضة ـ على الحدود العليا للاهوار الدائمية الشرقية . ثم اتجهنا الى جهة الشرق مرة ثانية، نحو ايران خلال الحد الفاصل فيما بين المياه الموسمية والمياه الدائمية . وهنا انعطفنا في زوايا قائمة لندخل بحيرة كبيرة لم نجد لها اثراً في اية خارطة سابقة . كانت البحيرة من السعة والكبر بحيث ان السماء تلتقي مع الماء عند الافق دون ان يعترضها شيء لذا أصبح من الصعوبة بمكان ان تميز البقع السود من طير *waterfowl* فوق سطح البحيرة عن الطيور الجارحة البطيئة الحركة في الهواء . ومررنا خلال قرى عشيرة ـ الشغانبة ـ وبيوتهم متناثرة هنا وهناك ومجموع عددهم لا يعدو بضع مئات لأن البعوض يزحم قصب الاهوار ويطبق على اكواخهم ليلا ولذلك لا مفر من هجر قراهم قبل حلول الصيف ، فصل البعوض . وسكان هذه القرى اقل ترحيبا بالضيوف واكثر جشعا ، فقد حاول احدهم ، ويقع بيته على حافة البحيرة ، مثلا ان يحصل منا بعض النقود اجرة استخدامنا مشحوفه للصيد ساعة واحدة . وغالباً ما كنا نستقبل بينهم ببرود ونظل نعاني الجوع الشديد طوال اقامتنا عندهم . وادركت الآن ان المعدان لم يكتسبوا سمعة الفظاظة والخشونة ظلماً وعدواناً وانما كان ذلك لأسباب وجيهة ، وقد اخبرني ثيزيجر انه عاش هذا الجو والتقى بمثل هذه النفسيات كثيراً في قرية ـ ام الجريفات ـ وقرية اخرى تدعى ـ الكتاب ـ قبل ان يتعرف عليهم بصورة تامة .

ووصلنا عند الغروب الى احدى تلك القرى وتدعى – الشرش – وكان سكانها يتهيأون لمغادرتها ليذهبوا الى مستوطناتهم الصيفية على مسافة عدة اميال. وقد عاشت هذه المنطقة في جفاف حتى قبل يوم او يومين عندما ذابت ثلوج الشمال. وفي الصباح كانت القرية كلها تهاجر والمشاحيف من مختلف الانواع تشق طريقها في مجاري القرية ومسالكها المائية، او بالاحرى شوارعها، وهي تئن تحت وطأة البواري واعمدة القصب لبناء اقواس الاكواخ، وقصب مرضوض لصنع البواري الى جانب اعداد من الدجاج والقطط والكلاب والعجول بالاضافة الى حاجيات البيت بينما الجاموس مشدود الى بعضه وهو يسبح وراء المشاحيف، وفيما كنا نتتبع هذا الموكب الداخل كان الجو يمتلىء بذلك الصوت المعين الذي يحثُّ الجاموس على السير.

ووصلنا عند الضحى مع القرويين المهاجرين الى الجزيرة الطينية التي كانوا يقصدونها وتدعى – ابو مالح – حيث ان ارضها مغطاة بالملح وحتى المياه المحيطة بها شديدة الملوحة. والجزيرة عبارة عن عدة مئات من الياردات ترتفع حوالي ياردة عن سطح الماء. وكان قد وصل اليها قبلنا عدد كبير من القرويين، وبعضهم وصلها في اليوم السابق. وحيثما وليت وجهك في ارجاء الجزيرة رأيت كوخاً تحت الانشاء، والشاطىء يكتظ بمشاحيف المهاجرين، والرجال والنسوة منهم في حركة دائبة وظهورهم منحنية تحت ثقل امتعتهم وهم ينزلونها الى الشاطىء وتستقبل الجزيرة في كل دقيقة مشاحيف جديدة حتى صار الماء الضحل في الجهة التي وصلنا منها يقرب في الشبه من موقف السيارات خارج ساحة سباق الخيل في لندن.

وعندما تهبط الى الشاطىء جماعة منهم تراها تجر خطاها المتعثرة الى قطعة الارض التي حددتها لنفسها وسرعان ما يثبت عمود الطرادة في الارض وترمى عليه (باريه) لتكون لهم ملجأ وقتياً يرتفع الى اربعة اقدام عند سطح الارض [1] وفي هذا الملجأ تضع النسوة اواني الطبخ، وبعد دقائق معدودات من وصولهم يشعلن

---

(١) يطلق المعدان كلمة (شاكص) على هذا الملجأ المؤقت .

المترجم

ناراً من (المطال) عند مدخله . اما الاولاد والرجال فتراهم رائحين غادين بين الملجأ والطرادة ينقلون حاجياتهم ويكومونها او ينثرونها عند مدخله قبل ان يفرغوا الطرادة من القصب والبواري اللازمة لانشاء الكوخ الجديد .

وفي غمرة هذه الفوضى يمكنك ان ترى حاجيات غير واضحة متناثرة في الكوخ الكامل البناء ، ولا يمكنك ان تلاحظ كبير اختلاف بين حاجيات عائلة عن عائلة اخرى . واكثر هذه الامتعة والحاجيات قيمة عندهم هي الاساور والملابس والنقود وتحفظ دائماً في صندوق خشبي بغطاء يشبه القبة المقوسة مرصع بمسامير نحاسية او حديدية كبيرة وجرت العادة ان يحفظوا هذا الصندوق في القسم الخاص بالنساء من الكوخ . ويعتبر الصندوق هذا من اكبر الحاجيات الصلبة عندهم بين خليط عجيب من حاجيات العائلة المتنافرة . وهنالك مقاعد وبطانيات بلونها البرتقالي الاحمر البراق وربما كان هذا من اكثر الالوان الشائعة عندهم . وتوجد كذلك قطع من السجاد والفرش واواني الطبخ وسلال وصواني حيكت من البردي بصورة دقيقة وبين هذا كله توجد فالات الصيد وهراوات ذات رؤوس كبيرة من القار . وبين كل كوم من الامتعة ترقد طاحونة الحبوب . ويمتلك عدد قليل من العوائل في الاهوار اواني فخارية مسامية لحفظ المياه كتلك التي يشيع استعمالها عند العوائل التي تستوطن ضفاف الانهار خارج مناطق الاهوار . ويكون الواحد منها مخروطي الشكل ذي فوهة دائرية كبيرة ويصغر عند قاعدته كثيراً ، ويسند على حامل ذي اربعة ارجل خشبية . ويمتلك بعضهم نوعاً من الصواني الطينية ترتكز على حامل ثلاثي يشعل فيها (المطّال) .

وتجد هنا وهناك بين حوائج عدد قليل من العوائل التي تمتلك اثنتين أو ثلاث نعاج ، تجد سجاداً صوفياً بسيطاً بني اللون وهو الشكل الطبيعي لصوف تلك الحيوانات ولكن منه البني الغامق والفاتح وما يتأرجح بينهما من الالوان . وقد اخبرني ثيزيجر انه يعتقد بعدم وجود صباغة محلية وان السجاد يصنع اما من قبل افراد — بني لام — وهم قبيلة من قبائل الرعي غير بعيدة عن تلك المنطقة أو يجلب عبر الحدود من ايران . ومعظم الانسجة في القرى من الصوف القوي الناعم الذي

تصنع منه العباءة الصوفية الخفيفة التي يرتديها كل رجل في الاهوار الشرقية .

وتجلس النساء عند مداخل الملاجىء المؤقتة وتشغل نفسها بطبخ الرز للرجال اوترضع الاطفال او تطيل النظر في الامتعة المتناثرة في غير مـا عناية او انتظام . وتلوح بعض الاكـواخ وكأنها انشئت منذ بضعة اعوام بينما يلوح البعض الآخر هياكل من قصب افتح لوناً من زرقة السماء الغامقة التي تتراءى من بين ضلوع تلك الهياكل ، والقسم الثالث من الاكواخ يظهر صفاً من اقواس القصب ترفرف نهاياته قبل ان تحنى لتشد مع الاعمدة المقابلة له .

واستطعت مراقبة كل مرحلة من مراحل انشاء الكوخ . ولـكي اضبط الوقت ايضاً لاحظت ان عدداً من الاكواخ لم يبتدأ بعد بانشائها عند وصولنا في الساعة العاشرة والنصف ولكننا عندما غادرنا القرية بعد ساعتين كانت عملية بناؤها قد انتهت . ويعمل في بناء الكوخ عادة ثلاثة او اكثر من الرجال. وهم يبتدئون بتهيئة حفرة بواسطة المسحاة كما هو الحال عند الذين يشتغلون في استخراج النباتات لصنع الفحم في مرتفعات اسكوتلانده . وتكون الحفر صفّين متوازيين عمق الواحدة منها قدمين ونصف تثبت فيها قواعد اعمدة القصب التي يبلغ طولها عشرين قدماً وتنحني عند الارض في زاوية تقرب من السبعين درجة ثم يضعون قاعدة ثلاثية من القصب ارتفاعها خمسة او ستة اقدام وتستخدم كالسلم الخشبي عندنا ويقفز احدهم ليقف بطريقة تثير الدهشة على هذا الثلاثي القوي العجيب ويجر اليه اعالي اعمدة القصب ويحنيها اليه بواسطة خشبة المسحاة التي تثبت فيها القدم ويمسك بطرف القصب حتى يسحب هو او مساعده طرف العمود المقابل ثم يشد الطرفان الى بعضها بحبل مفتول من اوراق البردي . وبعد أن يتم هذا يتنقل بقاعدته الثلاثية الى العمود التالي ، فإذا تم انشاء صف من خمسة اقواس وشدت اليها حزم نحيفة من القصب لا تزيد على الاربع عشرة حزمة بصورة افقية اصبح الهيكل جاهزاً للمرحلة التـالية وهي تغطيته ببواري القصب . وهكذا تستغرق عملية انشاء البيت ساعتين . . انها حقاً طريقة عملية رخيصة في الانشاء .

استمر اللغط والضوضاء في عمليات الانشاء طوال الساعتين اللتين قضيناها

هناك ، لأن المهاجرين الجدد كانوا يصلون باستمرار . وخلال هذه الغابة الذهبية من اعمدة القصب واضلاع الاكواخ راحت قطعان الجاموس تجأر بحدة ، والاطفال يركضون خلفها ليجمعوا فضلاتها الثمينة حالما تسقط على الارض ويعودون بما جمعوه الى مواقع بيوتهم الجديدة . وكان بعض هؤلاء الاطفال عراة الا من طوق حول اعناقهم يرصعه في الوسط حجر ازرق ليمنع عيون الحساد عنهم ، وهم يلعبون بين اهليهم الكبار المنشغلين في عمليات الانشاء او يسبحون ويركضون الواحد وراء الآخر في الماء الطيني الضحل عند ضفاف الجزيرة .

ومع اننا لم نتمكن ان نمكث اكثر من ساعتين في ـ ابو مالح ـ الا انني كنت سعيد الحظ حيث لم يتمكن ثيزيجر طوال السنوات الخمس التي قضاها بين المعدان من مشاهدة قرية وهي لم تزل في عمليات انشائها في حين اتيح لي ذلك خلال سفرتي الاولى هذه .

لم يكن باستطاعتنا الا ان نسافر الى شرق او الى جنوب قرية ـ ابو مالح ـ لأنه لا توجد غير اهوار قليلة الى الشمال منها . ويمكن للشخص ان يسير دون ان تبتل قدماه من هنا حتى مدينة العمارة التي تبعد ثلاثين ميلاً الى الشمال الغربي . وسرنا في طريقنا الى الشرق باتجاه ايران واقتربنا من الحدود وصرنا على مسافة ميل او ميلين عنها قبل ان نعود مرة اخرى ونسلك طريقنا الاصليه ودخلنا الآن اراضي عشيرة السواعد اعداء الفريجات . وفي ـ ابو مالح ـ علمنا ان تينك العشيرتين تبادلتا قبل فترة قصيرة حملات سرقة الجاموس فكل حملة تقوم بها احداها تقابلها الاخرى بالمثل .

وفي ـ مكري ـ حيث يعيش معدان نصف متنقلين يعملون في رعي الجاموس لاحت من بعيد جبال خوزستان جاثمة عند الافق ، وتبدو بعيدة جداً لأن الاهوار تمتد من هنا وتتوغل في داخل ايران عدة اميال .

ومازالت تتراءى لي ـ مكري ـ بصورة خاصة لجمال سكانها الصارخ ، فتقاطيع وجوههم وملامحهم كاملة مع اسنان بيض ناصعة تصطف بصورة عجيبة . وفي عشيرة السواعد ـ لا يشكو غير عدد قليل جداً من السكان من امراض

العيون . وربما كانت هذه الامراض بصورة عامة اقل بكثير في الاهوار الشرقية عنها في الاهوار الوسطى . واسنان المعدان تظهر عادة إما رديئة جداً او جيده الى حد كبير ، وهم ينظفونها بالملح واسوأ الافواه ربما كان سببها عدم الاعتناء بها ، والجمال في قرية ـ مكري ـ يقرب من الكمال حتى ان اقل الوجوه جمالاً تنقلب الى سحر وعذوبة بمجرد ابتسامة خفيفة . وما زلت اتذكر احـــد الاطفال بصورة خاصة وقوس شفتيه ليس اقل اكتمالا من الاسنان التي يغطيها ، وعنقه ينبثق باعتدال ورقة من كتفين نحيفتين ، وينسدل على عينيه جفنان راعشان طويلا الاهداب وكأنهما عينا غزال . ويتراءى ثمة شيء من سحر يتحرك ويتململ في هدوء في هذه التقاطيع والاشكال الصغيرة الملفوفة في الملابس الصوفية الخشنة ، ويتململ ايضاً في نعومة هذه الوجوه الرقيقة وفي تلك الايدي التي براها العمل المضني .

وآخر هذه القرى او بالاحرى نهاية رحلتنا في الجهة الشرقية هي قرية ـ كرسوه ـ التي لا تزيد على سبعة اكواخ ، وتشح فيها المياه كثيراً . وقد وصلناها كما كنـــا وصلنا قرية ـ جريوه ـ قبل اسبوع خلال مياه لا يزيد عمقها على الركبة وغالباً ما تقطعها اراض جافة . ولاح لي اننا رجعنا مائة مرة من تلك المسالك المائية المقفلة لكي ندور دورة اخرى ، ولكن هذه رمتنا بعيداً عن الجهة التي نقصدهـــا . واخيراً كان علينا ان نترك الطرادة عدة مئات من الياردات ونجر خطانا المتثاقلة نحو الاكواخ .

وهذا الماء الضحل العكر الذي يشبه في لونه شوربة الحمص هو نفسه يستعمل كماء للشرب عندهم ، وتراه راكداً في برك ومستنقعات صغيرة خضراء اللون والزبد البرتقالي يطفو على حوافها . وترقد في اكبر بركة منه على مسافة مائة ياردة تقريباً من الاكواخ جاموسة ميتة وقد تناثر الشعر من جلدها فبرزت اضلاعها بلون ابيض بينما راح غرابان من النوع الاسود والابيض ينقبان بغير رحمة ولا شفقة في احشائها الداخلية . ويلفت الذباب النظر في اول قرية من قرى القبـــائل المتنقلة وهو من النوع المزعج المهلك .

ولم نستطع ان نذهب ابعد من قرية ـ كرسوه ـ فاتجهنا الى الغرب سالكين

نفس الطريق التي جئنا منها فمررنا بقرية مكري والشدايد ، وتوغلنا بعيداً الى الغرب نحو قرية ــ البيضة ــ الكبيرة الواسعة باراضيها اليابسة . وهنا رأينا زوارق تجارية كبيرة تمخر في المياه ، والمسالك المائية تمور بأنواع عديدة من السفن والمشاحيف الفارغة والمحملة . واعتادت عيناي الآن رؤية الافق البعيد في الاهوار دون اي شجرة تعترض طريقه ، لذلك فقد كنت اطيل التحديق في كل شيء يعبر في صفحة السماء العارية . وانخدعت عيناي هنا حين لاحت لي بعض الاشجار من بعيد فحسبتها نخيلا باسقاً غير انها فضحت نفسها عندما اقتربت منها وظهرت ليست اكثر من ست نخيلات صغار هي من ضمن احد المضايف . وهنا قضينا ليلتنا ضيوفاً على ــ كغبان بن فالح بن فاهود ــ احد كبار شيوخ المنطقة . وتضيء المضيف اضواء كهربائية براقة . وعادت بذاكرتي دقات ماكنة سحب المياه هناك الى الوراء .. الى ابعد من الاسابيع القلائل التي عشتها خارج عالم الحضارة .. الى ايام طفولتي واسكوتلندا والبيت البسيط الذي قضيت فيه طفولتي وصباي حيث كان يرسم نفس هذا الصوت خلال ايام الصيف الناعسة في خيالي عالماً من نور وشمس دافئة . وكانت هناك عدة صراصير في ارض المضيف .. وكان غناؤها طوال الليل مجلجلا يطغي على نقيق الضفادع ودقات الماكنة الرتيبة في الخارج .

والحقيقة اني كنت اشعر بالضيق خلال تلك الليالي الطويلة في المضايف ، لأني وان كنت اتمكن من فهم المعنى العام للمحادثات التي تدور فيه لكنني كنت اعجز عن مشاركتهم فيها . وعلى الرغم من البساطة المتناهية في مثل تلك الاماكن إلا ان العادات والاصول المتبعه لديهم والتي يجب على المرء مراعاتها تتغلب على تلك البساطة . ورحت اراوغ ساعات تلك الليلة الطويلة باستيعاب كل دقيقة من دقائق المضيف وحصلت من اختباراتي الطويلة هذه على نتائج اوضحت لي ان هذه البناية بمقارنتها بصورة غير متكافئة باكواخ ــ ابو مالح ــ قد تطلبت مائة وخمسين رجلا وثلاثة اسابيع لانشائها . كان طول ساحتها خمسة وستين قدماً وعرضها عشرين . وهناك تسعة اقواس ارتفاع كل واحد منها خمسة عشر قدماً وكل قوس مشدود بمائة وعشرين حلقة من الخيوط ، اي ان كل قوس لزمه خمسمائة ياردة من الحبال.

ولا يقل معدّل محيط كل عمود ، من قاعدته التي يبلغ عرضها ياردة واحدة الى نهايته التي تدخل في السقف الاسود ، عن ستة اقدام . ووراء الاقواس الرئيسة تقع الافقيات وكل واحد منها عبارة عن حزمة من القصب يزيد سمكها على مائة واربعة وعشرين انجاً تشد الى الاقواس بصورة افقية والمسافة بين حزمة واخرى حوالي اربعة انجات ، وهكذا لزم الف ياردة من الحبال اليها . وتلك الافقيات تبدأ من ارتفاع ثلاثة اقدام عن الارض ويغطى الفراغ الباقي بينها وبين الارض بأطراف البواري المتهدلة والتي تمتد حول كل جهات المضيف ويمكن رفعها لتلطيف الجو في الداخل . حقاً انه لقصر عظيم ولكن ... من قصب !

***

وعندما سافرنا في اليوم التالي الى الشمال الغربي مررنا خلال منطقة مستنقعات منخفضة حيث توجد بقع من الحشيش الاخضر لتتخللها مجاري مائية صغيرة يمكن للطرادة ان تنساب فيها بخفة . والطيور من مختلف الانواع والاشكال تزيّن الارض والسماء وتحلق بينها اسراب متناثرة من ـ ابو منجل ـ بخفة ولأن لحم هذا الطير غير محرم عندهم فقد الح عليّ ملاحونا ان اطلق النار على جموعه . ولكنها كانت حذرة يقظة فلم يقترب منها احد على مسافة ثمانين ياردة من الطرادة . وراح الملاحون يثرثرون ويلحون عليّ ان طلق النار على كل طير يبعد عنا مسافة ربع ميل ، واخيراً ولأضع حداً لهذا الازعاج اطلقت النار على طير وحيد منها وهو يخطف على بعد مائة ياردة الى جانبنا . ولدهشتي الكبيرة سقط ابو منجل ميتاً . ولم اكتشف إلا بعد مضي وقت غير قصير ان الخراطيش اختلطت في جيبي واني استعملت بطريق الصدفة واحدة تحتوي على اطلاقة من نوع LG التي تتكون من ست رصاصات تستخدم لصيد الخنازير .

وقفز كذية من الطرادة ، وراح يخوض الى ركبتيه في الماء الضحل ليمسك بالطير . وحين وصوله استل خنجره واتخذ ناحية خاصة من الشمس ووضع رأس الطير الى جهة افترض انها مكة . وأخذ يقطع حنجرة الطير . وفجأة انطلقت من حسن صيحة انفعال وتحذير وصرخ في كذية : « مكة .. ابعد الى الجنوب كثيراً ! »

فاتجه هذا بنفسه الى الشرق وشرع بالذبح . وتوقف مرة اخرى على صرخة من عماره الذي قدر ان مكة تقع بين تينك النقطتين وارتبك كذية الى درجة كبيرة وهو يدور في الماء الضحل وحنجرة الطير الذبيح تدور معه الى الشرق والغرب والجنوب والشمال . وعاد متجهماً الى الطرادة وسط صرخات السخرية ليفاجأ بالحقيقة الدامغة وهي انه لا يوجد بينهم احد يمكنه ان يأكل هذا الطير الآن . ورمى كذية بالجسد الذبيح في وسط الطرادة بعصبية وغضب . وكان الجدال حوله ما زال حاداً مفككاً عندما مررنا بعد نصف ساعة بشيخ يرعى الجاموس على ضفة احد المسالك المائية . فاقترح احدهم انيعطيه الطير لأنه يجهل الحقيقة في انحنجرة — ابو منجل — لم تتجه الى مكة تماماً عند ذبحها . ورمى كذية بالطير اليه في انفة وكبرياء في حين اخذ حسن يشرح للرجل المسن بخبث سبب تحريم أكل هذا الطير بالذات . ولكنلم يجهد الشيخ نفسه بالجدلوانما اكتفى بالقول ان لحم —ابومنجل— في رأيه محرم اكله مهما كان نوع الذبح .

وهكذا يلاحظ المرء غرابة مثل هذه العادة الدينية التي يتبعها المعدان في قضية المحرمات ، في حين ان معظمهم يجهلون تماماً اصول ديانتهم وشرائعها . وتظهر قضية المحرمات هذه بصورة جلية عندهم في انواع الاطعمة . ولم اتعلم خلال اقامتي القصيرة بينهم القائمة الكاملة للطيور المشهية والاسماك التي حرم تناول لحومها ، ولكني استطعت ان احزر كيف تنشأ هذه القيود ، وعلى ضوء استنتاجاتي يمكنني القول ان الانواع المختلفة من طير — الزقزاق *Polver* — الذي يعيش في المياه ويصلح كهدف من السهل اصابته حين يكون الجوع قد عضنا بأنيابه وطرادتنا تشق طريقها بين القصب ، وانواع هذا الطير الاخرى على اختلافها امتد اليها التحريم . ويتبادر الى ذهني ان التحريم سيصل الى كل عائلة الطيور الخواضة غير ان سبيتي اخذ يلومني مرة لاني لم اطلق النار على طير شهي اللحم من عائلة الطيور الخواضة يدعونه — كزكز— . وغراب الماء *Carmorant* الذي لا يزيد عن الحمامة حجما ، وابو السهم الافريقي *African darter* يجوز اكلها في حين حرّم لحم نعيج الماي الذي اخبرت ان لحمه يختلف في الطعم قليلا .

اما في الاسماك – فأبو الزمير **cat fish** – وكل سمكة تشبه ثعبان البحر **eel** محرمة الاكل ، وكذلك جميع الحيوانات ذات القشور . والخنزير بالطبع من المستحيل ان يتناول لحمه اي مسلم في حين يحللون اكل جميع الحيوانات التي تتناول الاعشاب . وقد اخبرني ثيزيجر ان هذه المعتقدات معقدة جداً ويظهر انه لا يوجد سبب معقول لذلك ، كما هو الحال عند البدو في الصحراء العربية حيث يسمحون لأنفسهم بأكل الثعلب الصحراوي في حين يمتنعون عن تناول لحم الثعلب الاعتيادي .

* * *

وادركت في اليوم التالي مبلغ الصعوبة في قتل خنزير وحشي . فقد وصلنا الى قرية – سجلة – قبل ان تنحدر الشمس الغاربة وراء الافق ، وذهبنا بالطرادة نفتش عن خنزير نصطاده ، وكان يرافقنا شاب من عشيرة – السواعد – في مشحوف صغير يقترب حجمه من حجم زحافة جليدية ؛ وتغطي هذه المنطقة بالبردي والماء الضحل وتتراءى بين حين وآخر برك ومستنقعات هادئة والحشائش والادغال كثيفة جداً ولا يمكن لأحد ان يحدد نظره خلالها اكثر من بعد مرمى اطلاقة . وحينما سرنا شاهدنا جموعاً من طير جميل ارجواني اللون يدعى بالبرهان وطيور اخرى جميلة بلونين ارجواني وازرق تجاوز في حجمها اكبر **gallinule** دجاجة البقة . ووجد الفتى (الساعدي) خنزيراً وحاول تحريكه من مكانه واستطعنا ان نسمعه وهو يضطرب ويحاول الهرب ، فتبعناه واخذنا نجذف بقوة وجنون . ورأينا انه لا يمكننا اصطياده ما لم يدخل في ماء اعمق يضطره الى السباحة وحينئذ نستطيع ان ندركه بسهولة . ودخلنا مستنقعاً هادىء المياه بينما اخذ الخنزير يسبح امامنـــا بكل قواه . فعندما راح يخوض في الماء الضحل الى الجانب البعيد وخرج معظم جسده عن الماء وصار على مسافة عشرين ياردة عني سددت بندقيتي نحوه وفتحت النار عليه فأصابته اطلاقة واحدة في قلبه والاخرى في رقبته ولاح وكأنه لم يحسّ بأي منها ، فعبر حزاما من ماء عمقه قدم واحدة بين البردي واخذ يسبح مرة اخرى والطرادة تتبعه بسرعة . ولما صرنا على مسافة

خمس ياردات عنه تناولت بندقيتي colt45 وفتحت على ظهر رقبته نار مخزن الثلاث عشرة اطلاقة كلها ... وبالطبع ليس ثمة سؤال بعد هذا فيما اذا كنت نجحت في اصابته ام لا . فالاطلاقات السبع الاول لم يكن لها اي تأثير فيه ، وغاص في الماء عند الاطلاقة الثامنة ولكنه ظهر مرة ثانية بعد لحظات وراح يسبح بقوة مدهشة . ولم تظهر عليه علامات توجع أو ألم عند الاطلاقات الاربع التالية مع اني كنت ارى كل اطلاقة تهدر على شعره المتكاثف . اما الاطلاقة الثالث عشرة والاخيرة فقد كسرت عموده الفقري واسقطته صريعاً في الحال .

وستظل عالقة في ذهني وتتراءى لي كلما مرت بخاطري ذكريات الاهوار ، تلك النصف ساعة التي استغرقتها عودتنا الى ــ سجله ــ مختلطة بضجيج الضفادع واشباح القصب من بعيد تلوح سوداء والضوء في نزعه الأخير نحو الأفول . وقد انحدرت الشمس الآن نحو الأفق تلفع الكون بغلالة حريرية يختلط لونهـا الرمادي بلون اصفر من نور راعش ، تتخللها طيور ابو منجل عائدة الى اعشاشها . ووسط ذلك السيل الناعم الدافىء من الضوء الواهن اخذ ينسل شبح فتى السواعد وهو يدفع (بالفالة) مشحوفه الصغير الذي كان من الضيق والصغر بحيث اضطر الفتى الى وضع احدى قدميه امام الاخرى مباشرة عند الدفع . واخذ جسده يتحرك بعذوبة وسحر ودشداشته المشدودة الى خصره تفضح رقة جذعه وكتفيه . وكان ينحني الى وراء عندما تدخل نهاية (الفالة) بالماء، ثم ينحني عند الخصر ليدفع العمود ثانية ... كانت حركاته موزونة وكأنها حركات راقص باليه ، ففي كل مرة يعتدل من جديد وهو يتهيأ للدفعه التالية على الجهة الثانية من المشحوف ورؤوس (الفالة) الخمس السود تلمع في الغروب ... منظر رائع جداً .. المشحوف الاسود الاهيف ينساب بهدوء تام وهو غارق في سيل ضوء من سماء عسلية فوقه ومياه يصبغهـا الغروب بلون عسجدي . وتتوج السماء نجمة وحيدة تضيء بلمعانٍ باهر .

وخلال بضع سنوات سيقود هذا الفتى القروي الشاب ، الذي سيظل خياله ماثلاً في ذهني كرمزٍ للاهوار العظيمة ، سيارة لوري اذا حالفه الحظ .

* * *

وكان نقيق الضفادع الذي سمعته تلك الليلة اعنف نقيق لعب بأوتار اذني . والارض حول الكوخ الذي نزلنـــا فيه ، يابسة ولكن توجد بعض المستنقعات الصغيرة المحاذية للجدران ومن تلك البرك انحدرت جلبة وضجيج عظيم بحيث لم يكن للشخص بد من رفع صوته وهو يتحدث في داخـــل الكوخ لكي يسمعه الآخرون . وبعض اصوات تلك الضفادع ترتفع ساخرة صاخبة لدرجة يبدو من الصعب ان تتصورها صادرة عن مخلوقات اقل حجماً من كرة القدم . وحين يمر المرء بالبحيرات والبرك هناك فسرعان ما يطبق السكون عليها ولكن ما اسرع ما تتلقف الاذن هديراً وضجيجاً صادراً من غابات القصب البعيدة بعد ان يبتعـــد عنها قليلاً .

واطبق بعد منتصف الليل هدير الرعد على الكون ، واستمر يلعلع مطبقاً على الافق كله لعدة دقائق في كل مرة يهدر فيها . وتسلل مـــاء المطر خلال سقف الكوخ . وانقشعت السحب عند الصباح وتلفعت البرك والمستنقعات المتناثرة بشعاع شمس هادئة دافئة . وظهرت السماء صافية بعد الظهر ، ولاحت الطبيعة زاهية بحلة قشيبة بعد ان غسلتها امطار الليلة الفائتة . فخرجنا مرة ثانية لصيد الخنازير مع جماعة ضمتهم معنا خمسة مشاحيف ــ وهنا بين ــ سجله والجرين ــ لا تختلف الارض الا قليلاً عن صحراء جافة وكانت آثار خيام جماعة متنقلة من الرعاة ما تزال على اليابسة . وسرت انا في مشحوف يقوده شـــابان من السواعد وسرعان مـــا تناثر اسطولنا في الهور .والطريقة التي كنت اميز فيهـــا مواقع المشاحيف الاخرى هي اصوات الاطلاقات المرتفعة منها .

ولم اكن قبل ذلك اليوم اتصور عدد الخنازير الوحشية التي تختفي عـــادة في مجاهل القصب ، وكما نصيد كلاب السبانيل *Spaniels* في انكلترا كذلك اتبعنا نفس الطريقة في صيد الخنازير هنا ، فقد طاردتها مشاحيفنا الخمسة من مجاهل القصب حتى خرجت تتراكض فوق الارض الصلبة او تسبح قطعانها في البحيرات العريضة الزرقاء ، او تقف من حين الى اخر كمراكب سجن المجرمين السوداء على حواف الجزر المكتظة بغابات القصب . وفي لحظة واحدة تمكنت ان أعد سبعة واربعين

خنزيراً على مسافة اطلاقة بندقية عني . وبعد نصف ساعة كانت دموع الفشل والخيبة تسيل على خدي . وكان ثيزيجر قد أعـــارني بندقيته ولكني لم اعرف كيف ادبر الامر مع هذين الشابين اللذين يقودان مشحوفي ، فانها والحماس يعتمل في داخلهما المضطرب وهما يشاهدان كل ذلك العدد الضخم من الخنازير غرقا في الخيــال وتصورا انه من السهل جداً عليَّ اطلاق النار واصابة الاهداف والمشحوف يتمايل ويتأرجح تحت ضغط مجاذيفهما ، كما لو انني كنت في اليابسة . ومرة بعد اخرى ، وفي اللحظة التي كنت اسحب فيهــا الزناد والبندقيـــة مسددة نحو الهدف ترى المشحوف ينخفض في الماء فجأة بتأثير ضربات المجاذيف على سطح الماء وسرعان ما تنحرف الرصاصة عن هدفها وتغوص في الماء على مسافة ياردات معدودات عنا . ويوقف الشابان تجذيفهما فترة يقذفاني فيهــا بنظرة سخرية عميقة . واخيراً عندما تذكرت كلمتهم العربية (قف !) كانت النتائج ما تزال محزنة ، فهم لا يقولون : « اوقف التجذيف ! » وانمــا يقولون « اوقف المشحوف ! » وعندما يسمعون هذه الكلمة تراهم حالاً يضربون بالمجاذيف ضد التيار ضربات جنونية كثيراً ما جعلتني انحرف على جانب المشحوف . وشعرت ، وانا اقف في وسط القارب المتأرجح ومنظاري والكاميرا والمسدس كلها معلقة من حولي وبندقيتي في يدي جاهزة للاطلاق ، وكأنني شجرة عيد الميلاد وهي تترنح . وعندما انطلقت البندقية احسست كما لو أن صاروخاً ينطلق دون سابق انذار . ولو لم يحالفني الحظ في اطلاقاتي الثلاث الاخيرة بعد الظهر لانتشرت السمعة بعدم براعتي في الرماية في كل القرى المحيطة بنا . وخرجت من جهة مشحوف ثيزيجر ، الذي اختفى عن ناظري خلال القصب الكثيف ، اربعة خنازير صغيرة كانت مختفية في غابة القصب واخذت تسبح وعبرت من امامنا على مسافة مائة وخمسين ياردة . وعندما لمحها الشابان وأرادا ان نتعقبها وقعت عيناي الى جانبنا على جزيرة طينية صغيرة ترتفع عدة انشات عن سطح الماء . وقفزت اليها من المشحوف ، وانا الآن مطمئن وقدمي ثابتة على ارض صلبة ولذلك فقد سددت بندقيتي الى اول خنزير منها بكل ثقة ونجحت في اصابة الخنازير الاربعة كلهــا بينما كانت تسبح . والحقيقة اني اطلقت ثلاث اطلاقات فقط تمكنت بها من قتل الخنازير الاربعة ، وذلك لأن الاطلاقة الاخيرة

اصابت خنزيرين في وقت واحد لأن رأسيها كانا في اتجاهين متقاربين ، وكان عملي هذا بالنسبة لهولاء الرجال الذين تتغلب عليهم صفة الاقتصاد ، شيئا رائعاً . فقد اخذهم الحماس والانفعـــال فقفزوا الى شاطىء الجزيرة وراحوا يرقصون رقصة الحرب ، ويرددون ابيات (هوسه) لو كنت اتمكن من معرفة كلماتهـا لكانت بلا شك عاملاً مساعداً لي في اعادة الاحترام والثقة بنفسي .

وعلى اية حال فقد قتلت احد عشر خنزيراً . بمـا لا يقل عن اثنتين وثلاثين اطلاقة بينما قتل عماره نفس العدد باربع عشرة اطلاقة وقتل ثيزيجر خنزيراً واحداً باطلاقة واحدة .

وكان احد صيادي البط قد وصل إلى المضيف قبلنا فتقرفص عند موقد القهوة ومحفظته ملقاة امامه والريش يغني في النار بينما هو يحترق ، وفي محفظة صيده تلك اثنان من الطيور المسماة بالبرهان وعدد من دجاج الماء وانواع اخرى من الطيور .

* * *

وبعد ذلك اليوم كنا مرة اخرى بين شيوخ المناطق العشائرية خارج الاهوار التي تحد بين الصحراء والمناطق الزراعية . وكان اولهم شاباً لا يقل طوله عن ستة اقدام وثلاثة انشات . ولأن المعدان في الغالب قصار القامة فقد ظهر هذا عملاقاً بينهم . واحدى عينيه مغلقة تماماً وتعطي لوجهه تعابير غامضة . وتمكنت لحد الآن أن استنتج بأن كل رجل من بين اربعة عشر او خمسة عشر منهم يكون اما فاقداً احدى عينيه او يشكو مرضاً من امراض العيون ،وربما يمكننا ان نستثني القبائل الرحل من هذا التقدير .

وكان الشيخ الثاني الذي زرناه يدعى عبد الله ، وهو رجل ممتلىء الجسم تظهر عليه علائم الصحة والعافية ، وقد قضينا معه ثلاثة ايام لطيفة . ومضيفه يختلف عن معظم المضايف الاخرى التي زرناها حيث يشيع فيه جو من الفرح والنكتة والبهجة ، ويفوق عدد الاطفال فيه على الكبار ،وكان احد هؤلاء يدعى داود ويبلغ الخامسة عشرة من العمر ، ويتميز بالجمال والخفة والمجون في حركاته وتعابيره الراقصة ، وحتى

(البرغوث الراقص) يعجز عن اداء حركات داود هذا الا بعد خمس سنوات . كانت حركات داود تتسم بالطابع الفني والاداء المساوق للحن اكثر من اي راقص آخر رأيته في الاهوار ولم يظهر في حركاته ما يثير الشهوة الا الشيء القليل جداً . وقد رقص لساعة واحدة ، وعندما جلس ليستريح جاءه الشيخ عبدالله ، الذي لاح انه استمتع كثيراً بالرقص قائلاً انه عليه ان يخرج معه ليبحثا عن عجل مفقود . وخرجا سوية وابتلعهما ظلام الليل المدلهم في الخارج . وبعد عشرين دقيقة عاد الى المضيف والتعب يلوح على وجه الشيخ والعرق يتنزّى من جسده ولكن علامات من فرح وغبطة لاحت على قسمات وجهه الممتلىء ، بينما دخل داود المضيف وهو يتكلف الابتسام ، ولم يذكر شيئاً عن العجل ... المفقود !

واختتمت الامسية برقصة الحرب (الهوسه) وابياتها الشعرية كانت في مدح ثيزيجر .

☆ ☆ ☆

وفي اليوم التالي انتقلنا الى مضيف اخي عبدالله ولم يكن يبعد اكثر من مائتي باردة عنا . وهنا مدّ الينا أحد رجال الدين ، وكان يضع على رأسه عمامة بيضاء ، مد اطراف اصابعه في تحية واحتقار معاً ، وخرج بسرعة . واغلب الظن انه ذهب ليغسل يديه لأنها لامستا شخصين كافرين .

وحالاً وبعد وجبة طعام فاخرة دسمة اخذ عمارة يشكو من الم في بطنه ولم تسمح له حالته السيئة ان يتكلم. واخذ يئن ويتوجّع وراح سبيتي لدهشتي الكبيرة يبكي بسبب حالة صديقه . وخف الالم بعد وقت قصير واستغرق عمارة في نوم عميق بعد ان شرب كمية من الأفيون . واظهر الشيخ عبدالله ، الذي رافقنا الى مضيف اخيه ، عطفاً وميلاً شديدين تجاه عماره ، لذلك فقد كوّم نفسه وراح يغط في شخير مرتفع ونام في الجهة المقابلة لعمارة . وكان عبدالله ما يزال نائماً عندما تحسنت صحة عماره في صباح اليوم التالي وصار بإمكانه ان يذهب في سفرة تتطلب السير عدة مئات من الباردات الى مضيف ضخم آخر يتكون من خمسة عشر قوساً على الضفة الاخرى من النهير ، غير ان عماره سقط طريح الفراش ثانية . ولحق بنا

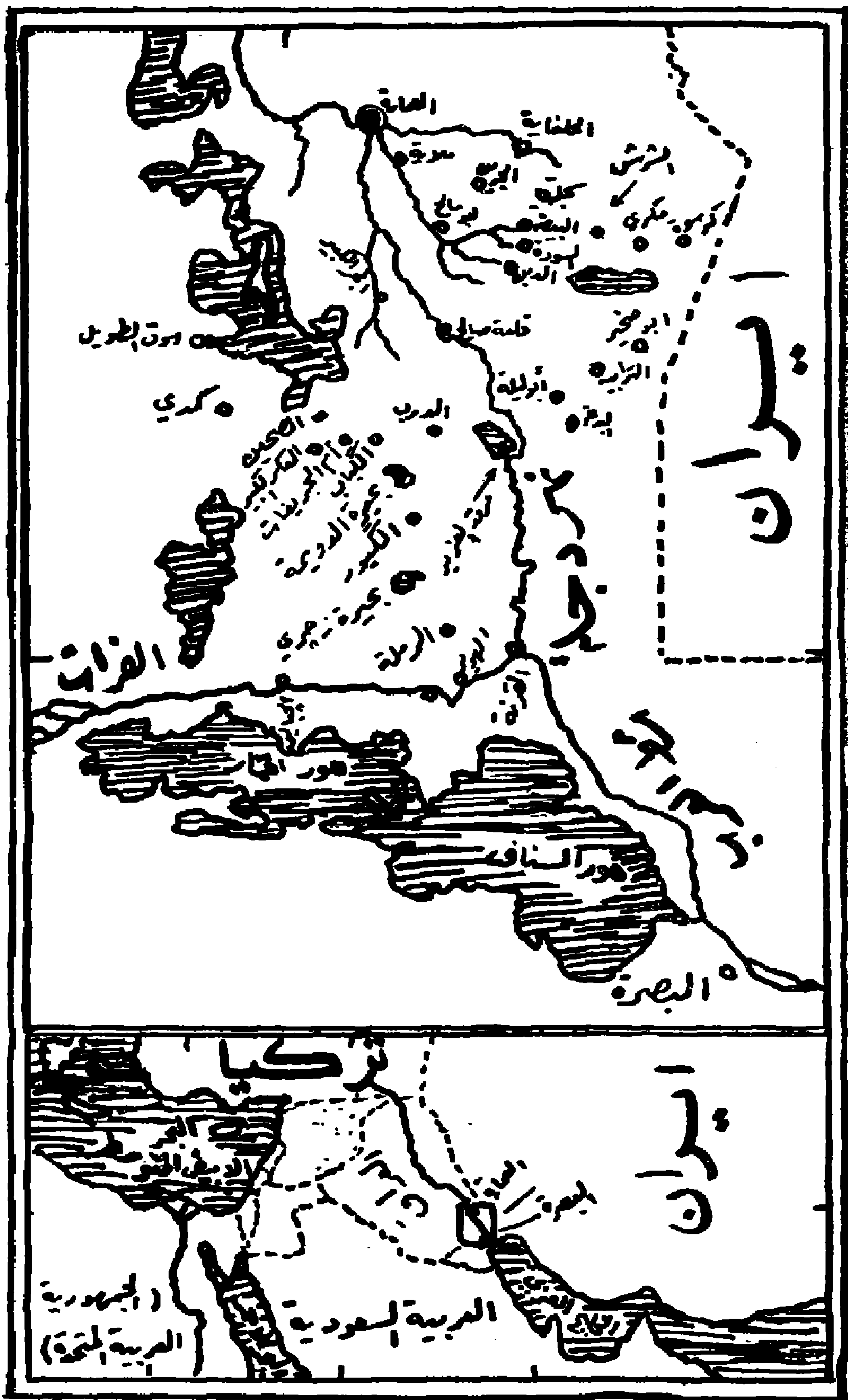
الشيخ عبدالله بعد مضي بعض الوقت ، وراح يثرثر حول عماره ، ولما لم يلاق منه استجابة ارتياح جلس يناجي بحزن وسائد النوم الوثيرة .

وجلست عند العصر الى جانب تلميذ يتكلم الانكليزية ، واخذ يسألني : « هل انت رجل شجاع ؟ كم المسافة بين لندن وليفر بول ؟ كم خنزيراً تستطيع أن تقتل ؟ » وسألني اخيراً : « هل انت تحبنا جداً ؟ اني اسألك ؟ » ولكني لم اعرف الاجابة على اي من أسئلته .

ورقص لنا داود عند المساء ثانية . وكانت احدى رقصاته تعبر عن قصة رجل غرر بزوجة رجل آخر بين القصب فاقتيد للسلطات الحكومية التي اختلطت عليها الاسماء ، وانتهى الامر بسجن الرجل المخطىء .

واما الرقصة التالية فكانت تمثل عملية صيد السمك (بالفالة) ودخل شخص غريب ، واكل سمكة بينما كانت على النار فثار ثائر الصياد مما دعاه الى قتل الرجل الدخيل هذا . ودخل عليهما شخص ثالث وكان شرطياً وقبض على الجاني الذي انكر التهمة قائلاً : « لابد انه قد مات منذ عدة ايام .. وعلى اية حال لماذا تتعب نفسك في شيء تافه من هذا النوع . »

واخيراً انتهى الرقص ولاحت علائم الخيبة والفشل على وجه الشيخ عبد الله وظهر كما لو انه يود لو فقد عجل جاموس آخر وربما اكثر من واحد . وراح يعزي نفسه بالثرثرة مع شخص آخر يجلس الى جانبه وقد ذكر ان ذلك الرجـــل يمتلك اربع زوجات .



الأعلى . منطقة الأهوار التي زارها المؤلف
الأسفل . موقعها من الشرق الاوسط

الفصل العاشر

واستيقظت في صباح اليوم التالي وانا اشعر بدوار وحمّى خفيفة وكان ذلك المرض الوحيد الذي شكوته خلال الرحلة كلها. واحسست لثلاثة ايام بالاضطراب وعدم الراحة خلال النهار ، وفي الليل كانت احلامي تدور حول اشياء لاتبعث على السرور . وثيزيجر لم يكن هو الآخر بحالة صحية جيدة وصار صوتــه غير طبيعي وربما اصابتنا العدوى من عمارة في اليوم السابق . ومررنا ميلا او ميلين نحو احــد القلاع ، وهناك ابتليت لمدة ثلاث ساعات بمدير المدرسة المحلية ، وقــد كنت اشعر بتأثير الحمّى على نفسي واحس وكأن قواي يهدها المرض . وقــد قدمه لي ثيزيجر كدليل على الحنان والعطف الذي يحسه نحوي ، وظـــن اني ساشعر بالارتياح وانا اتكلم الانكليزية مع شخص آخر . وبعد الدقائق الاولى من الصمت الثقيل ارسل المدير الى بيته صبياً لجلب كتاب ***The Oxford University Top Book*** وكان الكتاب مزيناً بصور قطط وحصران وكلماته من المفردات البسيطـــة ذات المقطع الواحد المحببة الى الاطفال . وأخذ يقرأ بصوت عال وببطء لمدة ساعـــة واحدة لاحت لي ثقيلة جداً ، وكان خلال قراءته يشدد على كل كلمة ليعطيها حقها لفظاً ومعنى : « هل القطة على المنضدة ؟.. كلا !. ان القطة تحت المنضدة ! » واستمر يقرأ بصوته الجهوري : « هل الولد يعـ..مل ؟ كلا ! انه يلـ..عب بمجلـــة اخته الكبيرة ![1] » وعند هذه النقطة قاطعته قائلا : « يعمل ماذا ؟ ».. فناولني

(١) لا بد ان المدير لفظ كلمة ***Dog*** الانكليزية التي تعني « كلبا » بطريقة مشابهة للفظـــه

الكتاب بملامح حزينة ، وكانت ثمة صورة لطفل بملابسه القصيرة وهو يداعب كلباً ولم يكن الكتاب معداً لتعليم الانكليزية في العالم الاسلامي . واخيراً أطبق المدير صفحاته وقال : Of all the c's that werbi this C that. Yes ? ولما رآني مغلق الفهم اعاد قوله ثم كتبه . واخذت قاموسه الانكليزي العربي وفتشت عما يقابل كلمة Quotation بالعربية واشرت باصبعي اليها وانا اسأله : « هل ان جملتك هي اقتباس ؟! . » فاحنى رأسه بحماس . وقلت له اخيراً بمرارة ولوعة : « اظن أنه يوجد ثمة شيء لم تذكره في جملتك ليصبح معناها واضحاً » . فاستدار لي باشراقة مفاجئة وقال : « ان ابي تحت التراب !. » قالها وتعابير من الدهشة تكسو وجهه ليغير مجرى الحديث .

☆☆☆

وبعد يومين توجهنا بسيارتنا الى لواء العمارة . وكان ثيزيجر قد ارسل شخصاً يجلب لنا سيارة خاصة فظهرت بعد فترة قصيرة وبصورة سحرية على الضفة الاخرى من النهر مقابل المضيف . وفي بداية سيرنا لم نجد هناك شيئاً يدل على طريق عام ابداً ، وقطعنا مسافة ميل والسيارة تتأرجح وتسير في ممرات ملتوية عبر اراض يابسة غير مزروعة تقطعها قنوات ري جافة .وكانت بداية الطريق العام مجرد آثار في الطين المتصلب الذي اخذ مستواه يرتفع تدريجياً حتى اصبح طريقاً ترابياً يسير بمحاذاة النهر . ولاح عن يميننا ، ونحن متوجهون الى الشمال ، هور عظيم وبحيرات ومستنقعات تمتد الى مسافة اميال عديدة ، وقد تناثرت بينها بقع خضراء من مزارع الحنطة والشعير وبقع اخرى من اراض طينية لا حدود لها تظلل بساتين النخيل بعض اقسام منها . ومررنا بعدة قبائل متنقلة من عشيرة ـ بني لام ـ وهؤلاء إما يعيشون في خيام سود مع قطعان الماشية الكثيرة التي تنتشر في ارض لاتوجد فيها مناطق خاصة بالري ، او يكونون متنقلين مع عدد من الحمير المحملة بالامتعة تساوي في قلتها النعاج المرافقة لها .

ـــ كلمة Dug التي تعني « حلمة الثدي » في الانكليزية . . وهكذا حدث سوء فهم المؤلف لمقاله المدير .
المترجم

وبعد ان قطعنا مسافة عشرة اميال بالسيارة وصلنا مدونة العمارة ،وهي ليست بذلك الجمال الذي يتسربل به اسمها ، فطـابوق بناياتها اصفر تعلوه صفائـح من الجينكو . وهناك الاعلانات الملونة لمنتوجات غربية تنتشر في كثير من المناطق ، والاوساخ والقاذورات يمكنك ملاحظتها في كل زاوية من المدينة ، حتى تراءى لي ان كل ما رأيناه بعد سماء الاهوار الصافية وحياتها الخشنة الفظة ليس الا اشياء تافهة بالية لا روح فيها ولا معنى . وقمنا بعدة زيارات مجـاملة للمتصرف ومدير الشرطة . وزرنا البعثة التبشيرية هناك .

* * *

وقفلنا راجعين من العمارة الى قرية اخرى نقل اليها حسن وكـذبة الطرادة خلال غيابنا ، ومن هناك رجعنا الى قرية دبن - بطريق غير التي سلكناها عند مجيئنا. كان الجو كأنه ربيع انكلترا مـع نسمات عليلة والشمس تشرق بيضاء خلال زخات المطر الخفيفة . وكانت مجاري الانهار تؤدي بنا في البـداية عبر مناطق الرعي حيث ضربت القبائل المتنقلة هناك خيامها لترعى قطعان مواشيها حشائش واوراق الربيع .وكان ذلك الموسم الوحيد من السنة الذي تكتسي فيه الارض بحلة عجيبة من خضرة رقيقة طرية حولت تلك الاراضي البور الواسعة الى مسافات شاسعة براقة من الحشيش الغض المنبثق عن تربة تغرقها المياه وترعى فيها قطعان من الغنم والمواشي مختلفة الالوان غير انها الوان ذات جمال خاص ، فمنها الاسود والبني والابيض . وعندما ابتدأت السماء تمطر استغربت وانا اشاهد الرعاة بدلاً من ان يلبسوا ملابس اكثر فإنهم خلعوا دشاديشهم وطووها فوق رؤوسهم . ولاح كما لو ان الفرح طغى على الجميع فقد هرول مهر صغير واخذ يضرب الهـواء بقائمتيه الخلفيتين عند حافـة الماء بنفس خفة الروح التي كان يرقص بها الاولاد الرعاة في المطر الخفيف اللامـع ، وفوق رؤوسهم تسمع حسيس اجنحة الطيور المهاجرة بأنواعها المختلفة ، فثمة سرب يبلغ طوله الميـل من الصقور الحمراء **red hawks** والطيور آكلة النمل *bee ea-ters* بلونيها الاخضر والبرونزي ، وسرب آخر من طيور تبهر العين بلونهـا الاسود والابيض . وهناك بعيداً الى الجنوب منا سرب

كبير جداً من الوز الوحشي wild geese واصواته الحلوة الذهبية تنساب ناعمة صافية عبر الاميال من الاهوار الممتدة الى بعيد . وعنـــدما توغلنا الى ابعد من ذلك كانت المسالك المائية تختنق ببساط من الازهــار البيض والذهبية اللون المزدحمة والمتكاثفة جداً حتى انه توجد هناك بحيرات ومستنقعات في بعض المناطق يتعذر للعين رؤية انش واحد من الماء المختفي تحت ذلك الفراش من الزهور . وكان ثيزيجر قد كتب عن جنوب العراق قائلا : « هنالك فصلان متميزان هما الصيف والشتاء لأن الربيع والخريف لايدومان اكثر من شهر . » والفصل الان ربيع والطبيعة خلابة ساحرة اكثر من اية بقعة من العالم رأيتها في حياتي .

ووصلنا الآن منطقة ـ السّودان ـ ، وقد كانت هذه عشيرة كبيرة في زمن مضى غير انها تضاءلت وتناثرت بسبب انشاء سد الكوت الذي أثر على هذه القبيلة التي كانت تعتمد على تفرعات دجلة العظيم . وقضينا تلك الليلة في قلعة الشيخ حاتم ابن صهيون وسط بستان من نخيل حيث المداهد hoopers بألوانهـــا الوردية تتطاير بين الاغصان ، كانت بناية من طراز غريب عليّ ، وهي واسعة منخفضة انشئت من الطين والطابوق مع جدران يبلغ سمك الواحد منهـا اربعة اقدام . وغرفة الاستقبال يسند سقفها بواسطة ثلاثة جذوع ملساء من النخيل يحمل كل واحد منها في قمته المتصلة بالسقف تركيباً خشبياً مربعاً. اما السقف نفسه فيتكون من جذوع النخيل ايضاً وتتراءى بينها (بواري) القصب التي تغطيها . وبدلاً من المقاعد الاوروبية المظهر الكريهة التي لاحظناها في غرف الاستقبال عند معظم الشيوخ ، وجدنا هنا مقاعد طويلة من الخشب الاسود ذات مساند من الخشب ايضاً في نهاياتها ، بينما فرشت الارض بقطع من البسط والسجاد .

وهنا سمعت شيئاً عن مشكلة ناصر وسلمان ، وقد اشيع ان ـ ناصر ـ سيخسر قضيته في بغداد ، وان الحكومة ستجرده من امــواله لتعيدها الى ابيه . واخبرنا الشيخ حاتم ان (ناصر) استغاث به وبعدد آخر من الشيوخ إلا أن الكل ردوا عليه بجواب واحد هو انهم سيساعدونه في حالة واحدة وهي ان يرضى برمي نفسه بين احضان ابيه ويطلب صفحه ومغفرته عما ارتكب بحقه من خطأ ، وحينئذ فقط

سيكونون مستعدين للتوسط له عند ابيه وتسوية الامر ، وذلك هو الحل الوحيد الذي يمكنه ان يعيد به سمعته الضائعة . واخذ حاتم يكرر مرة اخرى قوله بأن العقل لا يمكن ان يقبل ولا المرء ان يتصور ابناً يتحدى اباه الى حد يقدم معه شكواه الى الحكومة لتساعده ضده .

وبعد ان اضطجعنا لننام لاحظت ان الغرفة تكثر فيها الضوضاء من زقزقة السند هند Swa llows حيث اعشاشها الطينية تلتصق بجذوع النخيل . وكانت عبر ساعات الليل كلها تغني وتتطارح الغرام فيما بينها وانغامها الفضية تمزق صمت الليل بتحدٍّ واصرار . ويوقفها عن زقزقتها ضوء مصباحي اليدوي وانا اوجهه نحوها لحظة تنسحب فيها الى داخل اعشاشها بعار وخجل كعشاق هايد بارك في لندن حين تتسلط عليهم اضواء سيارة عابرة ، ولكنهم سرعان ما يعاودون غزلهم وآهاتهم بإصرار عندما يعبر الضوء عنهم .

☆ ☆ ☆

والآن وفي هذا المكان ادركت مدى صحة اقوال ثيزيجر عن الخنازير ووحشيتها في الهجوم فقد رأيت جروحاً فظيعة احدثها الخنزير كشق طويل من الركبة الى الورك ، أو ظهر ممزق ، او لحمة ساق تتدلّى قطعاً ممزقة من العظم . وقد سمعت ان ما يقرب من نصف المعدان يحملون آثار مثل تلك الجروح بدرجات متفاوتة .

وعلى اية حال فقد كانت القصص كلها تدور عن خنزير جريح ، او خنزير كان يغط في سباته حين فوجيء بمعدان يقطعون القصب او بصياد سمك يخوض الى منتصفه في المياه الضحلة بين القصب او بمشحوف صغير يسير في غير ما حذر حتى تصدمه احدى جزر القصب الصغيرة التي بناها احد الخنازير لينام فيها . والصورة ابداً واحدة لحيوان جافل فاجأه عدو خلال نومه ، او لحيوان ما يلتهب جرحه ألماً باقتراب مهاجمه . ولكي اعزز ثقتي بنفسي فهناك الحقيقة في انني قتلت عدداً لا بأس به منها ، ولم يتحدني خلال ذلك كله احدها او يظهر امامي شيئاً غير الخوف. واذهب الى حد ابعد فأقول ان المعدان لا يظهرون غير حذر قليل في التوغل الى

متاهات القصب لتتبع الخنازير . وهناك نقطة واحدة لم تفتني ملاحظتها وهـي انتشار الخنازير في كل مكان وكأنها ارانب انكلترا قبل ادخال حيوان الخلد الى البلاد . وكنت في داخلي اظن الخنازير حيوانات لا تخيف الانسان وانها غير خطرة، وقد كنت بحاجة الى درس عملي تلقنني اياه لكي اغير نظرتي عنهـا ، وكان ان حصلت عليه .. درساً قاسياً .

فقد غادرنا قرية الشيخ حاتم في ذلك الصباح عائدين الى – ملايـه – والسماء ملبدة بغيوم داكنة تلتقي عند الافق ، وترامى الى اسماعنا رعد بعيد ينذر بالمطر ومزاجي كتلك الطبيعة المكفهرة اضطراباً وضيقاً . انه ليس من السهل لرجلين ان يخاطرا برحلة طويلة كهذه لوجدهما ، كما فعلت مع ثيزيجر ، ما لم يعرف احدهما الآخر جيداً ، وكان دماغي يضج صباح ذلك اليوم بتصورات واخيلة مظلمـة سوداء عن ثيزيجر . حيث انه كان بين اصدقائه من المعدان بينما كنت انا بين اناس غرباء لا اعرفهم لذلك كثيراً ما كنت اشعر بالعزلة والخيبة والفشل . ولا يمكنني ان اصور حالتي تلك بغير كلمة .. تجهم وعبوس دائم . ولم يذهب هذا الشعور الطاغي البغيض عندما صحت الدنيا في الصباح وبزغت الشمس الدافئة لتضيء المياه الضحلة الراكدة والنباتات الزاهية الطرية الخضراء. وتركنا الارض اليابسة والقبائل الرحل وراءنا بخيامهم السود وقطعان مواشيهم الكبيرة . ولم يمض طويل وقت حتى لاح لنا الماء ثانية يغرق جانبي القناة المنخفضة . وظهر وكأن المياه لم تصـل المنطقة منذ فترة بعيدة لأن القصب كان اعواداً متناثرة رقيقة لا يزيد طولها عـن قدم او قدمين . لذلك كانت صفحة الماء تتراءى واضحة من خلاله ووراءه حتى جبال خوزستان الجاثمة بشحوب عند الافق . ومرت بنا جماعة من المهربين في زورقين او ثلاثة انحنت ساريـاتها الى الامام تحت ضغط الحبال المشدودة الى اطرافها والتي يجرها بعضهم لتندفع بحمولتها الضخمة من الحنطة المهربة عـبر الحدود الايرانية . وقد كان في الزورق عرض بهي لأسلحة اولئك الرجال وهم يحملونها على اكتافهم . وفي تلك اللحظة فقط مرّ على خاطري بغموض ان ذلـك كان اليوم الاول منذ زمن بعيد ارى فيه اننا نحمل اسلحتنا فارغة وغير جاهزة للاطلاق

لمواجهة خطر طارىء يفاجئنا .

وكان يحوم في الجو سرب كبير من الخضيري غير بعيد عن يسارنا يريـــد ان يعود الى النقطة التي طار منها على مسافة مئات من الباردات عنا . وعندما اخذت اراقبه بدأت اسرابه تهبط ضاربة سطح الماء بهدير اصواته ، والجو يعج باجنحته المرفرفة ، وحين اراد ان يحط طار مرة ثانية . وكانت جماعة منه تهبط الارض بــلا حراك واعناقه الطويلة ممدودة الى الامام ، ثم يفزع ويطير ثانية ، بيد ان اماكنه على سطح الماء سرعان ما تحتلها جماعة اخرى . وتحوم على ارتفاع عدة اقدام اسراب اخرى من الطيور وتجتمع كلها لتصبح في لحظة واحدة وكأنها كتلة متحركة من دخان ، وحين ترتفع يلمع اسفلها في بياض ناصع كالفضة .

وقد لاحظ ثيزيجر طول تحديقي فيها فقال : « انك لن تستطيـع ان تتناول كمية كافية من الطعام في المكان الذي سنقصده وربما ليس اكثر من قطعة خبز قد تلحق بها كمية من حليب .. فهل تعتقد بعد هـذا انك ستستفيد من الطيور ؟ » فنظرت الى حيث حطت جموع الخضيري ، ولاح لي انها ستبقى هناك ، ولكن لم يظهر شيء من حولي يمكنه ان يخفي حتى فـأرة صغيرة ، فكيف بانسان كبير . وتململت في أعماقي رغبة بأنني سأكون خارج المشحوف ، وسأكون قادراً أن أقف لتستريح ركبتي المتورمة من الجلوس متربعاً داخل الطرادة . وسأكون ايضاً لوحدي وللمرة الاولى منذ عدة اسابيع . وحينئذ لا بد ان يطغى عليّ شعور بالحرية .فقلت له : « سأحاول .. يجب أن أحاول ، ولكني أظن الطيور لن تأتي والطرادة قريبة منها ، لذا يجب ان تبعدوها على الاقل مسافة نصف ميـل ، واسمحوا لي بنصف ساعة ثم ارجعوا لي بعد ذلك » وأجابني ثيزيجر قائلا : « حسناً .. هـاك ست خراطيش ولكن ماذا ستفعل لتخفي نفسك ؟ »

ــ سأجد شيئاً ما .

قلتها بغموض وسكت . لقد كنت في شبابي صيـاداً للطيور ماهراً ، ولذلك تصورت نفسي الآن وانا اتمكن من صيد الخضيري في حـين يعجز هـذا الشخص

الآخر عن ذلك . وعندما قفزت من الطرادة الى الضفة الطينية من القنـاة قال لي ثيزيجر : « لا تحاول ان تضيع هذه الاطلاقات هباء . »

وعندما انحدر المشحوف في القناة ثانية جلست على الضفة الطينية واخذت ارفع بنطلوني الى اعلى . وادركت ان لا فائدة من ذلك فإنه سينزل تدريجيـاً في خمس دقائق . وعندما ارفعه ثانية سأجده ملطخاً وساقي بالطين ، بينما لا يحتاج المرء في الدشداشة الا أن يرفعها ويشدها حول وسطه . فرفعت بنطلوني وربما لن يستمر ذلك لأكثر من قطع مسافة مائة ياردة . ان معظم الخضيري قد طار الان ولم يبق في الجو غير طير غريب يدور بعيداً عني ، وواحد من طـير نعيج الماي الضخم يحلق في الفضاء ناشراً جناحيه باعتداد وكأنه سفينة حربية .

كانت خطتي ان ادخل المنطقة التي احتلها البط قبل قليل ثم طـار منها ، واقرفص هناك اذا دعت الضرورة فإني سأخوض في المياه الى النصف في لهفة الى العودة المنتظرة .. عودة الخضيري . ولاحظت انه لا يوجد غير مكمن واحـد يمكنني الاختفاء فيه ، فعلى مسافة قصيرة عني بقعـة من الارض ترتفع ثمانية عشر انشاً عن سطح الماء . وثمة بقعة اخرى الى الوراء من هـذه ولكنها اصغر حجماً وربما كانت احدى زوايا سد ترابي غمرته المياه . اما البقعة الارضية الاولى والاقرب فكانت على مسافة مائتين وخمسين ياردة عني .

وتركت ضفة القناة واخذت اخوض ، ووصل الماء الى تحت ركبتي واحسست بالقاع الطيني رخواً لزجاً مع بقايا حادة من عروق القصب توخز باطن قـدمي الحافيتين . وراح خاطري في تساؤل طفولي طغى عليه صباح ذلك اليوم كله :« ان ثيزيجر يملك جزمة طويلة لمثل هذه الحالة غير انه لم يخبرني ان اجلب معي واحدة من لندن . » وظهر واضحاً ان الجاموس كان قد مر بهذه المنطقة قبـل ان تغرقها المياه تماماً ، اما آثار اقدامه العميقة فقد صارت مزالق خطرة . وحينـئذ عبر في ذهني ، بسبب ضربات الكاميرا على صدري ، انه اذا حدث وان زلت قدمي فلن اتمكن بعد الآن من التقاط صورة اخرى ابداً .

وفي منتصف المسافة تهدل طرف بنطلوني في الماء ، وشعرت بلذة طفولية وانا

امسك بالطين وأزيحه عن فخذي بينما كنت ارفـــع بنطلوني الى اعلى مرة اخرى ولاحظت ان باطن قدمي اليمنى تسيل منه الدماء بغزارة . ورجـــع عدد من الخضيري واخذ يدور في المنطقة فملأت بندقيتي وسرت في طريقي . وحين اختفت الطيور ثانية ظهرت السماء عظيمة صافية الا من غيمة بيضاء كبيرة تمتد عبر ذلـك الصفاء والهدوء .

وكنت على بعد يقرب من الخمسين ياردة عن البقعة الطينية عندما وصلت مايشبه الخندق ، وبينما يتناثر القصب الأخضر الطري بـلا انتظام في الاماكن الاخرى ، رأيت هنا حزاماً ممدداً من ارض طينية لا ينمو فيها عود واحد من القصب وربما كانت في طولها لا تزيد على الخطوتين . فاختبرت هذه البقعة في حذر بقدم واحدة ظناً مني ان الماء فيها عميق ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك فقد وصل الى ما فوق ركبتي بقليل فخطوت الى الامام بالقدم الثانية خطوة اخرى .

وفي هذه اللحظة رفعت عيني واظن ان اذني لم تتلقف صوتاً ما .. فرحت اسير في طريقي . وكان خلف هذه البقعة الطينية بقليل والى اليمين على مسافة حوالي ثمانين ياردة عني خنزير وحشي كبير ، وهذا كل ما استطاع فكري ان يحصره في البداية ... دهشة واستغراباً وتساؤلاً اثاره ذلك الحيوان الضخم وهو يظهر فجأة في حين لم يكن هناك شيء يخفيه من قبل . ولاحظت الخنزير يقف امامي وجهاً لوجه وانه يتحرك نحوي ، وان كل مرحلة من مراحل هذا الادراك لا تدوم غير لحظات قلائل ، قلائل جداً ولكنها كانت مراحل واضحة جداً قبل ان تنتظم كلها في وحدة كاملة من ادراك كلي للموقف . وهنا قفز قلبي الى فمي ، فقد كان الحيوان يتحداني وكنا وحيدين ، هو وانا ؛ كبقعتين تافهتين تقلقان هدوء تلك الابعاد العظيمة من الامواه البراقة ، احدنا ساكن والخوف يطبق على كل خلية فيه اما الآخر ...

البندقية !.. وقفز الى ذهني فجأة انني امتلك بندقية وانني سأكون سالماً وانه في استطاعتي قتل هذا الحيوان الذي يريد القضاء عليّ ، وضحكت لهذا الخاطر المفرح . ولكني وانا اسحب بندقيتي واسددها نحو هدفي خطف في ذهني ان

الاطلاقات فيها ليست من نوع LG الذي يستعمل لصيد الخنازير وانما هي من نوع رقم ٥ الذي يستخدم لصيد طيور الخضيري . ان بندقيتي الان عديمة الفائدة تماماً. وانا وان كانت افكاري شاردة إلا ان قدمي كانتا ثابتتان على الارض . واخيراً سمعت ورائي على مسافة بعيدة اصواتاً مختلطة . وكان الخنزير بعيداً عني غير ان خطواته كانت تقترب مني مع مرور دقائق الزمن .

وتذكرت كل ما اوصاني به ثيزيجر ، ودهشت لأني كنت افكر بوضوح مع ان الخوف والرعب يتملكان حواسي : « اذا التقيت صدفة بخنزير يهاجمك وليس معك غير اطلاقات لصيد الخضيري فأسألك بالله لا تفعل ما يفعله المعدان فتضيع ذخيرتك في لحظات من الفزع في حين يكون الخنزير على مسافة عشرين ياردة عنك ، فان ذلك يثير جنونه ووحشيته ، وحينئذ لا يمكنك ان توقفه بأية حال من الاحوال ، وربما سبب لك ذلك عواقب وخيمة ، ولكنك ربما تتجنب الموت عندما تضبط اعصابك . انتظر ريثما يقترب منك تماماً ثم اطلق النار بين عينيه واستلق حالا على بطنك لكي لا تنغرز انياب الحيوان في امعائك .. وحذار ان تستلقي على ظهرك »

تلك الخيالات أشعرتني بأن الكاميرا ستتحطم اذا اتبعت نصائح ثيزيجر . وانا حتى في تلك المرحلة لم يكن تقديري للموقف كاملا . وخيل لي ان الخنزير ما زال على مسافة اربعين او خمسين ياردة عني ، ومرّ ذلك في رأسي فترتبت فيه خطوات كان علي ان اقوم بهـــا ، ينبغي علي ان اقف بهدوء وأدع الحيوان الضخم يخطو ويستجمع قواه حتى تصبح انيابه في وضع تقرب فيه من ملامستي ثم اطلق النار فيما بين عينيه ، واستلقي حالا على بطني . وظهرت كل هذه الخطوات سخيفة باردة امامي ، واخذ جسدي يرتجف ويهتز تحت تصور الأنياب الحادة القاطعة . واتذكر جيداً اني عندما قتلت اول خنزير في الهور اخذتني الدهشة لتركيب تلك الانياب الحادة .

ويمكنني رؤيتها الان جيداً مع اني لا اتذكر منها الان ، لسبب خفي ، غير الناب الايسر . وظهر كتفاه ورأسه كالثور ضخامة بينما اختفت قائمتاه الخلفيتان تحت الماء الذي اخذ يتناثر من حوله وهو يشق طريقه نحوي حتى اقترب مني كثيراً

ثم رأيت ذيله يرتفع فوق ظهره في قفزة اخيرة يقتلني بهـــا . وحاولت ان اسدد بندقيتي وان اقفز الى منطقة افضل من هذه ، الا انني وجدت قدمي وقد التصقتا بالطين فكان علي ان احررهما . ولم استطع السيطرة على نفسي من الخوف عندما قفزت خطوتين الى وراء في ماء اكثر ضحالة حسبته خندقاً في تلك اللحظات التي مرت علي كالعصور .

واسندت البندقية على كتفي وسددتهـــا بين عيني الخنزير ، وكان على مسافة خمس عشرة خطوة وانا اعرف الان بأن الخنزير عندما يكون في مثل تلك المسافة من المشخص فانه يظهر مسيطراً على الموقف . وتطلب الامر كل ما في قدرتي من سيطرة على اعصابي لكي اتمالك نفسي فلا اطلق النار . وتقـدم الحيوان نحوي وصار على بعد عشر ياردات فقط ! .. خمس ! .. واخيراً قررت الا ادعه يلمسني قبل ان افتح عليه النار ، وكنت على وشك ان اضغط زناد البندقية عندما وصل هو الى الجانب الاخر من الحزام الذي حسبته خندقاً ، ذلك الشريط الخالي من القصب الذي قفزت انا منه الى وراء . وقدرت بعد الحيوان باثنتين او ثلاث ياردات عن فوهة بندقيتي .. وفتحت النـــار . ولكنني حتى وانا اطلق الرصاص تملكني شعور بأن البندقية لم تعد مسددة فيما بين عينيه .

ولم ادرك في البداية ماذا حدث حيث اغلق عليّ الامر في تلك اللحظات حتى انني لم اتمكن من استيعاب التغيير الذي حصل في الموقف في الدقيقة الاخيرة ، او ان اتصور الفرصة الذهبية النادرة التي انقذتني . وقد كنت اطلق النار دون ان ادرك عدم حاجتي لذلك او بكلمات اخرى ان اطلاقي النار ربما يعرضني للخطر ثانية ، فقد وصل الخنزير في ذروة اندفاعه الاخير علي الى المنطقـــة التي حسبتها خندقاً والتي تفصلنا عن بعضنا على مسافة لا تزيد على الثلاث ياردات ، وربما هو الاخر حسبها خندقاً عميقاً . ان من عادة الخنزير الا يهاجم عندما يكون في ماء عميق ، وهكذا توقف هو عند تلك النقطة واستدار راجعاً نحو اليسار بكـــل سرعته ، اما الاطلاقات التي لم اتمكن من السيطرة على نفسي الا ان افتحها فقـــد اصابته وراء كتفه في نقطة تقع فوق قلبه تماماً ، وظهرت بقعة سوداء كثغرة في

جلده ولكن لم يظهر عليه انه شعر بها فقد اخذ يركض عبر الماء الضحل محاولاً عبور القناة التي تبعد مائة ياردة خلف الطرادة البعيدة .

وهكذا ، تم كل شيء دون أن يستمر اكثر من نصف دقيقة .

وظهر في الطرادة نشاط كبير مختلط ، وترامى الي صوت ئيزيجر يحمله النسيم. وعبر الخنزير القناة وراح يركض على ارض نصف جافة عند الضفة الثانية قبل ان يتلقى مني الاصابة الخاطفة الاولى ولكنها اخطأته وهكذا كانت الثانية اما الثالثة فقد اصابته خلف اضلاعه بينما كان يركض بأقصى سرعته على مسافة تقرب من ثلاثمائة ياردة ، واستمر في عدوه السريع حتى تلاشى عند المسافات البعيدة ، ولم يكن ثمة بعد شيء اخر أقوم به .

ووجدتني عاجزاً عن ايجاد حناني وشفقتي نحو حيوان جريح ، وفي الحقيقة لم اشعر بغير الاسف على نفسي ، وليس عليه ، اولاً لأني لم اتمكن من رؤية كم نفذت اطلاقاتي في داخل جسده ، وثانياً لأني لم احفظ في ذاكرتي صورة تلك الانياب الحادة التي اوشكت ان تنالني ومنذ ذلك الوقت تغيرت نظرتي تماماً نحو تلك الخنازير الوحشية .

وكذلك صارت لي فكرة اخرى نحو الكتل الطينية التي تصلح كملاجيء يمكن الاختفاء وراءها لاطلاق النار على جموع الخضيري المحلقة . وقد وجدت منها واحدة الان ، في حين لاح لي اني اتذكر منها اثنتين سابقاً .واختبرتها وتفحصتها جيداً قبل ان اخوض في الماء ثانية . وعلى اية حال لم تتمكن هي ان تحميني من العيون حتى دخلت الماء الى منتصفي بينما احتضنت بقية اجزاء جسدي تلك الكتلة الطينية اللزجة . ولم يكن موقعها مناسباً للصيد فقد اخطأت اصابة طير معين عَبَرَ فوق رأسي . وقدرت الموقف منذ بدايته حتى هذه اللحظة فتراءى لي ان منزلتي انخفضت في اعين من كانوا يشاهدونني من القارب والذين لم يعرفوا درجة الخوف العظيمة التي اخذت علي كل جوارحي ، ورأيت ان بقائي متقرفصاً في الطين ، في الوقت الذي اخطيء فيه اصابة الاعداد الكبيرة من البط ، يزيد في سوء ظنهم بي.

ولم يظهر ان الطرادة ستتحرك من مكانها لتـأتيني . وخرجت بعد فترة وصحت على ثيزيجر عبر صفحة الماء : « هل تظن الامر يستحق الانتظار ؟ » ولم يكن ثمة جواب منه ، فأعدت صراخي ثانية ، بل عدة مرات ، ووصلني الجواب اخيراً في غير ما وضوح ولاح لي وكأنه يقول : ايه ايها الاحمق !

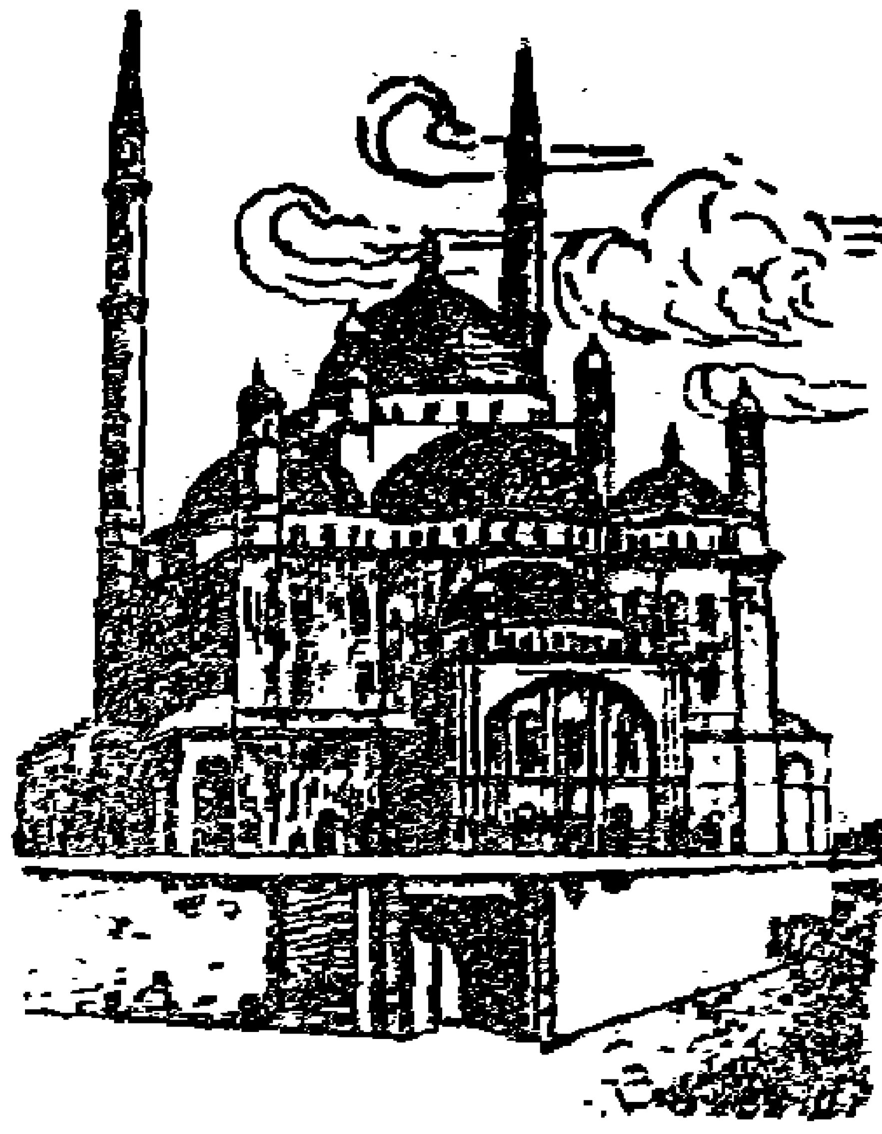
ومرت في دربي بحذر الى وراء نحو الطرادة . وكان ثيزيجر مسروراً جداً لرؤيتي وصبية القارب يثرثرون كالقردة وقد صمم كل واحد منهم ان يقبلني بحرارة وأحسست بشارب سبيتي يخدشني خلال ذلك .

وقال ثيزيجر يخاطبني : « ترى اي رجل هذا !.. لقد قـابل هجوم خنزير وحشي قريبا منه الى حد لم يسبق له مثيل ، انه لم يكن من حقـه ان يعيش ابداً . وقد انقذته معجزة لايمكن تصورها ابعدت الخنزير عنه في اخر لحظة ــ وفوق هذا فعندما كان واثقاً من سلامته راح يطلق عليه رصاص بندقيته باطلاقات رقم ٥ ! انك حقاً انسان احمق ! انها لم تكن غير معجزة ثانية حيث لم يستدر اليك الخنزير. حسناً ، حسناً ! هل تدري انني تعلقت بك روحياً تماماً عندما وجدتك ستقتل ؟ وادركت انني سأفقدك نهائياً عندما تذهب عني .. اي رجل هذا ! .. لقد استمر في سيره في الطين كالفرس ، واخطأ اصابة خضيري قريب .. انه شاذ ! انه مجنون تماماً ! وعلى اية حال فقد سررت جداً لأنك لم ترتبك ، وحينئذ لن نجرؤ ثانية على رفع اعيننا في الاهوار لو انك ... هل تدري انني لم استطـع مغالبة نزوة في داخلي وددت فيها لو يتمكن الحيوان منك ؟ ــ لا أعني شيئاً شخصياً ، لكنني لم ارى ذلك من قبل فوددت ان اراقب مـا سيفعله بك الخنزير ، بيد ان العملية لم تكن كاملة ... الم يبرهن لك الواقـع ما قلته لك سابقاً ان على الشخص الايخاف عندما يهاجمه الخنزير ؟ الم يكن ثمة وقت للعمل بهذا القول ؟ ــ لقد ادركت انك ستجد كل شيء حسب ما اوصيتك به » .

ورأيت من الافضل الا اذكر له بأنني لم استشعر الخوف يوماً في حياتي يطبق عليّ كما استشعرته عند تلك اللحظات الطويلة ، وان مجرد التفكير في ان ادير

ظهري الى تلك الانياب الحادة القاتلة دون رؤيتها بلء عيني يثير فيّ رعباً وفزعاً لا يمكن تصورها . واظن ثيزيجر لم يتفهم الموقف بصورة تامة ، واشك في انه مرّ بتجربة من الخوف والهلع في حياته كالتي مررت بها مع الخنزير .

وظننت انني سأفقد احترامي لديه لو علم بكل ما دار في رأسي خلال تلك اللحظات الطويلة الرهيبة .



الفصل الحادي عشر

لقد أثر اصطدامي بالخنزير على تفكيري ونظرتي الخارجية تأثيراً عميقاً ولعل هذا يرجع الى اني لم اعد احس بعد الآن بأني شيء لا قيمة له لأن ثمة مخلوق تجري في عروقه دماء الحياة ، أحس بوجودي وسط تلك المساحات من الامواه الضائعة والسماء واللا نهاية لها ، واعتبرني من الاهمية بحيث يجب القضاء علي .

ومنذ ابتداء رحلتنا ازعجني حياة الكسل التي عشتها ، فقد كنت مسافراً مدللاً ليس له ما يعمله ، ولعلها المرة الاولى في رجولتي اتخلى فيها تماماً عن مسؤولية القيام بأي عمل اذ لم اتدخل باتخاذ ادنى قرار او الاشتراك بعبء ابسط مسؤولية من ترتيبات السفر . ان اوقات الفراغ تتجرد في الواقع من لذتها اذا قيدت فيهـا كل حركة من حركات المرء . ولم يبق في الحقيقة من حرية في فراغي سوى اشعال السيجارة اقوم به دون مساعدة احد . اما حركات جسمي الاعتيادية فقد تقيدت تماماً اذ كنت مرغماً على قضاء معظم اوقاتي اما متربعـاً في قعر طرادة حربية او متربعـاً على ارض احد الاكواخ . وحتى لو لم تكن في الطرادة فان السير على الاقدام او مد الرجل بصورة تامة امران مستحيلان حيث لم تكن توجد هناك ارض يمكن السير عليها ، وحتى لو وجدت بقعة من اليابسة في المسافات التي تفصل بين الاكواخ فان الكلاب الضارية كانت تحيط بكل بيت الى حد يعجز معه المرء عن التجول لوحده ، ولنفس السبب لا يمكن للشخص ان يترك البيت لقضـاء حاجته الطبيعية دون ان يصطحب معه رجلاً مسلحاً ينتظره بشكل يثير السخرية .

واظن ان هـــذا التقييد البالـــغ لفعالياتي الجسمية وخلو ذهني من تحمل اية مسؤولية جعلني اكثر يقظة وانتباهاً لما يجري حولي ، ولكنه اثر فيّ من الجهـــة الاخرى شعوراً بأنني قد اصبحت صورة لطفل صغير بكل ما يرافقه من التزامات مزعجة ومن خيبة وحرمـــان . وكالطفل ايضاً كنت ادرك القليل ممـــا يقوله الراشدون من حولي . وبنفس الشعور كنت اجد عند جلوسي خلال تلك الليالي الطوال الى حلقة تضم اربعين وجهاً يضيئها نور الموقد بـــأن لذة تفحص الوجوه تتلاشى كلها عندما يدرك الانسان بأن وجهه هو هدف كل نظراتهم المتفحصة .

توقفنا ذلك المساء عند ــ ابو مالح ــ وهي قرية صغيرة مكتظة تسكنهـــا عشيرة ــ السودان ــ وقد انشئت بيوتهـــا على ضفتي مجرى مائي ضيق ، وكنا لا نزال على بعد عشرة اميال شمال حافة الاهوار الدائمية ، والارض الزراعية تمتـد وراء حدود القرية وكان بعضها يبدو قاحلا لعدم وصول المياه اليه . وكانت القرية صاخبة ، ولعلها اكثر قرى الاهوار صخباً إذ ان البيوت فيهـــا تختلف عن بقية القرى في كونها شديدة الالتصاق مع بعضها . وقد تعالى هنا نباح الكلاب ، مئات الكلاب كالرعد يختلط بصراخ اصحابها الاجش ويمتزج كلياً مع اصوات اعـداد هائلة من الاوز الاليف *Domestic geese* . وأحد الاشياء الاولى التي لاحظتها بعد ان صعدنا ضفة القنال المنحدرة ، نحو حشد القرويين الذين ينتظروننا ، فراخاً من الدجاج صغيرة لم يمض على تفقيسها اكثر من يومين او ثلاثة . كانت مدورة الجسم خضراء اللون قطيفية الملمس وقد انحنت عليها امهـــا الداكنة اللون حانية بعطف ورقة وكأنها كانت تقدر حنوها وعطفها الكبير هذا . وبينما كنت اتطلع في تلك المخلوقات وجدتني احملق في وجوه فصيل من العجول الصغيرة ربط احدهـــا الى جانب الآخر بالحبل وخضب جبينها بالحناء . ووقفت خلفها واحدة صبغ ضرعها بالحنّاء . ولونت حلمات اثدائها باللون الاخضر . وكان ذلك وقت رأس السنة حسب التقويم الفارسي ، وكانت تلك الالوان وسيلة فعالة ضد (العين الشريرة)

لم تكن تلك (العين) على ما فهمت شيئاً مادياً يكمن في قوة فرد معين وانمـا كانت بالمعنى العام (عين) كل ما يضر ويؤذى من القوى الخبيثة . واولئك الناس

يعتقدون بأن المناظر القبيحة التي تعافها النفس لا تحظى بانتباه القوى الشريرة وبالتالي ستسلم من اذاها . ولهذا فالطفل الذي يخلف بضعة اطفال ماتوا كلهم يسمى باسم شاذ حقير لكي يصرف عنه أذى القوى الشريرة ولتتجنب العائلة تضحيات كبيرة جديدة ، واكثر هذه الاسماء في هذه الناحية هي اسماء الحيوانات القذرة ، فقد يدعو خوف الابوين على طفلهما من الموت الى ان يقضيا عليه بأن يحمل الى الابد اسم (خنزير) او (كلب) او (واوى) . اما اقل الاسماء تطرفاً في هذا الباب فهي التي تحمل الرغبة في اظهار المسمّى بين مجموعة من الاشياء التافهة اللاقيمة لها مثل (ماعون) و (تمر) و (فنجان) . وادهشني يوماً ان اسمع بأن هناك طفل يدعى (حبيب) واعتبرتها من الجرأة بمكان ان يسمى طفل بمثل هذا الاسم الى ان علمت بأنه كان اصغر خمسة اخوة احياء .

وكنت اعلم ان الصينيين يستخدمون ما يشبه هذه الواسطة كأن يطلقون اسم انثى على ذكر او يلبسونه ثياب فتاة في محاولات يخدعون بها الارواح الشريرة .

وللتعاويذ المنقولة [1] التي يسميها الايطاليون (حاملة الحظ *Porta Fortuna*) والانكليز الكاثوليك (نياشين *Medals*) أهمية عظمى عند هؤلاء الناس وحملها عام بينهم بسبب ايمانهم بالخرافات ، وهي تستعمل بصورة خاصة في مرحلة الطفولة وفي حالات المرض . وقد تمتلك العائلة في بعض الاحيان مجموعة كبيرة منها تحفظها في خزانة خشبية مع أعز وأغلى ممتلكاتها ، ويصادف احياناً ان يكون عدد التعاويذ كافياً لأفراد العائلة بحيث يتمكن كل فرد ان يحمل واحدة في حالة وفود وباء محلّي ، وتختلف التعاويذ عن بعضها البعض اختلافاً بيناً . ويستغل (السّادة) المتجولون سذاجة اولئك الكادحين بوصفهم احفاد الرسول ليبيعوهم تعاويذ تقيهم شر الاصابة بالمرض او تساعدهم في الشفاء منه ، وقد تحمل وريقات التعاويذ ، ان كان السيد متعلماً ، كتابة ركيكة لبعض آيات من القرآن ، او لبعض الرموز والخطوط الملتوية ان كان (السيّد) أمياً وذلك لكي تحظى باحترام وتقدير

---

(١) كلمة « حرز» وجمعها « حروز » يطلقها الناس في العراق على هذه التعاويذ .
المترجم

القرويين البسطاء . وكثيراً ما يصادف المرء بقايا اشياء كانت تعتبر في يوم مـــا من السحر. فقد شاهدت في قرية ـ ام الجريفات ـ التي تقع في منطقة الاهوار والوسطى طفلا مصاباً بحمى خفيفة وهو يحمل في عنقه خرزة مدورة في حجم بيض الحمـــام سوداء اللون ثقيلة شديدة اللمعان . وقد يكون لانعدام الحصى في الاهوار ، وحتى في المناطق البعيدة جداً عنها اثراً في جعل هـــذه الخرزة تبدو عندهم وكأنها من التحف . لم يكن ثيزيجر بصحبتي في ذلك اليوم ، وكانت مفرداتي العربية قليلة جداً لكنني استطعت ان اسأل عن مصدر الخرزة ، وعلمت انهـا استخرجت من حفرة تحت احد اكواخ القرية . ولاح لي انها ربما كانت عريقة جداً في القدم وقد تلقي ، كما اعتقد ، ضوءاً على اصل المعدان المجهول لأن الحصاة غير اعتيادية . وحـــاولت شراءها من ام الطفل غير انها رفضت فظننت انها تحاول المساومة . واخيراً عرضت سعراً جعلني أتأكد بان ليس في نيتها بيع الفص ، وان الجلبة الـــتي ثارت حوله لم يكن القصد منها رفع سعره ، وانما الامتناع تماماً عن البيع بسبب المـــنزلة العالية التي يتمتع بها ذلك الحجر عند هؤلاء الناس الذين تكون اكثر اشيائهم رخيصة تافهة وفي مرة اخرى رأيت حجراً اخر اكثر زرقة واشد صقلا ، وقد ربط مع عدد من التعاويذ في اطراف طرحة امرأة كانـت ربة المضيف في قرية ـ دبن ـ وعرضت علي استبداله بتعويذة الذهب والمينا الفارسية التي احملها انا ، لكن حب الاستطلاع العلمي في داخلي قد اختلط الآن بعواطفي وبخرافاتي انا شخصياً فرفضت عرضها.

ولم يتيسر لي الحصول على احد تلك الاحجار حتى عدت الى البصرة ، فقد كنت اقطع الجسر الخشبي الى السوق عندما شاهدت شحاذاً يجلس القرفصاء في زاوية الجسر وضفة القناة . كان معدماً يرتدي (البشت) القروي المصنوع من الصوف ، ولاح واضحاً انه لا يرتدي شيئاً تحته اذ ان جلده العاري كان يتوضح من بين الاماكن المزقة منه ، وكان هذا (البشت) مفتوحاً عند الصدر وقد استقرت على بساط شعر صدره الابيض خرزة بيضوية كانت اغرب ما شاهدته منها في حياتي . وعدت ادراجي الى دكان صابئي كنت اعرفه حيث تعاملت معه منذ عهد قريب ، وافهمته بغرضي فعبر الشارع معي واشرت الى الخرزة على صدر

الرجل الشحاذ من مسافة بعيدة غير انه هز رأسه وقال بلغة انكليزية ركيكة : « انه (لم) يبع » . واعقبها بجملة عربية على درجه من التعقيد تعذر عليَّ فهمها ، ولما رأى انني لم افهم حاول ان يقول بانكليزية تختلط بالعربية : « من قبل .. من قبل جداً جداً كلـّش ، كلـّش مقدس جداً .. موبيع فنش ! »

فقلت له : « حاول الاتفاق معه على شرائها وحاول ايضاً ان تسأله من اين اتته وسأنتظرك انا في الدكان » . ثم عاد بعد دقائق يفرك الحجر في يده ويقول : اربعة دنانير،»انا الخذ واحد_ خمسة ، نعم ؟.. معيدي هو من مدينة القرنة.فصّ من ابيه » .

وتساءلت في نفسي عن الثمن الذي استلمه الشحاذ عن تعويذة ابيه هذه ، وكنت ارجو ان يكون قد استلم حقيقة ولو على الاقل نصف المبلغ الذي ذكره الصابئي . وليس صعباً ان يدرك الانسان كيف اكتسبت الخرزة هذه المنزلة السحرية عندهم فقد كانت شيئاً غريباً بذاتها ، وتبدو وكأنها نوع من انواع العقيق . كانت معتمة الزرقة ذات خطوط سود ، وتوزيع الالوان على احد جانبيها يشبه العين تماماً ، لكنها عين عمياء لأن البؤبؤ لم يكن بيـّناً ، وكان يحيطها غشاء حليبي اللون فلاحت وكأنها عين حيوان ميت او انها عين ظبي او عجل . وعندما كنت انظر فيها خطرت على ذهني كلمات قصيدة حفظتها من بيئة اخرى مختلفة :

كنت الحيوان الميت ..

الذي تنطبق عينه الباردة على شوكة مدببة ..

والذي اختنقت جثته حالاً بالطحلب ..

بينما تختفي جمجمتة بين نباتات السرخس ..

لم يكن باستطاعتي ان اكتشف مدى ما يلعبه السحر والشعوذة في حياة هؤلاء الناس كما لم يكن باستطاعة ثيزيجر ان يساعدني في ذلك .

ومن بين ملاحينا الاربعة اعترف سبيتي بأنه يؤمن من كل قلبه بالجن ، اما البقية فقد اعتقد اثنان منهم بأنها سفسطتنا هي التي تدفعنا الى التساؤل عن هذه الاشياء .

واما الرابع ، الذي كان اكثرهم تقبلاً لمعرفة الحلول الطبيعية لمثل تلك الظواهر ، فقد وجدنا انه يؤمن ايماناً طفولياً بالختان الذي تقوم به الملائكة للاطفال . كان هذا الاعتقاد واسع الانتشار بين قبائل المعدان الى حد غير طبيعي ، وحتى بعض الشيوخ من ذوي الملكية الصغيرة يؤمنون به على الرغم من انهم تأثروا بالعلوم الاوروبية الى حد ، واخبرنا مضيفنا مفتخراً بأنه هو نفسه قد ختنته الملائكة ، واقسم بالامام الحسين انه شاهد بنفسه اطفالاً تبلـــغ اعمارهم الثالثة او الرابعة يضطجعون بكل هدوء وعلى وساداتهم ما قطع من الجلد عند اجراء عملية الختان مع قطرات من الدم في الفراش الذي ختنوا به . والعرف عند المعدان لا يعتبر هذا الختان شرعياً وقانونياً إذ يعاد ختن اولئك الذين تمت لهم العملية بتلك المعجزة الغريبة لـكي يتفق وما تعارف عليه المجتمع هناك . ويعترف مضيفنا بأن الملائكة غير اكفاء تماماً في هـــذه العملية مع انه نفسه لم يقم باجراء العملية الاضافية له ، وابقى ختانه على ما اجرته له الملائكة . وبدت علائم الانزعاج على ملامح مضيفنا هذا عندما اكتشف اننا نشك بوجود الملائكة الذين يحملون مباضع الجراحين ، فما كان منه إلا أن قال : « ان في مضيفنا هذا اولاداً من الذين ختنتهم الملائكة ! » ثم صاح : « داود !.. تعال ودعهم يشاهدوا ما قامت لك به الملائكة ! » وخطى طفل في الثانية عشرة من العمر نحونا ورفع دشداشته دون ما ارتباك او خجل . كان المنظر مضللاً للنظرة الاولى . واضاف مضيفنا قائلاً : « انظر !.. اذا كنا نعتقد بوجود الله دون رؤيته فلم لا نعتقد بهذه الاشياء التي نراها فعلاً بأعيننا ؟ » ثم سأل الطفل : « واين كانت قطعة الجلد ملقاة ؟ » فأجاب الطفل بصوت ملؤه الشعور بالواجب ولكنه كما تبادر الى ذهني ، تعوزه الثقة : « على الوسادة » . وعقب الرجل على هذه الكلمات : « هنا ! حدث لي نفس الشيء ! » واضاف : وبعد هذا كله تدعون في بلادكم انه لم يبق ثمة شيء في الحياة دون ان تعرفوه او تكتشفوه » .

وهنا بدأ ثيزيجر حديثاً طويلاً معهم لم استطع تتبعه ثم توقف فجأة واستـدار نحوي قائلاً بنبرة اعتذار : « كنت احدثهم عن الصحون الطائرة . »

وطفح السرور على وجه الجميع ولاح عليهم اهتمام وشوق وظهروا وكأنهم جميعاً شاهدوا صحوناً طائرة . وكانت هذه في رأيهم صغيرة جداً بيضاء اللون تطير عبر السماء ببطء دون ان تحدث اي صوت . وقد تظهر احياناً في مجال البصر مـدة عشرين دقيقـة او اكثر ولكنها ليست دائرية الشكل وانما طولية . كانت تلك اجاباتهم على تساؤلات ثيزيجر واضافوا بانها ليست نادرة وقـد يتيسر رؤية احدها في الصباح . ومن الواضح ان الصحون الطائرة ليست عندهم اغرب من كثير من الظواهر التي لم يجدوا تفسيراً لها لحد الآن .

وقد شاهدنا في الحقيقة احدها في الصباح . فقد اخرجتنا صرخات عاليـة الى باب المضيف قبل ان نتم فطورنا . وكانت الاصابع تؤشر والعيون تظللها الايدي من وهـج الشمس . لم تكن ثمة غيمة في السماء الشاحبة الزرقة ، وكان اثنان من نسور البحر فوق رؤوسنا يلاحق احدهما الاخر ، وفيما عدا ذلك لم يتراءى لي اي شيء في الافق . ثم دققت فيما كانوا يشيرون اليه . وكان هناك اثر من دخان ضبابي ابيض لطائرة نفاثة على ارتفاع شاهق جداً ولكنها كانت كما ذكروا مكتومـة الصوت تماماً . وارتفعت منهم صرخات الاستنكار والسخرية عندما اخبرتهم بأنها ليست الا طائرة . وعدت الى المضيف وجلبت منظاري ومع اني جعلت درجته ١٦ الا اني لم اتمكن من مشاهدة الطائرة غير نقطة في السماء ، وبسبب سرعتها الفائقة لاحت وكأنها لا تتحرك . وناولت المنظار الى مضيفنا فنظر خلاله لحظة ، ثم اعاده لي بشيء من الغيظ ولم اتمكن من فهم ما قاله تماماً لكني اظنه قال : لم تكن لي بمثل هذا المنظار حاجة لأرى ما فوق الوسادة ! »

وسواء اعترف سكان الاهوار ام لم يعترفوا فان غالبيتهم كانت تخاف (الجن) والظلام الذي يخفيه . وليس (الجنّي) هو كما يعتقده قراء القصص العربية المشهورة شيئاً ينبثق دائماً من فوهة قنينة ، او انه روح تكون دائماً قوية وخبيثة ، انه في الحقيقة اي مظهر من مظاهر القوى فوق الطبيعة اذ ان اي شيء لا يمكن تفسيره يعزى الى عمل الجن . ان العالم اللامرئي مليء بهذه الكائنات ، ومع ان محمداً قد غيّر الفكرة المأخوذة عن الجن الا ان الكثير منها ما زال يتراءى لهم مخيفاً مرعباً

وتعزى للجن عندهم مـــن القوة مـــا يفوق الشيء الذي تنسبه اوربا للاشباح Ghosts ، فهم يعتقدون بقدرتها على قتل من تشاء ، ويعترف سكان الاهوار جميعاً بأحد اولئك الجن ويحملون له خوفاً عظيماً ، وهويظهر ، كما اعتقد ، في الليل فقط، واول ما يرى المسافر منه نوراً ضئيلاً مرعباً غير اعتيادي . وعندما تقترب الضحية يتوهج اكثر فاكثر حتى يصبح براقـــاً يخطف الابصار وحينئذ ينطلق منه ذلك الجنّي على هيئة عملاق زنجي عار تماماً يبلغ ارتفاعة خمسة عشر او عشرين قدما(١) وقد يعيش من يرى ذلك الجني ليتحدث عنه ، ولكن ربما سببت له رؤيته خللاً جسمياً او عقليا ، وقد تتيبس اطرافه او يختل تفكيره ومنطقه . وذكر احـــد ملاحينا بأنه رأى من بعيد ذلك الضوء عدةمرات خلال سفراته ، ولانـــه يعلم حقيقته فقد كان يتحاشى الاقتراب منه . وقـــد تكون في الاهوار بعض الغازات التي تصدر هذا النور .

ويعتقد سكان الاهوار بان بعض جزرهم تسكنها الجن ، وان واحدة منها على الأقل تضم كنزاً يحرسه (جني) مرعب ، ولكن ظلام تلك الجزر في الحقيقة هو الذي يخافه المعدان ، وانهم يميلون الى الاعتقـــاد بان الجن والارواح الشريرة ترتاح للظلام والاماكن المظلمة (٢) .

* * *

وغادرنا قرية ـ ابو مالح ـ في الصباح الباكر خلال مجاري مائية ارتفعت على جانبيها ضفاف طينية ترامت الارض خلفها خالية قفراء ، فلا زرع يغطي لونهـــا

---

(١) ويدعى هذا (الجني) عندهم (بالطنطل) وتحاك حوله في جنوب العراق بصورة عامة قصص خرافيه كثيرة . المترجم

(٢) يقول ثيزيجر في مقالته « المعدان او سكان الاهوار » : « يعتقد كـثير من المعدان ان في بعض جزرهم كنوزاً مطمورة ،كما يعتقد جميعهم اعتقاداً راسخاً بالجزيرة السحرية المعروفة(بالحفيظ) التي يدعون انها موجودة في قلب الاهوار الوسطى الى الشمال الشرقي من قرية (الجبايش) ، وانه الجن يحرسها ويتمكن من اخفائها ، وان فيها كنوزاً مطمورة ، وفيها النخيل والبساتين المثمرة ، ويدعون ايضاً ان هناك نوراً يتألق فيها ليلا ، وان الكثير منهم شاهـــد هذا النور . . . » ولعل ماكسويل يعني الان هذه الجزيرة . ـ المترجم ـ

الرمادي ، ولا ماء يروي تربتها العطشى ، إلا ان النخيل لاح من امامنا على مسافة تقارب الميل . ثم انعطفنا على مجرى مائي اوسع كان جماله يسلب الالبـــاب . لقد لاحظت في الاهوار وما يحيطها من اراض زراعية مراراً وتكراراً كم من الروعــة يلوح اختلاط الوان الطبيعة باللون الاخضر للنبـاتات الغضة الطرية ، حتى ان سجادة بسيطة برتقالية اللون ملقاة لتحف على جانب لوح من اكواخهم تلوح وسط ذلك العالم الساحر اروع من رداء امبراطوري بكل جلاله وفخـامته ، وقد تحمل شجرة منبثقة وحدها وسط القفر معاني الف ربيع عائد . ان كل منظر من هــذا الشكل هناك يحمل الانسان على التفكير بالغموض الذي يلفع الغابات الاسطورية . ان الربيع العائد لايغير شكل الارض في اية بقعة من بقاع العالم مثلما يغيره في ارض دجلة والفرات المستوية .

ظهر الممر المائي الذي انعطفنا اليه الآن وكأنه جنة عدن نفسها ، فقد ارتفعت على ضفتيه غابات النخيل وانتشرت بينها حشود الزهور تواجه سماء حلوة الزرقـة انعكس لونها الفيروزي على صفحة الماء التي تشابكت على سطحها الاوراق الذهبية لنبات العوسج الريشي ، في حين تألقت فوقها الزهور النضيرة في شعـــاع الشمس المنحدرة نحو الغروب والتي تداعب خلال انحدارها صفحة ماء رقراقــة طرزت حواشيها بورود بعضها قرمزي اللون وبعضها الآخر ابيض . وظهرت الطبيعة في اجمل حلـّة بتلك الالوان الزاهية ، وزاد في الروعة الغامرة خفقان اجنحة الطيور العابرة على صفحة الماء الذي وشح المنظر بوشاح من سحر وجمال . وراحت تتطاير فوق الماء طيور السمّاك بالوانها الزرقاء والحمراء والكستنائية ، وترفرف من نخـلة الى اخرى اسراب طيور اخرى تضفي على كل هذا السحر سناء لاتكاد تصدقـه العين . وفي الرقعة الخالية من السماء المنعكسة على سطح الماء كان هنـاك طير يدعى (بالغرنوق أو النحّام *Flamingo*) يطير وحده نحو الجنوب وقــد اظهرت الشمس واضحاً ما يضمه تحت جناحيه من لون دمه الرائق .

كان المنظر مؤثراً حتى بالنسبة للاحينا ، فقد مال علي سبيتي وضرب على كتفي قائلاً : زين هنا كافن ؟

ـ نعم .. كلش زين .

لم اجبه بأكثر من هذا حيث كان الافضل ان تتحدد مفردات جوابي اذ لم يكن علي ان اعبر عن كل افكاري المشوشة لكنني قلت لثيزيجر بتراخ : « كم اتمنى لو ابني لي بيتاً ولو من قصب على هذه الضفة واعيش هنا . » فرد علي : « ان الحكومة العراقية لن تسمح لك بذلك » .

اجل ... ليس باستطاعة احد ان يبني بيتاً ويعيش في جنات عدن هـــذه ، الا انه يستطيع فقط ان ينظر وربما يتذكر ومن المؤكد ان الذاكرة ستفقد مع الايام اشياء واشياء كثيرة من تلك الخيالات والصور . وكان ثمة اشخاص آخرون يسكنون جنة عدن هذه فقد تبعثرت بيوت القصب بين النخيل ولكن بعضها كان مهجوراً ، ومن المحتمل ان اصحابها وجدوا جنة عدن في اقرب حقل للنفط ، أو ربما وجدوها في شوارع العمارة هناك الى الشمال خارج مناطق الاهوار الدائميـــة حيث يعيش الشخص منهم تحت تأثيرات الحضارة الغربية الوافدة .

ورافقنا بساتين النخيل ما يقارب الميل،ثم وصلنا مرة اخرى الى احدى المناطق المكشوفة ، ولكننا كنا لا نزال نرى اشجار السنط الذهبية acacia مزهرة بالقرب من ضفتي المجرى المائي تماماً بحيث تعين على عمـــاره وكذية ، اللذين كانا يجران الطرادة ، ان يتوقفا من حين الى آخر ليعبرا الحبل من بينها . وعلى فسحة خالية من الشاطىء ، حيث لا اعشاب ولا شجيرات ، شاهدنا قطيعـــاً من البقر تقوده فتاتان صغيرتان بملابسها القطنية الزاهية . وكان ضرع كل بقرة مصبوغـــاً بالحناء ، الا واحدة اعطي لها اكبر عناية وانتباه ، وكان ضرعها قد صبغ باللون الازرق ، وما خرجت عن القطيع حتى لحق بها ثور ضخم كان يسير على جـــانب من القطيع .

وبعد ساعتين انعطفنا نحو ـ الكحلاء ـ وهو نهر واسع هادىء انتشر النخيل وبيوت القصب على جانبيه وقضينا ليلتنا تلك في قلعـــة الشيخ صدام . ولا ازال اتذكر نزل هذا الشيخ وشيخين او ثلاثة آخرين ، لأني تمكنت فيها من السير وتمديد رجلي ، وحتى من التجوال لمسافة قصيرة دون ان تضايقني الكلاب او الناس .

وكان هناك مرج عظيم بين القلعة والنهر حيث يتمكن المرء فيه من السير تصطحبه طيور ابو منجل ، وحتى ممشى النهر نفسه كان مهجوراً رغم جماله وروعته .

وفي المساء عبرنا النهر الذي يبلغ عرضه مائتي يا ردة الى بيت احد الصابئة على الضفة الثانية . ويقوم الصابئة في جنوب العراق بمعظم الاعمال الدقيقة التي تحتاج الى مهارة وفن ، وقد كنا في ذلك الوقت بحاجة الى اصلاح شيئين ، اولا فـالة الصيد التي كسرها فالح بعد ان كسرت انفي ، وثانياً وضع عروة جديدة لسكينتي التي كنت اعتز بها كثيراً .

ولا تزال هناك الكثير من الحقائق عن الصابئة لم تكتشف بعد مع ان جموعهم تسكن مناطق قريبة من معالم الحضارة والمدنية . وقد لا يزيد عـدد الصابئة في العراق عن العشرة آلاف ، اما اسمهم فمشتق ليس من الجنس وانما من الدين الذي لا هو بالاسلام ولا هو بالمسيحية مع ان محمداً قد صنفهم مع اليهود بوصفهم مـن (اهل الكتاب) . وهم ينظرون الى المسيح على انـه محرّف للحقيقة وليس له في دينهم مكان ، في حين تراهم يعتبرون القديس يوحنا المعمدان كمعلم للحكمة العظمى[١] ويعتبرون الماء الجاري ذوب الحياة ، وترتبط به تقـاليدهم وطقوسهم الدينية ، ولهذا فهم لا يستطيعون العيش في الاهوار حيث المـاء الراكد بينما تراهم يعيشون حول الانهار الجارية المحيطة بتلك الاهوار وفي الاماكن المنعزلة لأنهم ينشدون الكتمان في طقوسهم [٢] (وقد اخبرت ثيزيجر مرة عن حفلة كوكتيل في لندن مزق الصمت الثقيل المطبق عليها صوت ارتفع بكلمات كان آخرها ... « ويتزاوجون

---

(١) ويدعونه بالنبي (يحيي) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم ، وهو الذي قـام بتعميد السيد المسيح وبشر بظهوره وتوقع قيام اليهود بقتله

(المعدان او سكان الاهوار ــ ترجمة باقر الدجيلي)

(٢) الصبه .. لهم كتب مقدسة مكتوبة باليد بلغة تقرب من اللغات السريانية والارامية تسمى اللغة المندائية Mandean واهم طقوسهم الوضوء والاغتسال بالماء . فهم يعتقدون ان الماء هو العنصر الذي يعطي الحياة للجسم والروح ولذا فهم يغتسلون به بقدر ما يستطيعون وفي اوقات مختلفة ، فكل شيء يؤكل يجب ان يغسل بالماء الجاري (وللصابئة ايام اعياد وصوم خاصة)

الجبايش ــ الدكتور شاكر مصطفى سليم ـ المترجم

في الساعة الثانية صباحاً وفي الماء الجاري » فقال ثيزيجر في حينه : « لا بد انه كان يعني الصابئة » . ولكن المتكلم في الحقيقة كان يصف نوعاً معيناً من الطيور المائية البرية !)

للصابئة أو — الصبّه — كما يسميهم المعدان كتاب مقدس خاص بهم ولا يعرفه الا قساوستهم، وليس نادراً ان يجد الانسان قطعاً من الخزف وقد نقشت عليها بعض كتاباتهم المقدسة . ولم ينتشر دينهم الى ابعد من حـــدود العراق لكنهم معروفون خارجه بصورة خاصة بمهارتهم في صياغـــة الفضة والنقش بالمينا ، تلك العملية التي يحرصون ابداً على كتمانها والتي تعني طبع اية صورة على سطح فضي ناعم .

كان الصابئان اللذان قصدنا بيتهما ذلـــك المساء اباً وابنه وكانا ، لولا فارق السن يتشابهان تماماً ، فكل منهما قصير ذو لحية بطربريكية الحجم بيضاء عند الاب وسوداء لدى الابن ، وكانا هادئين يبدو عليهما النبل والوداعة ، ووضـع كل منهما على عينيه نظارة سلكية الاطار بعدستين تامتي الاستداره ، وكانا يلبسان بدلتين بيضاوتين فوقهما سترتان اوربيتان ، ويتلفع كل منهما باليشماغ الاحمر .

كان المنزل الذي دخلناه هو محل العمل ايضاً وقد رصفت على بواري القصب ، فيما بين الاقواس الداخلية للكوخ ، حفنة من الآلات الدقيقة وقطع من المعـــدن المستهلك . وبدأ الشيخ عمله في سكينتي ، وبينما كنت اراقبـــه مرت امامي نابضة بالحياة صورة رجل اخر .

فعندما كنت طفلاً كان لعائلتي حارس هوايته المفضلة هي الاعمال الميكانيكية الدقيقة ، وله في هذا المجال عبقرية كان ممكناً ان تجعل منه مخترعاً عظيماً لو انه في بيئة غير التي ولد فيها. وليس من شيء مكسور إلا ويستطيع — هانام — اصلاحه .. من ساعة اليد الى محور عجلة السيارة ، وليس ثمة مشكلة هندسية لاختراع معقد إلا وتجد عند هانام حلها . وعندما كنت في السادسة عشرة رأيته يصنع لمسدس عيار ٢٢ كاتمة الصوت الوحيدة التي اراها في حياتي ، واتذكر الآن كيف اخبرني بأنه اكتشف كاتمة تستطيع السيطرة بصورة تامة على بندقية كبيرة ، ولكنه لم يعلن عن اكتشافه هذا خشية الاغتيالات وازهاق الارواح بشكل كبير جداً . كان يقوم

بكل اعماله المعقدة في سقيفة بناها من قطع صفيح الزيت المطروقة . كان جيد التجهيز نسبياً بأدوات صنعته لكن المعجزة تكمن في كيفية استعماله تلك الآلات بيديه العجفاوين . انني لا ازال اتذكر ابهاميه اللذين كان لهما مظهر وحركة اصابع قدم عملاق يسير ابداً حافياً ، وما اكثر ما رأيت الدخان يتصاعد منهما عندما كان يمسك بكاوية الالحام ، وشممت رائحة احتراق لحم يده في الوقت الذي يستمر هو في عمله وكأنه لا يحس شيئاً . كان يحاول طويلاً ان يمسك مسماراً لولبياً صغيراً جداً بين ابهامه وسبابته غير الطبيعية الشكل ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن رؤيته فقد وضع على عينيه نظارة حديدية الاطـــار تشبه الى حد بعيد نظارة الصابئي التي يدل سمك عدساتها على انه لا يستعملها لتعديل النظر بقدر ما يقصد بها تكبير المرئيات . كان التشابه تاماً بشكل عجيب .. النظارات .. اليدان العجفاوان الضخمتان .. الوقار الفطري في المظهر والتصرف . لو عاش هانام في وسط هذه الطائفة لما كان إلا روحاً قريبة منهم وان كان لا يصبر على اداء طقوسهم الدينية . وفي احد الايام صادفه قسيس الكنيسة فعنّفه بسبب غيابه الدائم عن حضور طقوس الكنيسة ولكنه اجاب ضاحك الملامح : « كلا ايها القس ، نحن منقرضون ولا بد سيأتي اليوم الذي يطوى فيه كل منا مع صاحبه ... وان الجيل القادم لن يكون بحاجة الى عملك او الى عملي » .

ومثل هانام كان الصابئان لا يرتضيان بشيء اقل من الكمال في عملها ، ومثل هانام ايضاً فإنها لم يتقبّلا اجوراً من ثيزيجر ، ولعل هذا كان اكراماً له .

☆ ☆ ☆

واخذنا نسير في الصباح الباكر في ــ الكحلاء ــ النهر العريض البطيء الجريان ، الحالم الذي كان يعكس لون السماء الازرق على صفحتــه الاطلسية الموشاة ببيوت القصب والنخيل عند الضفتين . وكان ثمــة مضيف كل مائة ياردة فقد كان الشيوخ هنا (كل اثنين بعانه) . وتوقفنــا بعد ساعة في مضيف الشيخ يونس بن فاهود وهو شاب شرير المظهر لا أرغب في جعله يوما عدواً ولا صديقا لي . كان المضيف زاهياً وقد فرش فيه السجاد ووضعت عليه الوسائد من قبل عبيد كثيرين .

اما السجاد الذي وضع قرب البـــاب في اماكن الشرف فقد كان ذا الوان تبهر الانظار الا ان رسومه تافهة التصميم ، ولكن في نهاية المضيف اختفت تحت الظلال بحياء سجادتان قديمتان لكنهما في الحقيقة فاخرتان اذ تبلغ واحدتها الخمسة والعشرين قدماً طولاً وعشرة اقدام عرضاً . كانت احداهما ممزقة في عدة اماكن بينما الاخرى جيدة ولطيفة الشكل ، ومع انني لا اعرف غير القليل عن السجاد الا اني قدرت ثمنهما بما لا يقل عن بضع مئات من الدنانير . وانتبه ثيزيجر الى طول تحديقي فيهما فقال : « فاخرتان ؟ اليس كذلك ؟ لقد استرعيا انتباهي تماماً . انهم لا يعطونهما حق قدرهما ابداً اذ انهم يحبون التوافه الحديثة وحالمـــا تتسنّى لهم الاموال يقومون باعداد الأثاث الجديد لمنازلهم . لا تبد اعجابك بهما والا اهدوهما لك ، وسيكون ذلك شيئاً مربكاً لنا فأنا في الاهوار لا أقبل الهدايا . »

ولسبب لا اتذكره تحول الحديث الى الطيور ، وهنا كان لي مثـال آخر عن الخرافات التي تحشو حتى ادمغة الاثرياء منهم الذين يتيسر لهم زيارة المدن التي تأثرت بالحضارة الغربية فقد سألنا يونس جدياً عن وجود ، او بالاحرى المكان الجغرافي للطير الذي يحمل الرخ الذي يحمل بدوره فيلا (١) وفكرت كم ستكون الحياة بسيطة ومثيرة لو استطاع الانسان ان يبحث عن هذه المعجزات في العالم الخارجي المحسوس دون الالتجاء الى المعجزات المرعبة التي يقدمها العلم .

وبعد قليل تحول الحديث الى موضوع لم أفهمه لذا اخذت انظر في الخارج خلال مدخل المضيف ... فعلى بعد ثلاثين ياردة كانت ترعى غزالة اليفة ، وعلى الضفـــة الاخرى من النهر كانت ثمة فتاة صغيرة رائعة الجمال تلصق اقراص العجين في داخل مخبز طيني مخروطي الشكل (التنور) . كانت كاملة الملامح لا يزينها الوشم ، اما اتساق تركيبها الجسمي وتناسق اعضائها فهو في غاية الروعة دونما حاجة الى تينك العينين الرائعتين او البشرة الذهبية اللون ، او الامــواج المتألقة من ارتماء شعرها

(١) كان جديرا بالمؤلف ان يلاحظ بان هذا السؤال اثارته قراءة ذلك الرجل او سماعه قصص السندباد البحري في كتب المطالعة للمدارس الابتدائية في العراق .

المترجم

الاسود المنساب كشلال على كتفيها ، ودونمـا حاجة ايضاً الى تلك الشفاه الغضة الناعمة او الى تعابير وجهها الذي لا يزال يحمل حلاوة ونقاء الطفولة ، واني اعتقد بأنها كانت اجمل طفلة اراها في حياتي . ثم استقامت من على (التنور) فأبرز ثوبها القطني الازرق البراق تكوير نهديها الصغيرين الناتئين . وادركت انذاك بأنهـا ليست في نظر اولئك الناس طفلة وانما هي في سن الزواج ، وربما كان عمرها لا يقل عن اثني عشر عاماً لكنها تبدو اصغر من هذه السن .

ولاحظ سبيتي الذي كان يجلس الى جـانبي طول استغراقي وانصرافي بكليتي الى مطالعـة تلك الغادة الباهرة الجمـال فهمس في اذني وهو يلكزني : « حلوه .. كافن .. تريد ؟ » فأجبته ببرود : « نئم .. هلو ! » وازعجتني صورة هذه المخلوقة الرائعة وانا اتصورها بين ساعدي معيدي فظ .

وعلى بعد قليل مني خارج المضيف تماماً اضطجعت ببلادة واطمئنان نعجة كبيرة حمراء اللون تمضغ بتلذذ من حزمة حشيش اخضر . وعلق احدهم ، وقـد يكون طفلا ، شريطاً ازرق على صوف رقبتها . كانت تجتر وهي فاغرة الفم وقد شهقت خلال ذلك اكثر من مرة . ومن الواضـح انها كانت متلذذة بما تقوم به من عمل ، وبينما كنت ارقبها جاء رجل يحمل سكيناً كبيرة معقوفة فأمسك بالشاة من صوفها وسحبها وهي تجاهد في الافلات منه ، ولكنها كانت لا تزال مستمرة في اجترارها واخبرني ثيزيجر ان رب البيت كريم وربماسيذبحها من اجلناولكن اعصابي لم تتحمل التفكير بأنا سنأكل تلك الشاة الشمطاء على بلاهتها وسلامـة نيتها ، ولاح لي انني سأمرض حتماً ان كان لابـد لي ان اتناول شيئاً من لحمها ، وتصورتها وهي ما تزال تجتر في حين تعمل السكين في حنجرتها لتختنق اخيراً بدمها وتموت رويداً رويداً بينما يتخضل الشريط الازرق بدمها القاني المهـدور . لم يكن ثيزيجر يحمل كبير عطف على الحيوانات لذا احتفظت بارائي لنفسي . وظهر الرجل حامـل السكين مرة اخرى بعد عشر دقائق وهـو يضع تحت ذراعه حزمة كبيرة من الحشيش المقطوع حديثاً وفي اثره تعدو تلك الشاة الغريبة سليمة بليدة نهمة كعادتها وانحنت مباشره وبدأت تملأ خزانتها بالحشيش .

وقد تناولنا في وجبة العشاء هذه شيئاً اخر فقد طوردت ضحيتنا هذه بلا شفقة ولا رحمة حتى استقرت هامدة الحراك امامنا إلا انها كانت شهية اللحم . وكنا قد انحدرنا في النهر ما يقارب الميل قاصدين ـ مطشّر ـ وهي منطقة طينية على الضفاف خالية مـــن الزرع . وكانت الحركة على سطح النهر شديدة حيث انتشرت السفن الشراعية الكبيرة التي يبلغ طول صواريهـــا اربعين قدماً والتي عجزت اشرعتها المرفوعة عن مقاومة تيار الماء لذا اخذ الرجال يسحبونها بحبال طويلة ، وحالتهم وهم عراة من الوسط الى الاسفل شيء يثير السخرية ولا يكادون بكل جهودهم تلك ان يقطعوا ميلين في الساعة . وهطل المطر وسرعان ما صارت الممرات الترابية بين البيوت مزالق طينية ليّنة . كنا لا نزال خارج الاهوار ولا يوجد في المنطقة قصب يمكن ان يلقى على الارض ليعمل عمل الرمل الذي يلقى في شوارع لندن خلال الشتاء الممطر . وفي لحظات قلائل تكونت غدران من الماء تتساقط عليها قطرات من المطر الكبيرة بطقطقة وفرقعة .

وكما ابتدأ المطر فجأة توقف مرة واحدة لكنه ترك قطعة بديعة من ارض مبللة صارت ميداناً لمطاردة عشائنا . فبعد ان توقف المطر خرجت الدواجن من بيوت اصحابهـــا واخذت تحدق باستياء في سطح الارض المبلل . كنا نجلس في مضيف رفعت البواري الجانبية فيه لأربعة اقدام بحيث صار مشابهاً لسرادق من السهولة النظر الى جوانبه كلها . واستدعى مضيفنا صبياً واشار الى ديك ضخم كان ينقل خطاه في الوحل بعظمة وجلال . كان لا بد ان يتميز هذا الطير ويجلب الانتباه اكثر من اي طير آخر في تلك البقعة ، وكانت له الوان طيور الغابات الهندية الزاهية ، وهو مألوف الرؤية لدى الناس اليوم بسبب رسوم القرن التاسع عشر التي تصور عراك مثل هذه الديكة فيما بينها ، وهو ضخم الحجم وطول اصبعه الخلفي اربعة انشات .

واشار الصبي الى اخر ان يساعده ، واقترب كلاهما من الطير الجميل بحذر في الوحل وادرك الديك حالا غرضها ففقد جلاله وصارت خطواته قصيرة غير ثابتة واخذ يرفع راسه زاعقاً بخوف ، واضطر اخيراً الى اتخـاذ موقف هجوم مرتبك

وانفجر الخوف من حنجرته زعيقاً هستيرياً عالياً وانحنى احد الصبية ليمسك به لكنه افلت من يده وسقط على وجهه في الطين . وفي الوقت الذي قام بـه هذا الصبي كان الآخر قد ركض في اثر الحيوان الذي هرب في احدى زوايا البيت . واختفت عملية القاء القبض هذه عن اعيننا لدقيقة واحدة مع ان الجلبة المتزايدة الناتجة عن صرخات الديك تدل على انه ما زال يواجه تحديهم ، وعاد الى ابصارنا ثانية هارباً امام اكثر من عشرة اطفال من مختلف الاعمار مسلحين بالعصي والقصب وقد تمرغوا من رؤوسهم لأقدامهم بالوحل . واندفعت فتاة صغيرة من بيتها في محاولة لقيادة المطاردين لكنها تزحلقت وسقطت على وجهها فانزاح ثوبها الوحيد فوق ظهرها حتى كتفها وتعرت عجيزتها الدائرية ، ذهبية تحت الفضاء الرحيب . كان الديك لا يزال في المقدمة تتبعه عصبة المطاردين في كل مكان وعددهم يرتفع ويتضخم عند كل لحظة . واخيراً اهاج الصياح والحركة اثنين او ثلاثة كلاب فراحت تعوي على المطاردين ، اما الديك فقد هدّه التعب ، واخذ يبحث لاهث الانفاس عن شيء يلتجيء اليه . ولسوء حظه وجد ضالته وسط اعدائه ، وقد ترك مطارديه على مسافة بعيدة عنه واندفع بقوة الى ملجئه هذا في المضيف . ووقف بيننا في ضوء المضيف المعتم وهو يلهث ولكن تماماً دون حراك . وريش ذيله الاخضر الباهر يرتجف بهدوء . وكان بودي ان اوفر له الملجأ الذي يريد بين ضوء المضيف الخافت واقواسه الضخمة ،لان ابسط مضيف في الحقيقة يشبه الكاتدرائية الا ان مضيفنا انحنى فوق الحيوان المتعب بضحكة عالية ورفعه بكفه الكبير الى اعلى وترك الديك في احدى يديه برجليه المتأرجحتين في الهواء ، وفي اليد الاخرى يلتمع خنجر .

* * *

وفي ــ مطشر ــ اقتربنا ثانية من حافة الاهوار الدائمية ، ولم تكن تفصلنا عن ــ دبن ــ الا اميال قلائل ؛ فقد اخبرنا شخص عاد مؤخراً من هذه القرية بأن العقاب كان الى ما قبل ثلاثة ايام يتمتع بصحة جيدة . ووصلنا دبن مساء اليوم التالي واصبحنا وسط الاهوار من جديد . ووجدنا الاهوار اشد اخضراراً واكثر

امتلاء وادق تحديداً مما كانت عليه قبل ثلاثة اسابيع . ورحبت مرة اخرى برؤية مناظر الاهوار وادركت انني خلال مكوثي بين المزارعين كنت أحن الى البردي ومتاهات القصب العملاق هذه . كم كنت إتمنى ان تكون الاهوار موطني الى الابد لولا ذلك الوحل ولولا قنوات الارواء التي تحيطها .

وذهبنا الى المضيف فوجدناه قد تغير تماماً عما عهدناه في المرة السابقة . ولم تعد – دبن – تلوح جزيرة طينية وسط بحيرة تتناثر فيهـا الحشائش اليابسة ، فقد نمت اعواد القصب الاخضر واوراقه حول الاكواخ والى مسافة بعيدة ، وحتى الزوارق والمشاحيف لم تعقه عن نموه ، وانما كانت هي نفسها تطبق عليها وعلى اصحابهـا لتخفيهم عن الانظار .

لم يشر احد الى العقاب ، واستعلمت عنه بعد فترة قصيرة فاختلس الحاضرون النظر الى بعضهم البعض ثم ذكروا انه لا يتمتع بصحة جيدة خلال اليومين الاخيرين واحضروه لي فرأيت ان الثلاثة اسابيع التي فارقته فيها قد أثرت عليه كثيراً ، لم يكن يوجد على صدره شيء من اللحم لذا فقد برزت عظمته كسكين حادة خلال ريشه . كانت الاقذار تغطي ريشه تماما ، وقد طاب لأحدهم ان ينتف ذيله الجميل ، واحدى عينيه رأيتها ملتهبة بينها تكاد الاخرى تكون مغلقـة لكن حوصلته امتلأت بمادة ناعمة سائلة . واخذ الظـلام يزحف نحو المضيف فحملت الطير من الدائرة المحيطة بالنار ووضعته في الظلام المطبق عند اقـدام الاقواس الضخمة في الداخل . كنت غاضباً حانقاً لاهانتهم هذا الشيء الجميل الشرس وليس باستطاعتي السكـوت عن اية اهانة سواء وجهت لأنسان او حيوان ، وما اكثر ما شعرت بالأسف على نفسي لأني اعتدت دائما المقـارنة بين نفسي وبين الحيـوانات تماما كما اقارنها بكل البشر ، وهذا ما يسبب لي مضايقات مزعجة كثيرة في حياتي .

وعدت الى حلقـة الرجال وسألت عن الطعام الذي اعطـوه للطير فاخبروني بأنهم قدموا له ما اشرت به عليهم : عدداً من الطيور ، وبعض الخفافيش الموجودة في سقف المضيف وسمكا صغيراً في بعض الاحيـان ، وبعد ذلك سألتهم عما يمـلأ حوصلته في تلك اللحظة . قام ثيزيجر بالترجمة بيننا ، وتأثر هو الاخر لتأثري لأنه

كان يعطف بعض الشيء على الجـوارح . وذكروا انهم لا يعرفون ما بحوصلته لأن ربة المضيف هي التي اطعمته في ذلك اليوم . وحملت مصباحي اليدوي وذهبت الى العقاب فوجدته قد تقيأ كل ما يوجد في حوصلته وراح يعالج سكرات المـوت ، ولاح لي ان ما كان على الارض بجانبه نوع من اللحم ، ثم انكشفت الحقيقة مُرّة. لقد كان عجينة من التمر . ودخلت المرأة المضيف فذهبت الى جانب النار واخبرت ثيزيجر عن التمر . فأختلى هو بالمرأة في زاوية من المضيف واعترفت من دون حياء او خجل بأنهـا اجبرت الطير الكبير الجـارح على تناول قطعة كبيرة من خبز لين كالعجين ، وبعد ان رأت صحته تسوء نتيجة لهذا الغذاء اعطته تمراً معجونا . ومن المحتمل ان الطير لم يأكل ولا شرحـة لحم منذ فارقنـا ــ دبن ــ . ولخص ثيزيجر قابلية تلك المرأة ومدى قواها العقلية بكلمات وجيزة وجهها اليها قائلاً : « لو انك اشرفت على اسد اسير لما اطعمته شيئا غير الحشيش » .

ومات الطير الكبير بعد بضع ساعات قذراً ملوثاً بالاوساخ ... مـات عقاب الليل المسكين مهيض الجناح منتوف الذيل محشو الحوصلة بالعجين والتمر مرغـماً بقيئه ، مـات في زاوية مظلمة من زوايا مسكن قـاتليه ، مات واحدى عينيه البرتقاليتين الواسعتين لا تزال مفتوحة تحدق عبر مدخل المضيف نحو النجوم اللامعة في الفضاء الرحيب .

وانحنيت على الطير ، وادركت ان بعض توتر اعصابي يرجع الى اني قد تخليت عن مسؤولية رعايته . واخذت اشعر بالكره والاحتقار لتلك المرأة الغبية رغم مركزها وغناها ، فقد عجز بخلها حتى في السيطرة على بلادتها . وظـل رأسي تزحمه هذه الافكار فلم احاول فهم الحديث الذي كان يدور بالقرب مـني حتى جلبت انتباهي كلمة (جلب ماي !) فسألت ثيزيجر ما الذي يقولونه عن كلاب الماء Otters واجابني : « اظن بأننا سنتمكن من الحصول لك على جروة كلب الماء ، التي طلبتها ، اذ ان هذا الرجل قد وصل الآن من قرية تبعد مسافة نصف ميل عنا وهو يقول بأنه حصل منذ عشرة ايام على جروة كلب ماء صغيرة ولكنها لا تزال ترضع الحليب من القنينة ، فهل تريدها ؟

ـ انها بالضبط ما كنت اسعى للحصول عليه .

اجبته على سؤاله واستطردت قائلاً : « وانا اظن الافضل لنا الا نقول شيئاً معيناً حول الأمر فقد يعيدون حكاية العقاب ثانية ، وقد نكتشف انهم اعطوه بعض الكحول المثيلي .

اخبرنا صاحب جروة كلب الماء انه سيجلبها خلال نصف ساعة ثم خرج . ورأيت خلال فتحة المضيف مشحوفه ينساب بهدوء فوق الماء الذي انعكست عليه نجوم لامعة براقة . وسرعان ما عاد يحمل الجروة فوضعها في حجري بينما كنت اجلس متربعاً . رفعت الجروة رأسها اليّ وهي ترتجف من البرد . كانت بحجم القطيطة أو السنجاب ولم تزل بعد صغيرة جداً لا تحتمل الوقوف على اقدامها. وكان ذيلها المخروطي في طول قلم الرصاص . وعندما تمرغت على ظهرها ظهرت بطنها المغطاة بالفرو واقدامها المبطنة بغشاء لحمي ، وقال ثيزيجر يخاطبني : « حسناً .. هل تريدها ؟ » فحركت رأسي موافقاً فقال : « كم ستدفع بهـا ؟ » فأجبته : بالتأكيد اكثر مما سيطلبونه لها » . فقال : « لكنني لن ادفع عنها ثمناً عالياً لأن ذلك شيء مناف للكرامة ، سنأخذها إذا عرضوا سعراً معقولاً وإلا فسنجد واحدة غيرها في مكان آخر » . فقلت له : « دعنـا نأخذ هذه فإننا على وشك الرحيل من هنا وقد لا نصادف واحدة اخرى ، وفوق ذلك كله ان هذه آخر زياراتك للاهوار ، ولذا فكرامتك بينهم تصبح بعد الآن شيئاً لا قيمة له فلدوك اياها ام لا » . لم أشأ ان ارى تلك المخلوقة السارة تفارقني من اجل بضعة دراهم نحافظ بها على الكرامة والاعتبار ولاحت لي المفاوضات حول تحديد سعرها طويلة، لكننا حصلنا اخيراً على الجروة مقـابل خمسة دنانير على ان يتضمن هذا المبلغ اعطاءنا حلمة المطاط وزجاجة الحليب القذرة والثمينة في آن واحد ، لأن الزجاج يندر وجوده في الاهوار .

ان معظم صغار الحيوانات تتسم بالجمال ، ولكن كان لهذه الجروة من السحر في كل نقطة من جسمها ما لم اجده في صغار اي حيوان آخر . ولا يمكنني الكتابة عنها الآن دون ان احسّ في داخلي بغصة من اجلها .

واقتطعت قليلاً من شريط منظاري لكي اربطها به لكن المهمة لاحت عسيرة لأن رأسها لم يكن يزيد في حجمه عن عنقها ، وبعد ذلك اوصلت الشريط بخيط يبلغ طوله ستة اقدام لضمان اتصالي بها وسيطرتي عليها حين يحلو لهـا ان تركض بعيداً عني ، ثم أدخلتها تحت قميصي وسرعان ما استعذبت ذلك الدفء والظلام الذي فارقته منذ انتزعت من امها ، وبقيت احملها على هذه الصورة طيـلة ايام حياتها القصيرة . وكان رأسها يبرز من فتحة الصديري عندمـا تكون مستيقظة وكأنها وليد حيوان القنغر يبرز من كيس امه . وكانت تنام ككلاب المـاء على ظهرها ، اما اذا استيقظت فإنها تزقزق في البداية كالطيور ، اما في احلامها فإنها تطلق صرخات ذات ثلاث نغمات ، وقد سميتها (كحلاء) باسم النهر الذي تركناه في اليوم السابق ، ولأن نغمة صوتها تشابه مقاطع هذه الكلمة .

ونمت في تلك الليلة نوماً متقطعاً ، ولاحت كلاب قرية ـ دبن ـ وكأنها تعوي كلها في اذني ، ولم اسمح لنفسي بنوم عميق خشية ان اقضي على كحلاء التي هدأت الآن تحت ابطي . وكانت كغيرها من كلاب الماء قد تدربت على شؤون نفسها منذ البداية وانا بالاضافة الى ذلك قمت بتسهيل الامر لها بأن وضعت فراشي مـلاصقا لجدار المضيف بحيث تتمكن من القفز لتختلي في زاوية بعيدة بين اعمدة القصب وتقضي حاجتها هناك . وقد فعلت هذا الشيء عدة مرات خلال الليل وعندمـا تنتهي من العملية تقفز على كتفي وتطلب زجاجة الحليب . كانت ترضع مستلقية على ظهرها وممسكة بالزجاجة بين مخالبها كما يفعل صغار الدببة ، وحين تنتهي من الرضاع تأخذها اغفاءة لذيذة بينما حلمة المطاط لا تزال في فمها ، وعلى وجهها الطفل تعابير من رضى واقتناع .

لقد رضيت بي اباً واماً لها من اول لحظة نامت فيها بين جسدي والقميص ، ولم الحظ انها ابدت خوفها مرة من اي شيء او اي انسان لكنني كنت ذلك الاب الذي خذلها ، فأنا لا املك لا المعرفة ولا تلك الغريزة التي تملكها امهـا ، وعندما ماتت كان ذلك بسبب جهلي وقلة تجربتي . ومع ان مأساتها طفيفة الا انها كاملة . وكانت قد تعلمت اسمها مع مرور الايام . وابتدأت تلعب كالقطيطات الصغيرة ،

وتسير في اثري عندما اجد رقعة جافة من الارض اسير عليها لانها تكره ان يبتل قدماها وعندما تتعب من السير تستلقي على قدمي حتى انحني عليها وارفعها لتدخل دفئها الحبيب في تلك الظلمة الآمنة وتستسلم لنوم عميق في الداخل بينما يظل قسم من ذيلها المدبب بارزاً من فتحة الصديري . وقد دعاها المعدان (ابنتي) واعتادوا ان يسألوني عن آخر مرة (رضعتها) فيها !

وكثيراً ما كنت افتقد كحلاء عندما اجلس لاكتب عنهـا عند عودتي لأرض الوطن ، ويأخذني الحنين فاطرح المسودات والقلم جانباً واخرج الى الباب واصفر فينطلق من البحر ، على مسافة خمسين ياردة (مجبل) الذي خلّف كحلاء ويأتيني راكضاً فوق رمال البحر ويقفز من حولي ثم يدخل البيت ويذهب لينام على ظهره الى جانب الموقد . كان مجبل كلباً من كلاب البحر ذا اهمية كبيرة فـإن جنسه كان غريباً وجديداً على العلم ، ولم اكن لاكتشفه هناك لو لم تمت كحلاء التي كم تمنيت لها الا تموت .

* * *

وغادرنا قرية ــ دبن ــ في صباح اليوم التـالي خلال منطقة تعج بالطيور المهاجرة ، وقضينا ليلتنا في مضيف حاج محيسن في ــ العكر ــ . وكانت قلعة ناصر ذي السمعة السيئة تبعد عنا بضع مئات من الياردات ، وكان لعدة سنوات خلت يعمل على تقويتها حتى لاحت الآن منيعة تماماً بالنسبة لرجال لا يتسلحون بغير اسلحة خفيفة. وكانت تحيطها الاسلاك الشائكة وانعكست مع شعاع الشمس الغاربة خيالات عبيد مسلحين وقفوا في عدة اماكن فوق حائط القلعة لحمايتها. وقد انشأت الحكومة مركزاً احتياطياً للشرطة زودته بالبنادق الرشاشه للحراسة كما وضعت نقطة على النهر فوق زروق بخاري ابيض لمراقبة الحالة واحسست في داخلي استعداداً لمشاركة جابر في الهجوم على قلعة ناصر .

ووجدت كحلاء مقيدة عن الحركة والفعالية ، ولما كنت قد اعتدت على حملها تحت الصديري فإن الانتفاخ الذي تحدثه يجمع النـاس من حولي حيثما مرت ، وبالاضافة الى ذلك لم اعد احمل كامرتي بعد الآن لأنها تصطدم بجسم كحلاء

خلال السير .

وقمنا في اليوم التالي برحلات قصيرة الى مناطق مجاورة ، واتذكر اننا تناولنا طعام الغداء في قرية ينتشر فيها وباء الملاريا ولم تبق لدينا كمية كافيه من البلودرين Paludrine تمكننا من معالجة عشرات المرضى . وفي المساء وصلنا إلىقلعة طالب شقيق ناصر وجابر لأبيها ، وهو الذي اطلق في صغره النار على السيد الذي ارسله جده سلمان لمفاوضته عندما ثار ضده بسبب تفضيله ناصر دون سائر اخوته . ولم نبق هناك مدة طويلة لأن طالب كان في العمارة يحاكم بسبب اغتصابه ابنة احد التجار ، واخيراً تخلص من هذه التهمة مقابل دفعه غرامة بسيطة . ولما لم تكن مفاتيح القلعة لدى احد غير طالب فقد نزلنا في مضيف السيد كاظم القريب منا .

وفي ذلك المساء ناقشت قضية فطام كحلاء ، فلقد شعر كلانا بأنها اصبحت من الكبر بحيث تستطيع تناول الطعام الصلب ، وتراءى لي ان جسمها الضعيف سيستفيد اكثر لو تناولت اشياء اخرى غير حليب الجاموس . وعلى اية حال فقد اخطأت خلال ذلك تقدير قوة الغريزة الكامنة في اي حيوان ، وتراءى لي ان كحلاء تحتاج الى التعرف على تناول الدم واللحم خطوة بعد اخرى . ورأيت ان افضل طريقة هي ان اضع لهـا بضع قطرات من الدم في حليبها لتعويدها على طعمه . وقد برهنت هذه العملية بشكل عجيب على سذاجة وعدم تقدير صحيح اذ بينا كنت امسك بجثتي عصفورين مذبوحين ، وانا احاول وضع بضع قطرات من دمائهما في زجاجة الحليب ، شمت كحلاء رائحة اللحم الاحمر فقفزت بوحشية على الجثتين . ولو لم اتدخل في الامر لمزقتهما باسنانها المدببة وبرهن ذلك بجلاء على استعدادها لتناول الاطعمه الصلبة . واختطفت منها الجثتين فثار ثائرها ، ولمـا اقتطعت لها شرائح من لحم الصدر التهمتها بشراهة وراحت عيناهـا تدوران في انتظار المزيد .

ــ اقطع عنها الحليب .

قال عماره بلهجة من يضع للامر حلاً نهائيا واستطرد قائلاً : « كفى .. كفى ، لقد كبرت الآن . » وظهرت فعلا كبيرة الا انها في الحقيقة لم تكن كذلك .

وقضينا ليلتنا في مضيف شيخ شاب مخنث ، وكان واحداً من اثنين فقط من هذا النوع رأيتهما في الاهوار .

وكانت تلك واحدة من الليالي التي اقضيها في الاهوار ولم اتمتع فيها ابداً . اما (الصريفة) التي نمنا فيها فمفتوحة عند الارض والرياح التي تهب بشدة لايمكن لغير حيوانات المناطق الباردة تحملها ، فقد كانت قارصة واستمرت تهب طوال الليل . وقد لف ثيزيجر والاخرون انفسهم ببطانياتهم جيداً ، الا انه كان علي ان افسح لكحلاء لتشم الهواء ، ولا بد انها تتمتع الان بدفء ملجئها وراء ظهري. واخذت ارتجف من البرد وانا ارهف السمع الى عواء الثعالب من بعيد . واتذكر حزمة من ضوء القمر الواهن تسللت خلال القصب وسقطت على وجه عماره الذي كان نائماً وشفتاه مرتفعتان عن اسنانه الى اللثة .

وحاولت خلال تلك الساعات الطويلة الباردة الطويلة بين منتصف الليل والفجر حيث يشرد العقل في بعض الاحيان ويعبر حدود المعقول والتفكير ليلمس ومضات خطيرة من الحقيقة ، اقول حاولت ان اتذكر اسم المكان الذي كنا ننام فيه فلم استطع ، ووجدتني عاجزاً حتى عن رسم خارطة له في ذهني . واستدرت برأسي فوقعت عيناي ثانية على ملامح عمارة العابسة المتجهمة تحت ضوء القمر . لا بد ان ثمة سبباً دعاني للمجيء الى هنا ، ورحت اتساءل مع نفسي ، لان اولئك الذين يستيقظون في ليل الصحراء مثلاً أو في ليل غابة كثيفة ليتمتعوا بمنظر النجوم اللامعة في السماء لا بد لهم من هدف رسموه امامهم . اما الخطوط التي تأتي بهم فتكون مخططاً منظماً على الورق يوضح نمو وغاية مساعيهم ويلقي ضوءاً على نوعية الحياة التي عاشوها . وحاولت ان ارى هل املك لي مخططاً مثل هذا ، واخيراً وجدته على قصاصة ورق الى جانب التلفون من دون شكل معين له في حين يضج بمباهاة واعتزاز ولكن بعودة خائبة خاسرة ، ويسير هنا وهناك خط يمتد على الورقة الى لاهدف ، وفي نهاية احد هذه الخطوط اضطجع الان واذني مرهفة تتسمع عواء الثعالب تحت القمر ورحت ونفسي اتساءل : « ما الذي جئت من اجله لتراه يا كافن ؟.. قصبة في مهب الريح ؟!

وقمنا في الصباح بزيارة قصيرة الى مضيف الشيخ جابر الذي التقينا به في -دبن- قبل ثلاثة اسابيع يتهيأ للحرب ضد اخيه ناصر . كان المضيف على شـاطىء مجرى مائي ضيق تمتد اليابسة على جـانب منه وبساتين النخيل تلوح من بعيد . وكان المضيف بسيطاً متواضعاً غير منتظم يحدثك عن فاقة وعوز كبير بمقارنته مع قلعة ناصر . وظهر جابر الان يختلف عنه حين رأيناه في المرة السابقة يقود رقصة الحرب (الهوسه) فعلى الرغم من الاخبار الغامضة التي تصلهم الا ان الاشاعات انتشرت بعدم سير الامور في بغداد الى جانب ناصر، وان الحكومة ستصدر عليه احكامها. واختفت من وجه جابر علامات الشراسة وعدم الثقة التي كان يكتسي بها عندما وجدناه قبل مدة يحرض العشائر ضد اخيه ، وانما لاح واثقاً متأكداً من مستقبله ، لذلك استقبلنا وحيانا بأدب جم واريحية كبيرة .

وذهبنا بعد الظهر لصيد الخنازير وما غادرنا المضيف وجابر في طرادتنا حتى صاح عليه احد الاشخاص من مشحوف عابر : « هنالك اخبار من بغداد ... لقد انتهى ناصر !.. الحمد لله ! »

— الحمد لله !

رد عليه جابر بهدوء ولم يعلق بشيء آخر أو يعود ليتكلم عن القضية ثانية ، بيد ان دماغه لا بد محشو بها لأن مستقبله كله قد تغير . ولم يكن قبل الآن غير شيخ بالاسم فقط ، اما بعد اليوم فستكون لديه اموال واراض ومركز مرموق وعدد من العبيد الذين كانوا جنوداً لناصر . وفكرت بما سيكون عليه مستقبل ناصر ، ولأنني لا اعرفه ولا تعنيني اعماله الخبيثة تلك لذلك اثارت هذه الاخبار في نفسي بعض شفقة عليه . وتراءى لي انه سيكون شخصا مطارداً لا اصدقاء له ولا ثروة ، وعليه ان يعيش بعد اليوم كعبود ، الذي قتل الشيخ دخيل في حادث اطلاق النار ، الى جانب مركز للشرطة في منطقة اعدائه حتى يـأتي يوم تتضاءل فيه قوة الشرطة وحينئذ عليهم ان يتوقعوه جسداً ملقى في قناة طينية .

ولا زلت اتذكر جيداً ذلك المساء لبهائه وروعة سمائـه . ولاحت الغيوم القطنية وقد امتدت فوقنا بيضاء تحت زرقة السماء ، وكأنها اصابع عمـلاق ،

وظهرت ايضا وكأنها بناء صلب ، او انها شواطىء الممرات المـائية او مقدمة الطرادة العالية . وانحدرنا مع التيار خلال بساتين النخيل الرائعة وشجر السنط المزهر والصفصاف والحشائش الربيعية النضيرة في ارض غمرتها المياه حديثا حيث القصب اخضر قصير نحيف . والطبيعة هنا الوان مختلفة براقة وجموع آكل النمل تزحم القصب وتملأ الجو . وكانت تطير فوق الماء بلمعان اخضر بديـــع واجنحتها المنشورة تكشف عن اللون النحاسي البراق من تحتها بينما انحنى القصب الى المـاء تحت ثقلها ، وكأنها وهي تملأ الهور قوس قزح تمزق في الجو فتناثرت الوانه فوق القصب .

ونامت كحلاء في مكانها المعتاد بين ملابسي ولزمت بسببها مكاني في الطرادة مع جابر عندما اخذ ثيزيجر يخوض في الميـــاه يطارد خنزيراً . ومن غير الممكن للانسان ان يحدق بإمعان في كل ما تحتضنه الطبيعة من حوله ، فنميج الماي يحمله تيار الماء هنا وهناك وهو ساكن لايتحرك وكأنه طيور محنطة . وفـــوق الرأس يحلق سرب يزيد على الخمسة آلاف من طيور اخرى بصخب هائل .

وفيما بين طيور آكل النمل ذات الاجنحة النحاسية اخذت اعـداد من السماك *Kingfisher* تتطاير بلونيها الكستنائي والازرق ونوع آخر منهـــا منقط باللونين الابيض والاسود ، واجسادها مرفوعة الى اعلى ورؤسها تحت اجنحتها المرفرفة في الهواء وعيونها تحدق بانتباه في المياه الممتدة في كل بقعة ، ثم تغوص بخفة كالسهم في وضع عمودي لتلتقط صيداً لمحته بنظراتها الحادة . ولاحت نهـــايات القصب شاحبة وكأنها صوف خام على مغزل ماكنة غزل قديمة ،وفوقهاطيرمن فصيلة مالك الحزين الجبار *Goliath heron* اخذ يحلق في الجو بجناحيه الضخمين وعنـــدما يقف على الارض تراه بحجم الانسان .

وعدنا في المساء الى مضيف جابر خلال مسالك مائية ضيقة وضفاف صلبة على الجانبين . وقد تأثر ملاحونا بكل سحر وروعـــة هذا المساء فأخذوا يسحبون الطرادة الطويلة بسرعة ، وراحت هذه تشق طريقها في القنـاة والى جانبنا كانت تتكون جدران ناعمة مندفعة من المياه تخضبها الشمس الغاربة بلونهـــا القرمزي .

وكلما سرنا قليلاً شاهدنا الرفوش *Terrapins* والسلاحف *Nud-turtles* تغوص في المياه امامنا قبل ان نقترب منها. وهبط الظلام قبل وصولنا الى المضيف، والقمر في السماء يشبه خنجر معيدي مقوس ملقى بمعدنه الابيض اللامع على قطيفة سوداء .

* * *

وفي صباح اليوم التالي سافرنا الى مضيف يعود الى احد اخوة جابر . وظهر انه لم يقاس من ابيه ما قاساه جابر ، لأن مضيفه كان كبيراً محترماً يقع على ضفة نهر عالية ، واقواسه تزينها سيقان واوراق القصب الخضراء المثبتة هنا وهناك لاستقبال السنة الجديدة . وكانت البواري المحيطة بالمضيف من جهة النهر قد رفعت الى اعلى لتدخل النسائم المنعشة ، ومن حيث جلست رحت احدق لأكثر من ساعتين في الطبيعة الغنية امامي ، فماء النهر يمر بالمضيف بسرعة خمسة او ستة اميال في الساعة وعرض النهر حوالي ستين ياردة ، ومع ذلك فخلال الساعتين اللتين كنت خلالهما احدق في كل شيء امامي رأيت من الصعب علي ان ألمح ولو قدماً مربعاً من سطح الماء مكشوفاً تماماً . ولأن مسالك الانهار الجانبية كانت مفروشة بطبقة كثيفة من زهور بيضاء اللون وذهبية ، فالنهر كان يحمل على سطحه بساطاً ضخماً مرتجفاً من اجنحة حشرات ميتة . وفي مكان ما ، وربما هناك بعيداً خلال مجرى النهر ، فقست من هذه الحشرات ملايين لاتحصى وجرفتها الامواه الهائلة في تيارها لتخلق هذا الموكب الجنائزي الهائل .

* * *

وفي المساء وصلنا مضيفاً كبيراً يقع في نقطة تلاقي ثلاثة نهيرات بينما تحيطه اليابسة من ثلاث جهات ، وهنا وهناك تناثرت بساتين غير كثيفة من النخيل . واستقبلنا على الضفة رجل زنجي ارشدنا الى المضيف ثم ذهب يبحث عن سيده الشيخ ليخبره بوصولنا . وفي داخل المضيف لم نجد غير رجل واحد كان يجلس متربعاً ويستند بظهره على الجدار الايمن . ولم ينهض قائماً عند دخولنا كما اعتدنا ذلك من قبل وحتى لم يرد على تحيتنا بأكثر من شفاه تتمتم بصوت غير مسموع . ولم يتيسر لنا ان نرى غير جانب صغير من وجهه لأنه كان ملفوفاً بالعقال تماماً كما

لو ان الرجل يشكو من الم في اسنانه . وجلسنا نحن في الجهة المقابلة له ، ولكنه بقي بلا حراك غير ان عيونه السود راحت ترمقنا بنظرات تلوح ولا معنى تحمله . وكل ما استطعنا ملاحظته هو طول قامة هذا الشاب وقوة بنيته . ويلوح من مظهره انه ليس حاجاً من اولئك الذين يحتمل كثيراً ان يعبروا بمثل هذا الجلوس عن عدم ارتياحهم لدخولنا المضيف . وحاولت ان ارد عليه نظراته غير انه لم يحوّل عينيه . وبعد فترة قال ثيزيجر : « انه شاب يلوح سيء النوايا ولا بد انك ستراه شخصاً يثير لنا المتاعب » .

وسرعان ما دخل علينا الشيخ واخذ المضيف يمتلىء تدريجياً بالقرويين ، وبعد ساعة كان حوالي ثلاثين او اربعين رجلاً يثرثرون مع بعضهم البعض إلا ذلك الشاب فقد بقي وحده في صمته وسكونه . وتناولنا الطعام إلا انه لم يمد يده معنا ليتناول شيئاً منه ، وفوق ذلك كله لم يمنع احداً من الأكل معنا . ولاحظ ثيزيجر كل ذلك فقال : « لقد اغلق عليّ الامر . ان هذا الشاب يخفي ناره في داخله . انه شرير وعدواني المنظر وذلك ما سيظهر بالتأكيد امام اعيننا » .

وانصرمت ساعة اخرى واخيراً ذكرنا بأننا متعبون واننا نرغب في النوم . ونهض الرجال واخذوا يغادرون المضيف الا ذلك الرجل فقد ظل امامنا بـلا حراك . ولم نلاحظ عليه اي تغير يذكر فيما عدا نظراته التي اخذت تتركز اكثر فأكثر . وهمس احد العبيد بضع كلمات في اذن ثيزيجر الذي التفت اليّ قـائلا : « انه جريح ، لقد اصابته طعنات خنزير في وجهه . وكان ينتظر طوال هذه المدة ليسألنا ان وجد لدينا ثمة شيء نفعله له . لقد اسأنا الظن به بتصوراتنـا تلك . » واشار ثيزيجر الى الرجل فجاءه بخطى متعثرة .

كان وجهه ورأسه ملفوفين تحت العقال بلفائف ممزقة تصلبت بالدمـاء التي تجمدت عليها . وبصعوبة كبيرة نجحوا في ازالة القطع القذرة عن وجهه . وعندما اخذت انظر في عينيه وجدته يعاني الاماً مبرحة .

كانت الجروح مفزعة مخيفة . وكان ثمة شيء قد مزق خديه وتعداهما ليخدش بحدة الاسنان العليا والسفلى معا ، وليصيب قسما من اللسان ، وفوق ذلك كله فإن

هذه الثغرة في الجهة اليسرى من وجهه فاغرة وكأنها قد انتزع منهـــا اللحم ولا يمكن التحامها بعد الآن . وفي جهـة خده الأيمن جرح آخر ولكنه اصغر وعلى حوافه تنفرز قطع من ضرس مكسور ، وثمة جروح ورضوض اخرى تحت عظم الحنك في الجهة اليسرى ، وقد قطع بعض تلك الجروح عدداً من الاوردة العنقية، ولاحظت جرحا آخر على مسافة انش واحد تحت العين .ويد الرجل ورسغه الأيسر ايضا لاحا قطعة لحم متهرئة .

واخبرنا الرجل بأنه كان في صدر طرادة مرت الى جانب خنزير نائم في متاهة من القصب ، وقفز هـذا الحيوان فجأة ليقلب الطرادة رأسا على عقب وليرمي الرجل في الماء الضحل ، وفي لحظات قلائل حدثت كل هذه الجروح المخيفة .

وعمل ثيزيجر له كل ما في جهده . وبعد ان انتهى التفت اليّ قائلا : « والآن، هل ادركت تماما كم من خطر كهذا كنت تتعرض له . ارجو ان تكون مرة اخرى حذراً في مثل هذه الحال . »

ولأني رحت اقارن نفسي بهذا الرجل الذي ظهر وجهه وكأنه باسطرمة في مقلاة ، فقد كنت مشوقاً لسماع كل لحظة رهيبة من اللحظات التي مر بهـــا مع الخنزير ، ولكني لم احصل إلا على شيء قليل . كان الرجل قد رمى يده اليسرى امام وجهه ليتجنب طعنات الخنزير غير ان انيابه الحادّة اخترقت خده واسنانه الى داخل فمه . وهذا كل ما عرفته عن الامر . وتراءى لي من غير المعقول ان يتوقع المرء من مثل هذا الرجل ان يتذكر كل شيء عن ذلك الهجوم المدمر الذي لم يدم اكثر من لحظات قلائل . ولكني عجزت عن تصور المنظر ، ولم استطع ان اتخيل كيف ان ناب الخنزير الاعتيادي المعقوف الى اسفل يمكنه ان يخترق الوجه من جانب ليخرج من الجانب الآخر .

ولم نر الرجل ثانية عند الصباح ، ووقفت مفكراً بجروحه عندما غادرنا القرية في وقت مبكر جداً لـكي نتجنب الزيارة الرسمية التي سيقوم بها في ذلك اليوم وكيل مدير الناحية للقرية . وسرنا حوالي ثلاث ساعات والمسالك المائية كلهـــا تسمح لنا بالعبور فيهـا ، وكل شبر من الماء يغطيه بساط رائع من زهور مائية

بيضاء تملأ الجو رائحتها العطرة ، وفي بعض الاماكن تغطى هذه الزهور البيضاء بركاً وبحيرات كاملة فترى امام عينيك اميالاً واميالاً من سطح ابيض فوق الماء اكثر بهجة وروعة تحت الشمس من منطقة جليدية على الجبال . ولا زلت اتذكر زاوية معينة من هذه البرك ، حيث الزهور البيضاء والذهبية وقد ارتفع فوقها على قصبة منحنية اثنان من طير السماك بالوانهما الباهرة ، والى اعلى ثمة نسر osprey يخفق بجناحيه الضخمين ، وبين مخالبه المعقوفة الى اسفل سمكة كبيرة .

وفي حوالي منتصف النهار وصلنا الى قرية صغيرة تقوم على جزيرة واطئة ، ولم يكن فيها اكثر من اربعة بيوت ، وعلى مسافة مائة ياردة فقط عبر الماء قام بيت آخر وحده ، وذلك شيء يثير التساؤل والاستغراب لأن المعروف ان سكان الاهوار ينشئون بيوتهم متقاربة من بعضها البعض لاحتياجهم المساعدة فيما بينهم في ساعات الخطر . وتناولنا طعامنا في الهواء الطلق على جانب كوخ يواجه ذلك البيت الوحيد ، وكان لحماً مشويا او بالأحرى محترقا لدجاجة ماء اصطدناها ونحن في طريقنا الى هذه القرية . واخذت كحلاء تمشي على القصب اليابس بين البيوت ، وبشراهة راحت تتناول شرائح من لحم دجاج الماء . وبعد مضي فترة من الوقت لاحظت ان البيت المقابل لنا كان مهجوراً تماما ، لان لا شحوف مشدودة الى جانبه ، ولا اي علائم تشير الى بشر يسكنونه ، مع انه كان على رصيف الجاموس كومة من الحشيش المقطوع اخذ لونه الاخضر الزاهي يتحول الى لون بني بتأثير حرارة الشمس .

وقد اكد مضيفنا ان البيت كان خالياً ، وان اصحابه هجروه قبل يومين . اما الناس الذين عاشوا فيه فكانوا على خـــلاف مع شيخهم ، والسبب هو ديون لم يدفعوها له ، ونظم الشيخ لذلك حملة تنتقم منهم . واتخذت هذه الحملة شكل جماعة صغيرة من الرجال تهجم على البيت في الليل لتجرده من كل شيء ثمين . وفي حوالي منتصف الليل تسللت جماعة من اربعة رجال ودخلت البيت بكل هدوء فلم يستيقظ احد ولكنهم ما ان رفعوا الصندوق الخشبي الذي يحفظ فيه رجال الاهــوار اشياءهم الثمينة حتى استيقظ رب البيت . فقفز وتناول(فالته) التي كانت ملقاة على

الجدار المجاور له ، وقذف بها بكل قواه الى رأس اقرب رجل اليه فأصابته رؤوسها الخمسة المدببة في وجهه ، فصرخ وسقط على الارض بينما كان عمـود (الفالة) الذي يبلغ طوله عشرة امتار قد برز من فوق رأسه . وفي هذه اللحظة استفاقت القرية الصغيرة كلها ، واخذت الكلاب تنبح عالياً والرجال يتصايحون عبر الماء . وسحب المهاجمون الرجل الجريح الى مشحوفهم وهربوا به في الظــلام ، واستمرت القرية تتسمع توجع الجريح وصراخــه حتى عندما ابتعد المشحوف عنهم كثيراً ليلفه الظلام المطبق . وكان الصندوق الخشبي ملقى عند الباب في نفس المكان الذي تركه عنده اللصوص .

وأطبقت على رب البيت حالة عنيفة من التوتر . لقد رأى بعينيه عمود (الفالة) مثبتاً في رأس الرجل بينما كان مطروحاً على الارض ، وتأكد لديه انه اصابه اصابة قاتلة . وسيجعله ذلك بالتالي هدفاً لحملات ثأرية مخيفة ليست من قبل الشيخ وحده وانما من عائلة المصاب ايضاً . ولم يكن لديه بعد ذلك الا ان يحزم حوائجه القليـلة في مشحوفه ويقود جواميسه وراء المشحوف هذا ويهرب هو وعائلته الى جهــة اخرى بعيدة عن هذه المنطقة .

وحالاً سألهم ثيزيجر عن الجهة التي جاءت منها الجماعة المهاجمة ، فذكروها له... انها القرية التي قضينا فيها ليلتنا السابقة . وبعد لحظــات عقب ثيزيجر على الامر قائلاً : « لاعجب في الامر ، فإن الجروح كان من الغريب ان يحدثها خنزير . ولا بد ان رؤوس (الفالة) الخمسة الحادة قد اخترقت كلها وجهه ، ولابد انهم انتزعوهـا بعد ان مزقوا لحم وجهه بالسكين ، وكان ذلك سبب الثغرات الواسعة الخالية من اللحم على جانبي وجهه .

وحاولت ان اتذكر جروحه بدقة ، وادركت كم كان الرجل محظوظا فإن الرأس الاوسط في (الفالة) يعادل في طوله ضعف الرؤوس الاربعة المجـاورة ، وقد اصابه هذا الرأس في طرف حنكه فحال بذلك دون اختراق الرأس الاصغر حنجرته وما فوق عينيه ، وتراءت لي الثغرات الصغيرة فوق عظم خده وتحت حنكه . ولا بد ان يد الرجل اليمنى كانت تحمل الصندوق وانه رمى يده اليسرى

في محاولة اخيرة ينقذ بها وجهه عندما رأى (الفالة) في الهواء تسدد نحوه ، وهذا سبب الجروح في رسغه وفي المنطقة ما بين سبابته وابهامه .

ولاح ثيزيجر متجهما عندما سمع بكل هذه المعلومات لأنه ليس من انسان يتقبل ان يخدع وان تزيف له الحقائق .

* * *

وقضينا تلك الليلة في قرية كبيرة تدعى – نوافه – يسكنها فخذ من عشيرة – البو محمد – كانت هـذه القرية مزدحمة مكتظة تقوم فوق جزيرة واطئة ، ومكثنا في بيت احكم جانبه المجاور للنهر خوفا من تسرب المياه عند الفيضان ، ولذلك فلكي يصله المرء عليه ان يحتمل نظرات وعواء حاداً من الكلاب الشرسة . وكان مضيفنا غائبا في زيارة للأضرحة المقدسة فاستقبلنا ابنه وهو شاب في الثامنة عشرة خبيث الملامح لم يظهر ارتياحا لنا . وسلمناه امتعتنا واعمدة طرادتنـا (المرادي) لضمان حفظها وسلامتها . وقال لي ثيزيجر : « هل تريد مراقبة هؤلاء الناس عن كثب .. فلا شيخ يشرف عليهم الآن ، وهذا شأنهم منذ ثلاثة شهور ، وهو خير امتحان لقوة الحكومة . وغياب الشيخ معناه انهم ليسوا مسؤولين امام اية سلطة قريبة يخافونها ، وهذا شيء سيء جداً مع مثل هؤلاء القرويين . »

وجلبت كحلاء كالعادة انتباه واعجاب الجميع ، وسرعان ما احضر لها احد الصبية طيرين تأكلهما . وكان هو قد نتف ريش اجنحتهما فبقيتـا مستسلمتين في قبضة يده ، وعيونهما تلتمع بالخوف والرهبة وجسداهما الصغيران يرتجفان مـع دقات قلبيهما . وذكر لنا الصبي انه اصطادهما بواسطة شبكة من النـوع الذي يستخدم لصيد البط في الاراضي الزراعية المحيطة بالاهوار ولكنها بشكل اصغر ، وقد اعتاد الصبي ، كما قال ، ان يصطاد في كل يوم عدداً من مثل هـذه الطيور الصغيرة ليلعب بها . وعلمت الآن ما الذي يعنيه هذا اللعب عندهم ، انه يعني نتف ريش الجناح من الطير ثم يسحبـه الطفل بواسطة خيط يشد قويا في رجـل الطير الصغيرة حتى اذا اصابه التعب من كثرة سحبه واللعب به تركه لتلتهمه احدى القطط . وكان الصبي فخوراً بمهارته في الصيد ، صيد الطيور التي يلعب بها . ونظر

الينا بعيون ناعمة في وجه جميل كالزهور وعرض ان يخرج الينا شبكته . وبعد هذا تراءى لي انه لا يمكن لأحد ان يغضب منه او يلومه اكثر من ان يلوم طيراً جميلا ساحراً ولكن ... من الطيور الجارحة . وكأنما كان ثيزيجر يعبر عما يدور في خاطري حينما قال : « ان من العبث ان ترشد او تنصح هؤلاء الناس فهم كما تراهم عليه الآن لا معنى لديهم للألم الذي يعانيه حيوان معذب . وانت بدورك لا تستطيع ان تترك هذين الطيرين ليعودا الى عالمهما الحر فقد نتف الصبي ريش الجناح منهما . »

وتناولهما ثيزيجر مني وضغط ابهامه على قلب كل منهما ، ورفرفا قليلا وارتجفا وانقطعت بعد ذلك انفاسهما الاخيرة . والتهمت كحلاء لحم الصدر منهما ، ولاحت مثلهما جميلة رائعة وان كان ذلك هو يومها الاخير في الحياة.

وفي المساء اصطدنا لها طيراً كبيراً تناولت لحمه بشراهة ونهم ، ولكنه كان.. آخر وجبة لها في الحياة .

الجو في ذلك المساء بارد ، وفي سقف البواري فوق رأسي فجوة تراءت منها النجوم لامعة ، ولكن ثمة ريح باردة خفيفة اخذت تهب لتخلق ذلك الحسيس الذي يمزق صمت الليل عند الجدار المجاور لي . ولم تشعر كحلاء بالراحة ولم تأخذها لحظة من هدوء على الفراش . ولم يجل في خاطري انها تريد ان تموت لذا لم اتمالك اعصابي معها . وكانت الحركة طوال الليل لا تهدأ حول النار الموقدة خلف رصيف القصب القائم في منتصف الدار .

واستيقظت مرة لأرى مضيفنا الشاب يقف على الرصيف عاريا وهو يعيد ترتيب المرادي التي اسندت على رصيف القصب هذا . وفي تلك اللحظة كنت قد نسيت ما حدثني به ثيزيجر لذا لم اظن في الامر شيئاً .

وفي الصباح اخذت كحلاء الى بقعة من ارض يابسة خارج القرية لأسمح لها بالسير ، وهناك فقط ادركت انها مريضة جداً . فعندما وضعتها على الارض لم تتحرك وانما بقيت ساكنة وعيونها ترسل الي نظرات طافحة بالحزن والكآبة ، وعندما رفعتها ثانية اخذت حالاً تبحث عن الظلمة الدافئة تحت قميصي . وقررت

ان اخبر ثيزيجر بالأمر ، ولكني عندما عدت الى القرية وجدته محـاطاً بحشد كبير من الناس وكلهم يتصايحون من حوله حتى عجزت عن الاقتراب منه . ولم استغربه ذلك الوضع فإن ثيزيجر كثيراً ما يعجز عن السيطرة على تلك الساعة التي يقضيهـا في التطبيب ، وما اكثر ما يتكرر مثل هذا المنظر امام عيني . ولم استطع ان ادرك بان ذلك الحشد كان غاضباً ــ وقد لاحظت سابقـاً كيف تتشابه التعابير الانفعالية عندهم في كل الاحوال ــ ولم اتعب نفسي في التفكير اكثر من هذا . وفي ذلك الوقت كنت استطيع في بعض الاحيان فهم خلاصة محاورة تدور بالعربية ، مع اني لا اتكلم غير القليل منها ، ولكن ليس هناك صوت معين واحد في هذا الهرج يمكنني تمييز كلماته . واخذت اتجول مرة اخرى وانا اؤكـد لنفسي ان كحلاء ليست اسوأ مما كانت عليه عندما اطعمها جابر قطعة من لحم الضأن، ورواغت نفسي بانها لا بد ان تشفى . وكانت القرية نصف خـالية من الناس بسبب الحشد الكبير الذي كونوه حول ثيزيجر ، لذا انتهزت بدوري فرصة هذا الوضع غير الاعتيادي لالتقط ما اشاء من الصور بحرية اكثر ومن دون ان يلتفوا حولي او يرمق الكامرة احد . وكانت صفوف مقدمات الطرادات عند الضفاف تنعكس في الماء الى اسفل وكانها مخالب مخيفة مرعبة ، وفوقها في السماء الزرقاء غيوم بيضـاء ، ترسم هناك نفس اللوحة .

وفي ذلك الصباح حدثت اكثر من ميتة واحدة لحيوانات صغيرة ضعيفة فقرب حافة الماء اخذ يتعثر جمع من فراخ الوز الوحشي كان قد فقس بيضـه تحت دجاجة، وسرعان ما حط غراب اسود وابيض على مقدمة مشحوف قريب منها واخذ يحدق فيها بعين لامعة باردة فوق منقار يشبه سكينة رجـال الكوماندو ، السوداء . واخذت الدجاجة تصيح في محاولة لابعاد فراخها عن الماء ، ولكن عندمـا تأخر احدها عن البقية وراح يجاهد في اللحاق بها هبط عليه من الاعلى جناح ضخم ،وفي لحظات تناوله الغراب ورفعه من الارض وعندما ابتعد قليلاً اخذ يقضي عليه ببطء شديد ، فقد كان يدعه يهرب لعدة مرات دون ان يمسه حتى اذا حاول هذا ان يلحق امه بصوت خفيض خطفه ثانية ، وبعد المرة الثالثة رأيت الفرخ وقد اقتلعت احدى عينيه . وكان لايزال حياً عندما حمله الغراب عبر النهر وارجـله الصغيرة

تتلاعب في الهواء ... ورحت اتساءل مع نفسي : كم جـــامداً صلبا قلبك ايها الخالق !

وعندما اقتربت من الحشد ثانية كان ثيزيجر يشق طريقه خلاله وهو يصرخ بصوت عالٍ ليسمعوه . واتذكر انه كانت هناك امرأة تلوح بيدها بقوة وتصرخ بألفاظ لا يفهم منها إلا انها سب وقذف ، وعلى رأسها استقرت قفة من فضلات الجاموس . واخذ ثيزيجر يخطو بين القرويين وكأنه عملاق بين اقزام وهو يصرخ بهم بكلمات خشنة عنيفة . وهناك على البعد تمكنت من مشاهدة ملاحينا وهم ينقلون امتعتنا الى الطرادة . كان ثيزيجر يتملكه الغضب تماماً وهو يصيح : « لقد سرقوا امتعتنا في الليل، انه مضيفنا المراهق .. ولكن كلهم اشتركوا معه .. كل القرية». ووصلنا الى الطرادة وما دفعناها في الماء لمغادرة القرية حتى وقف ثيزيجر في صدرها يتلفظ بكلمات خشنة على الحشد العدو الذي كان يقف عند الشاطىء . واستمر على ذلك حتى ابتعدنا عنهم مسافة خمسين ياردة .

وبمضي الوقت اخذت تتوضح لي تفاصيل القصة ، ولكن ثيزيجر ما زال يتملكه غضب عنيف لا يرغب فيه ان يتكلم مع احد إلا ان يكون عدوه ليفرغ ما في قلبه من نار والم .

كانت مرادي طرادتنا المصنوعة من الخيزران قد سرقت خلال الليل ووضعت مكانهـــا مرادي اعتيادية تافهة (ويمكن التمييز بين النوعين بسهولة ، فأعمدة الخيزران المستوردة تكون قوية وصلبة ، بينما (المرادي) الاعتيادية تصنع من قصب الهور السهل الانكسار) وتذكرت اني رأيت جانباً من هذه السرقة عندما استيقظت في احدى ساعات الليل لأرى الشاب يقف عارياً على الرصيف ، ووضعه ذاك وهو عار قد دبر ليجعل المرء يظن بأنه استيقظ لتوه من النوم بسبب سقوط المرادي عليه وانه كان يحاول ترتيبها ثانية . وعندما اكتشف ثيزيجر الامر وجه التهمة للشاب ، غير ان هذا ادعى بأن المرادي التي اودعناها لديه كانت من القصب، فأثارت تلك الكلمات ثيزيجر فضربه بقبضته على اذنه ، ولكنه استمر في ادعائه ذاك وفي اعلانه بأنه بريء ، إلا ان ثيزيجر لم يداخله شك في ظنه .. واخيراً عرض

الصبي أن يعيد اليه المرادي التي سرقها .

واستغرق هذا العمل منه بعض الوقت لأنه كان قد وزعها على جميع البيوت المجاورة وفي كل مرة يعود فيها بواحد من المرادي يدعي انه كل ما لديه منها ولكن في كل مرة تدفعه التهديدات للذهاب الى احد البيوت المجاورة ليعود بمردي آخر حتى اكتمل عددها . وحينئذ ترك ثيزيجر البيت وابتلعه ذلك الحشد العدو حين لحته وانا عائد من خارج القرية لأخبره عن كحلاء . وفي الطرادة اخذ يتمتم : « لقد مررنا في الحقيقة بمخاطرة كبيرة ، فقد كان من السهل أن ينفجروا علينا بغضب جنوني قد يستخدمون فيه بنادقهم ضدنا وانت لا هم لديك إلا التجول كما لو انك سائح في الفاتيكان ؟ » .

وحينما اكتمل لدينا عدد المرادي ذكر قروي حملناه معنا خلال اليومين السابقين بأن هراوته قد سرقت منه ايضاً في الليلة الفائتة . فأرسل ثيزيجر ملاحنا حسن ليخبر الشاب المغرورق العينين بدموعه بأنه ما لم يرجع الهراوة حالاً فإن ثيزيجر سيرجع اليه ثانية . وبلا كلمة او اعتراض اخرج الشاب الهراوة من تحت (البارية) المفروشة على الارض . وعقب ثيزيجر على الامر قائلاً : « ان هذا هو ما يحدث لديهم عندما يبتعد عنهم شيوخهم ، في حين لن تجسر عشيرة يترأسها شيخ ان تقدم على مثل هذه السرقة . وقد ذكرت لك بأنهم يحتاجون دائماً الى من يلاحظهم ويراقب اعمالهم » .

* * *

وقمنا لساعة واحدة بسفرة عبر ممرات مائية تختنق بالزهور في هور تطبق عليه خضرة زاهية ، وتوقفنا عن السير عند قرية كبيرة تقوم على جزيرة اخرى . وقد حزّ في نفسي اننا عندما هبطنا الى اليابسة كانت كحلاء قد فارقت الحياة . وفي ايامها الاخيرة كانت ضعيفة لا تهدأ لحظة واحدة في مكانها ، وفي داخل البيت كانت تبحث عن الزوايا المظلمة بين اعمدة القصب والجدران . وربما وجد في صندوق الادوية الضخم الذي نحمله معنا شيئاً يمكننا ان ننقذها به ، ولكننا لم نفكر بغير دهن الخروع ، لأن كل ما تناولته تلك الليلة بقي في داخلها . ولم يجد

معها دهن الخروع غير قليل نفع ، ومع انهـا اخذت ترضع من القنينة بصورة اوتوماتيكية فإنه لم يكن يتردد في داخلها غير بقية رمق من حياة . وجلست الى جانبها لمدة ساعتين عاجزاً عن القيام بأي شيء لهـا حتى عاد ثيزيجر من عمليات التطبيب ليقول لي : « من الافضل لك ان تخرج لبعض الوقت واتركني لملاحظتها فإنه الجحيم بعينه ان ترابط هنا طوال الوقت دون ان تتمكن من القيام بأي عمل مجدٍ لها . ان هذه آخر قرية في الاهوار وربما لن تتمكن من رؤية واحدة اخرى .

وخرجت فعلاً وتذكرت اشياء كثيرة كان بودي ان التقط صوراً لها ولكنني كنت دائماً اؤجل هذا الامر ، وعندما حاولت ذلك الآن وجدت ان احد اقسام كامرتي قد كسر فعدت الى البيت ثانية .

وغادرنا القرية بعد ساعة . وعندما احسست مرة اخرى بدفء كحلاء بين قميصي وجسدي غمرتني لحظة من أمل كاذب انها ستعاود صحتها ، ولكن القدر كتب عليهـا الا تمكث هناك . فقد اخذت تتسلق على جسدي بقوة غريبة ، وفرشت نفسها على ارض الطرادة باضطراب ونشرت لها منديلي بين ركبتي لأعمل لجسدها المحموم بعض ظل يحميها من الشمس . واطلقت كحلاء مرة صوتاً ضعيفاً واهناً ، وكان ذلك الصوت الوحيد الذي صدر عنهـا قبل ان تنام ، وبعدها بلحظات قلائل لاحظت رعشة تسري في كل جسدها الضعيف ، ووضعت عليها يدي واحسست بالصلابة الغريبة التي تعتري الحيوان في الثواني الاولى لموته ، وأخيراً .. اصبحت تحت يدي شيئاً رخواً .

ـ ماتت !..

قلتها بالعربية ليتوقف ملاحونا عن التجذيف . وسألني ثيزيجر : « هل انت متأكد من ذلك ؟ » وراح ملاحونا يحدقون في وجهي بنظرات من الشك .

ـ هل ماتت تماماً ؟!.

اخذوا يسألونني المرة تلو الاخرى . وناولتها الى ثيزيجر فتهدل جسدها الصغير الطفل في يده ، وقال : « اجل ... لقد ماتت ! » ودفعها بهـدوء على سطح الماء

فسقط جسدهـــا الميت على بساط الزهور الابيض والذهبي وظهرهـــا الى اسفل ومخالبها ذات الغشاء اللحمي الى جانبها .. تماماً كما اعتادت ان تنام عندما كانت تسري في شرايينها دماء الحياة الدافئة.

ـ روحوا ! .. روحوا !!

قالها ثيزيجر لملاحينا بالعربية ، غير انهم جلسوا بلا حراك ينقلون نظراتهم بين عيني والجثـــة الصغيرة التي كانت تطفو على بساط الزهور ، وتملك ثيزيجر الغضب لمنظرهم هذا ، الا ان عماره استمر يتطلع الى وراء حتى اســـتدرنا الى زاوية من قصب اخضر صغير ، واخيراً غابت كحلاء عن انظارنا الى الابد !

واخذت الشمس تلقي بأشعتها الباهرة على الزهور البيضاء في حين تحلق فوقها طيور السماك الجميلة الزرقاء ، ولكن كل هـذا لاح لي لا شيء الى جانب كحلاء وميتتها الفاجعة . ورحت اعزي نفسي بأنها ليست الا واحدة من آلاف مثلهـــا يصيدها المعدان في الاهوار بفالاتهم ذات الخمسة رؤوس القاتلة أو يطلقون عليها النار أو يأخذونها وهي صغيرة لتموت ببطء في قبضة قروي ليس فيها غير القليل من التأثر ، ومهما يكن من امر فقد ماتت ... كحلاء !

انتهت الرحلة ... وفي مساء اليوم الذي ماتت فيه كحلاء وصلنا نحن – مرقد العزير – على نهر دجلة . وكان الشيخ الذي نزلنـــا في مضيفه غائباً في سفرة الى بغداد ، ومضيفه خالياً الا من خـــادم زنجي . وعلى الرغم من ان ثيزيجر لا تهزه عاطفة تجاه الحيوانات الا انه لاح في ذلك اليوم متأثراً لحزني على كحلاء . وعندئذ فقط استغربت نفسي وانا اقطع كل تلك الابعاد والمسافات وحدي مع شخص انكليزي لم اعرف عنه الا القليل .

وكان ثيزيجر قد قرر العودة الى البصرة فقط لغرض جمع رسائله قبل ان يغادر ليقضي اوائل الصيف بين قبائل الرعي . واقترح علي خلال حديثنا ان امكث معه بدلاً من العودة الى انكلترا ، وقال لي : « ستتمكن هناك من رؤية اسلوب آخر من الحياة . » واضاف قائلاً : « وستتمكن ايضاً من الحصول على كلب بحر آخر. »
واخيراً قررنا ان نمكث في البصرة مدة نجمع خلالها رسائلنا القادمة وتتمكن فيها من ارسال بعض الرسائل الى اهلينا واصدقائنا ثم نغادر سوية بعـد يومين او ثلاثة ، ولكن هذه الخطة لم يكتب لها التنفيذ .

ومن – مرقد العزير – قطعنا حوالي ستين ميلاً لكي نصل الى البصرة . وعندما وصلنا القنصلية العامة هناك وجدنا ان رسائل ثيزيجر قد وصلت بينما لم يرد الي شيء . فأبرقت الى انكلترا ولما لم يصلني شيء خلال الايام الثلاثة التي انتظرتها ، حاولت الاتصال بلندن تلفونياً . وكان علي ان احجز للمكالمة قبل اربع وعشرين ساعة ، والاتصال التلفوني الى انكلترا لا يحصل من العراق الا خلال ساعة معينة من اليوم .. ساعة لا يمكنني فيها الحصول على احد في لندن بالنظر للتفاوت في الوقت بين العراق وانكلترا . كان الخط التلفوني في اليوم الاول معطوباً ، وفي اليوم الثاني وجـدت

الاتصال مقطوعاً بسبب عطلة دينية ، وفي اليوم الثالث رافقتني الخيبـة ايضاً في محاولاتي . وقررت الالتحاق خلال اسبوع واحد بثيزيجر الذي عـاد الى مضيفه عبد النبي .

وقبل يومين من موعد مقابلتنا عدت الى القنصلية العامة متأخراً بعد الظهر بعد غياب عدة ساعات عنها ، فوجدت ان بريدي قد وصل فحملته بلهفة الى غرفـة نومي لأقرأه ، وهناك وجدت اثنين من رجال الاهـوار وقد تقرفصا على ارض الغرفة ، ولفت نظري كيس كان ملقىً الى جانبهما وفي داخله شيء يتلوى ويتمايل من حين الى آخر .

وقدما لي رسالة من ثيزيجر قرأتها فاذا هي : « اليك كلب البحر هذا ، انـه ذكر مفطوم . واظنك ترغب في اخذه معك الى لندن . اعط الى — عجرم — ، الذي حل معنا محل كذبة ، رسالة تخبرني فيها بوصول الحيوان . »

نزعت اربطة الكيس ، فقفز منه مخلوق صغير يختلف تماماً عن اي كلب بحر رأيته من قبل . ورفع لي وجهاً جامداً بأنف اسود ونظر حواليـه ونفض فروه القصير .

الا ان مجبل — كان كلب بحر من فصيلة غريبة تماماً على العلم الحديث ، وهو حقاً يستحق كتاباً خاصاً به ... كتاباً ارجو ان تتاح لي فرصة وضعه عندمـا لا تضطرب في ذهني ذكريات السنة التي قضاها معي ..

هذا الكتاب

- في هذا الكتاب مُعاناةٌ شخصيّة صادقة للحوادث، ومُعايشة أمينة لأقسى الظروف.
- ركوب للأخطار، وتحمل للمزعجات والمنغّصات، بل وقوف أمام الموت وجهاً لوجه..!
- نفحة رومانسيّة تلفّ أسلوب الكاتب في وصفه لمظاهر الطبيعة وتحدثه عنها.
- روحٌ واقعيّة نفّادة واعية، لا تغفل أصغر الأشياء وأتفه المخلوقات وأدق التفاصيل.
- بساطة محبّبة ووضوح وصراحة لاحدّ لها، مع رشاقة في العبارة تشفّ عمّا وراءها من فكر.
- تصويرٌ دقيق شامل لحياة فئة من الفلاحين في منطقة الأهوار العراقيّة بإنسانها المكافح وحيوانها الغريب ونباتها النادر.
- كتابٌ عن بيئة عربيّة بقلم مغامر أوروبي يتضمّنُ دعوة للكتّاب العرب أن يكتبوا عن مثل هذه البيئات بأمانة وصدق.

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

الثمن : ٤٥٠ ق. ل. او ما يعادل